تاريخ الأدب العربى

الجزء الثانى

في

صدر الاسلام والعصر الاموى

بقلم

السباعي السباعي بيومي

أستاذ أدب بدار العلوم العليا وكلية اللغة العربيه

الطبعة الثانية

١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م

الثمن ١٥ ص

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ



في

صدر الاسلام والعصر الأموى

بقلم

السباعي السباعي بيومي

مدرس أدب بدار العلوم العليا وكلية اللغة العربيه

الطبعة الثانيه

١٣٥٤هـ — ١٩٣٥م

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ



وبه نستعين

تاريخ الادب العربي

فى

صدر الاسلام والعصر الاموى

هذان عصران ضم بعضهما إلى بعض منهج الأدب بمدرسة دار العلوم العليا وكلية اللغة العربية لطلبة السنة الثانية فيهما ولكن لاعلى أن يلقى القول عنهما مجتمعين وتصدر عليهما الأحكام معا ، فان ذلك إذا حاوله محاول جاء كلامه عاما لايثمر ولايفيد وجاءت أحكامه بعيدة عن مواطن الرشد والسداد لأن كليهما على مابينه وبين قرينه من تشابه بعيد عنه بما حدث فيه من أحداث واختص به من أمور . لهذا فانا فاصلون بينهما فى القول فصلا وجاعلو عصر صدر الاسلام بحكم سبقه أولا ومدته ثلاث وخمسون سنة تبدأ بقيام صاحب الدعوة ﷺ بها فى مكة قبل الهجرة باثنتى عشرة سنة وتنتهى بمبايعة الحسن ابن على رضى الله عنهما معاوية بالخلافة سنة إحدى وأربعين مبايعة انتهت بجعل الولاية على المسلمين ملكا عضوضا لاكما كانت فى عهد الخلفاء الراشدين

عصر صدر الاسلام

أثر الاسلام فى العرب ولغة العرب

لغة الأمة مرآة ترى عليها صورتها بالحال التى هى عليها وهى شديدة الحس والتأثر بكل مايعتريها ومن ثم كانت الانقلابات السياسية والدينية والاجتماعية ذات أثر بين فى اللغات وبقدر مايكون لتلك الانقلابات من قوة وسعة يكون التأثير فى اللغة صعودا وهبوطا رفعه وانحطاطا . ندلى بهذه التقدمة لنحكم بأن الأسلام وهو ذلكم الانقلاب الهائل الخطير قد غير من أوضاع الأمة العربية تغييرا تناولها فى كل ناحية من نواحيها بدرجة لم تك لأى حدث فى أية أمة سواها حتى ليقال دون مبالغة ولا تزيد إنه خلقها خلقا جديدا جعلها فى حسها ومعناها غير ماكان عليه أسلافها فكان لذلك فى اللغة من الأثر البالغ والتغير الكبير مانحن بصدد إجماله الآن وتفصيله فى مظاهر اللغة بعد .

الانقلاب الحسى

عاش العرب جاهليتهم محصورين فى جزيرتهم لم يخالطهم فيها غيرهم ولم يرتحلوا هم للاقامة بعيدا عنها وهى كما تعلم جزيرة على سعتها ليس فيها نهر يجرى ولا سهل يزرع كما للامم حولها إنما هى أرض تكاد تتقاسمها الصحاري والنجود وفيها من الجبال ذات الأودية محط الغيوث والأمطار ماينبت العشب والكلأ يعيش عليه ماشيتهم من إبل وضأن ومعز وعلى تلك الماشية هم يعيشون ، فهى بلاد يحيا أهلها حياة البدو إلا من كان منهم فى بعض أطرافها من الحضر المتمصرين وإنهم قليل .

طالبتهم هذه الحياة أن يجيدوا وصف الأرض فى الناحية التى عليها بلادهم من الصحارى المترامية الأطراف ذات الرمال المحرقة والمفاوز المهلكة ومن النجود العظيمة تشقها الأغوار البعيدة ومن الاودية المطمئنة تحدها الجبال الشامخة وأن يجيدوا بالتبع لذلك نعت الأبل من رواحل وجزر فعلى الأبل حين الرحلة عمادهم ومن لحمانها وألبانها شبعهم وريهم ومن أصوافها وأوبارها ملابسهم وخيامهم كما يجيدون وصف نبات البادية من كلأ وعشب ورياحينها من عرار وبهار وشجرتها ذات الصلة الوثيقة بها وهى النخلة التى برع البدو فى معرفتها والوقوف على خصائصها حتى لم يتركوا منها شيئا دون استخدام وانتفاع:

وطالبتهم وهم قوم يعيشون فيها على المطر إذا جادهم أخصبوا وأمرعوا واذا أخلفهم أجدبوا وأقحطوا أن يطيلوا النظر الى السماء يتعرفون مواطن السحب والغمام الممطر منها والجهام ومهاب الرياح باردها وحارها مستقيمها ونكباتها لما لها من العلاقة الوثيقة بالامطار على أن لهم إلى نظر السماء اذا صفا الجو وتبددت الغيوم حاجة أخرى فان بها من النجوم ما عليه هدايتهم وفيه ارشادهم حيث يسرون فى ظلمات الليل البهيم وما كان مسراهم غالبا إلا فيه فرارا من حر الشمس التى تذيب بوهجها فى صداتهم أدمغة الضباب

وطالبتهم وهم قوم رحل ينتجعون منابت الكلأ لا يستقر بهم قرار أن يعدوا للرحلة عدتها فيتخذوا بيوتهم من الشعر يرفعونها اذا ارتحلوا ويضربونها اذا أقاموا وأن يجيدوا نسجها من الصوف والوبر ويحسنوا رفعها بالاعمدة والاوتاد وتثبيتها بالاطناب والاسباب

ثم طالبتهم أخيرا أن يكونوا فى مآكلهم وملابسهم على حال من التقشف والتبدى لا تدع لهم تلونا فى مأكل ولا تأنقا فى ملبس ولا تنوعا فى آنية ولا قنية لأثاث أو رياش مما هو بالحضر كثير المشاهدة وليس عنه لسكان المدن محيص

هذا هو الميدان الحسى الذى كانت تتطلع فيه العرب جاهليتها ومنه تنتزع حواسهم وبه تتأثر مشاعرهم فلا يصدرون فى تصويرهم الا عنه ولا يصفون فى حسهم الا منه ولكن الاسلام إذ جاء غير من كل هذا فلم يكد يطالبهم بالجهاد والغزو فى ممتلكات الفرس والروم حتى خرجت جماهيرهم اليها خروج السيل المندفع فلم يمض صدر من خلافة عمر رضى الله عنه إلا وقد خلفوا هاتين الدولتين فأزالوا الاولى عن رقعتها فارس والعراق وضعضعوا الثانية بما أخذوا من مصر والشام وبهذا احتلوا ما اتسع من الارضين يفلحونها ويزعونها واستوطنوا ماعظم من المدن يتمتعون بخيرها ونعيمها وشاهدوا من مجالى الطبيعة الجديدة الانهار الجارية والسهول المخصبة ومن آثار الحضارة العريقة ما أنتجته حكمة فارس وصنعة الروم وعلم مصر فتبدلت بهم الحال غير الحال ونسوا الصحارى وابلها والنجاد ووهادها والبوادى ونبتها ولم تعد حياتهم حبسا على المطر يتشوفونه فى الجو المتلبد ويتسمعونه فى الريح المزجى ولا هدايتهم وقفا على السماء الصافية ذات النجوم اللامعة ولا طلب عيشهم رهنا بالرحلة يشدون أكوارها ويعتلون أقتابها فمات من كلامهم كل هذا وخلصوا منه الى مايقابله مقابلة الحضارة للبداوة أو التنعم للتقشف بل السعادة للشقاء وكانوا بذلك جد منتفعين فما هى الا ساعة من نهار حتى أشربوا هذه المدنية وتغذوا بها وامتلكوا ناصيتها وزادوا فيها وظهر ذلك عليهم ظهورا حقا ليس بالمقلد ولا المعار ثم ماهى إلا عشية أو ضحاها حتى طبعت هذه الحضارة بطابعهم واستحقوا عن جدارة بما حوروا وابتكروا نسبتها اليهم فقيل الحضارة العربية كما كان يقال حضارة كذا وحضارة كذا وحوت لغتهم كل هذا فاحسنت تصويره وأجادت نعته وأصبحت تسمع فيها منذ الصدر الاول فى ميدان الحس مالم تك تسمع فى حسن أداء وسعة خيال وان كتب المغازى والفتوح لملأى بالامثلة والشواهد على ما جد فى هذا الباب وسيأتى شطر منه بعد

٧

الانقلاب المعنوى

جاء الاسلام والعرب شتى المذاهب مختلفة المشارب لا دين يجمعهم ولا عقيدة تنتظمهم فمنهم المشرك عابد الصنم والوثن وما هو إلا حجر ينحته بيده وينقلب يعبده دون نفع يرجى ولا ضر يخشى . ومنهم الصابىء عابد الكواكب والنجوم لا يرى فى أفولها نقصا ولا فى اختلاف أحوالها طعنا . ومنهم المجوسى عابد النار والشمس يسجد لها فى طلوعها ويقيم بيوت النيران تعظيما لشأنها . ومنهم الدهريون الذين ينكرون البعث والنشور ويقولون « ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » . ومنهم الزنادقة الثنويون الذين يجعلون الصانع اثنين فاعل خير هو النور وفاعل شر هو الظلمة ويقولون إنهما قديما باقيان . ومنهم عباد الشياطين مخافة شرها وعباد الملائكة رجاء خيرها . ثم منهم اليهود والنصارى ومنهم غير من ذكرنا . فجاء الاسلام يدعوهم إلى دين واحد أساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا فبدأ تلك القواعد الخمس بالتوحيد وجعل الجهاد من أجله فرضا وآذنهم أنه يغفر ما يشاء لمن يشاء الا أن يشرك به قال عز شأنه « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وبذلك وحد بينهم فى العقيدة وجمعهم فى صعيد للعبادة وكان هذا الاتحاد القلبى النعمة الكبرى التى امتن بها عليهم حيث يقول لهم (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا) .

وجاء الاسلام والعرب أسرى أوهام وخرافات يدينون بالعرافة والكهانة ويعتقدون فى الزجر والعيافة بل فيما هو دون ذلك من سائر الأوابد كالصدى والهامة وتعليق الحلى على الملدوغ ليسلم وكي الصحيح ليبرأ الأجرب وضرب

الثور لتشرب البقر ووطء المقلاة دم الشريف ليعيش ولدها إلى غير ذلك مما قد ران على قلوبهم وغشى أبصارهم فانتزعه الاسلام منهم وانتزعهم منه وبذلك خلصت من الأوهام عقولهم وسلمت من التخريف أفكارهم.

وجاء الاسلام والعرب تدين بالعصبية والقوة يفنى كثيرهم قليلهم ويأكل قويهم ضعيفهم لايزالون يوالون النهب والسلب والابتزاز والغصب تقوم بينهم الحرب لأوهى سبب ويطول على بقائها فيهم الأمد فتفنى لذلك كبارهم وتنقطع منه ذراريهم وأنسالهم جاء فكان عليهم راية السلام يستظلون بظلها وآية الوئام يعملون على تأييدها فلا قتال إلا فى نشر دين الله ولا غزو إلا فى اعلاء كلمته وبذلك تم توحيد كلمتهم وصاروا يدا واحدة على من سواهم فى غير تفاخر بالآباء والأجداد ولا تكاثر بالأموال والأولاد وكما سوى بينهم فجعل أكرمهم عند الله أتقاهم جعل هذا أساس تفضيلهم على غيرهم فلا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى.

وجاء الاسلام وفى العرب غلظة دونها أكباد الابل وقسوة أهون منها قسوة الحجارة يقتلون أولادهم للفاقة ويئدون بناتهم للقالة (إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب) فنعى عليهم جفوتهم وشدد النكير على فعلتهم إذ اختتم تلك الآية بقوله (ألا ساء ما يحكمون) وقال (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) فسلكها مع جسام الحوادث تهويلا لها وتبشيعاً وقال فى موطن آخر (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيرا) ثم أكثر مطالبتهم أن يكونوا أرقاء القلوب رحماء فيما بينهم فكانوا كما أراد وظهر ذلك فيهم ظهور الشمس حتى فى الشخص الواحد من مخضرميهم وآية ذلك عمر رحمة الله كان فى جاهليته أقسى القساة

وفى اسلامه أرحم الرحماء إلا ما أجاب بشدته فيه داعى الدين .

وجاء الاسلام والعرب مضطربة فى معاملتها تأكل الربا الفاحش وتلعب الميسر المدمر وتستقسم على أعمالها بالانصاب والازلام فتكف عما أرادت وتقدم على ما كرهت فأحل الله البيع وحرم الربا ونهى عن الميسر والاستقسام حيث نهى عن الخمر ونظم لهم معاملتهم فبدل من ظلمهم عدلا ومن فوضاهم نظاما وجعل لهم تشريعا مدنيا شاملا لم يسبقه مثله ولم يلحقه إلا ماهو منه أو هو دونه وكذلك فعل فى التشريعين الشخصى والجنائى وسائر التشريعات الأخرى مما لا تزال السمحة تعلو به سائر الشرائع وتمد العالم منه بالبرهان الساطع والنور اللامع الذى لاينقطع ضوءه ولا يخبو شعاعه والذى لايزال على مدى الأيام تتكشف أسراره وتتضاعف أنصاره فيعترف به الجاحدون ويرى بعد نظره المتبصرون وان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

هذا طرف مما أتى به الاسلام مغيرا لنفسيات العرب فى عقائدهم وعباداتهم، عاداتهم وأخلاقهم ، معاملاتهم ونظم حياتهم وماكان أسرع ماطبعوا عليه وعملوا به واتخذوه الامام الذى لايعصى والقدوة التى لاتنسى وظهر ذلك فى عامة أحوالهم وأولاها لغتهم فقد حادوا بها عن القديم إلى الجديد فلم يك فيها للمعبودات السالفة شأن ولا للاوهام والخرافات ذكر إلا ما كان على سبيل الزراية والعيب كذلك لم تبق ميدانا للتفاخر بالعصبية والدعاء بدعوة الجاهلية وتحسين ماتقبحه العقول والاقدام على ماتنفر منه النفوس دون تورع ولا حياء انما صار الشأن فيها كل الشأن لاقرار كلمة التوحيد ونشرها معالم الدين والعمل على تغذية الامة بروحه ووقفها على أسراره حتى تستعصم بحبله الذى لاينقطع وتستمسك بعروته التى لاتنفصم وشتان بين ما كان وبين ما أصبح لذلك كائنا من كلام فقد هجرت ألفاظ وجدت ألفاظ وماتت معان ونشأت

معان وعدل عن أغراض الى أغراض وما هذا بالمحتاج الى ايراد الشواهد وضرب الأمثال وستأتى فى أبواب النثر والشعر بعد .

« النتيجة »

وإذن فقد تغير من العرب بالاسلام حسهم ومعناهم بصرهم وبصيرتهم ان استوحوا الخيال فمن ميدان غير الميدان وان استلهموا القلب فمن نفس غير النفس ووجدان غير الوجدان على أن التغير لم يقف بهم عند هذين الانقلابين وقد كانت فيهما الكفاية كل الكفاية بل أمدهم بعامل آخر هو القرآن الكريم فى تمام اعجازه فكان أمامهم المثل الحى وموطن المحاكاة والتقليد فى كل مايحاولون من قول ويريدون من كلام

بهرهم القرآن ببديع أسلوبه ومحكم آياته وتلاؤم فواصله فخروا أمامه ساجدين وطفقوا به يستعينون ومنه يقتبسون فكان المنبع المعين ذا الماء الصافى والقرار المكين ومع تمام عجزهم عن محاكاته ظهر أثره فى كلامهم لفظا وأسلوبا معانى وأغراضا . فأخذ بيد اللغة إلى الذروة التى بلغتها ونهض بها الى المكانة التى احتلتها وحق للباحثين فى الأدب من أجل ذلك أن ينسبوا اليه كل ماحدث بها من رقى وظهر فيها من قوة وسلطان

نعم ان للانقلابين السالفين من التأثير فى اللغة ما كنا نجد آثاره لو جاء الكتاب كما جاءت الكتب قبله بلغة لااعجاز فيها ولا احكام والا سلبنا الأحداث الدينية والسياسية قوتها وطعنا فى نظم العمران والاجتماع ووقفنا إزاء الحوادث تكذب دعوانا وتقوم شاهدة على النقيض منها ولكن القائلين بهذه النسبة لايقفون من أثر القرآن فى اللغة عند حد الفصاحة والبلاغة فى الالفاظ والأساليب من حيث التعبير عن المعانى والأغراض والمطابقة التامة لمقتضيات الأحوال حتى يكون لما أوردناه آنفا محل للايراد إنما يتجاوزون هذا الجانب منه إلى

أنه موطن التشريع والتعليم والتقويم والتهذيب والى أن هذا الانقلاب المعنوى قد جاء بدعوته وتم على يده فكل ماعرا العرب منه اليه ينتسب ومنه ينشعب لامبالغة فى هذا ولا مراء ـ أما ذلكم الانقلاب الحسى فمرجعه اليه آت من تشريعه الجهاد فان الدعوة المحمدية لم تجىء خاصة بقوم صاحبها كما كانت سوالف الدعوات بل جاءت عامة للناس كافة وتقرر لتحقيق هذا التعميم الجهاد وكاف ﷺ أن يدعو الأمم جمعاء الى دين ربه فأما أجابوا وسمعوا واما غزاهم لسعادتهم بالسيف غزوا كذلك فعل فى حياته وبه اقتدى خلفاؤه بعد مماته فخرج العرب من جزيرتهم الى ما أسلفنا من أقاليم ذات مزارع وأنهار ومدن وأمصار شاهدوا فيها ما شاهدوا من كل جديد عليهم وتأثروا بما تأثروا من كل غريب عنهم وبذلك انقلبوا الانقلاب الحسى المذكور . ولولا تشريع الكتاب للجهاد تشريعا جعل الموت فيه الى العرب أحب من الحياة وجعل الخنساء وقد قضت جاهليتها باكية أخاها لأبيها تسجد لله شكرا حين جاءها من القادسية نعى بنيها أقول لولا ذلك لما فتح العرب تلك الفتوح ولما خرجوا من جزيرتهم للجهاد ثم للاقامة هذا الخروج . من هنا يكون صدق الدعوى واستقامة الكلام وبهذا أدين ومن ثم وجب أن يكون للقرآن دراسة مستفيضة فى صدر الاسلام تشرح ماله باللغة من علاقة وفى شتى نواحيها من تأثير ضامة إلى ذلك على سبيل الاجمال ماقد يعتبر فى ظاهره من غير الموضوع ولكن لا بدمنه أن يكون وهذا ماسنجرى عليه إن شاء الله تعالى وهو المستعان .

القرآن الكريم

١ – نزوله

القرآن الكريم هو ذلك الكتاب الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحى اليه من ربه نزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين والوحى لغة مصدر وحيت إليه كأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره فهو إعلام فى خفاء وقد يطلق ويراد منه الموحى به وهو كل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه ولكنه غلب فى الحالين عل ما كان بين الله وأنبيائه ومن ثم عرف شرعا بأنه عرفان يجده النبي فى نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله أو بأنه كلام الله تعالى المنزل على أنبيائه .

وليس فى إمكان الوحى خلاف لأن الله جلت قدرته أوجد هذا العالم وحدة متصلة الأجزاء فى مواليده الثلاثة من جماد ونبات وحيوان فترى فى بعض الجماد شيئا من خواص النبات كالنمو وفى بعض النبات شيئا من خواص الحيوان كالحس ثم هذا الحيوان لم يزل الرقى فى الحس يطرد فى أنواعه حتى وصل بالانسان إلى هذا الحد الذى مازه عن جميعها وجعله كأنه جنس آخر ليس منه لما ظهر فيه من قوى الشعور والفكر والارادة التى هى مظاهر العقل وهذه القوة العاقلة التى ميزت الانسان عن سائر الحيوان قد تفاوتت فيه تفاوتا بعيدا لم يك منشؤه اختلاف مراتب التعليم فحسب بل رجع كثير منه إلى أصل الفطرة التى لا كسب للانسان فيها حتى أصبح ماهو نظرى عند شخص بدهيا عند من هو أرقى منه وهكذا لم تزل المراتب تعلو وترتقى حتى اتصلت فى بعضه بما هو فى هذا العالم ألطف من المادة مما نعرفه بالملأ الاعلى أو الوجود اللطيف

فشعرت به بصيرته وإن غاب عن بصره فنفوس الانبياء عليهم السلام قد بلغت من نقاء الجوهر فى أصل الفطرة مبلغا عظيما جعلهم فى الذروة العليا من مراتب الانسان فاصبحوا بمحض الفيض الالهى مستعدين لان يتصلوا بالله فى علاه فترات يوحى اليهم فيها بما يتلقونه من تعاليم يبلغونها ويدعون إلى العمل بها هذا مع تأييدهم بالمعجزة التى تفحم الناس على الايمان بهذا الاتصال وان عجزت نفوسهم لقصرها عن فهم كنهه وادراك كيفه على الوجه الذى بيناه .

وللوحى كيفيات منها أن يأتى به الملك النبى ﷺ مسبوقا بمثل صلصلة الجرس صوتا متداركا يسمعه ولا يكاد يثبته أول مايسمعه ثم يفهمه بعد ولعل الحكمة فى هذه الصلصلة أن يفرغ له سمعه فلا يبقى فيه مكانا لغيره وهذه الحالة أشد حالات الوحى عليه . قال عبد الله بن عمر . سألت النبى صلى الله عليه وسلم هل تحس بالوحى ؟ فقال «أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى الى إلا ظننت أن نفسى تقبض » . ومنها أن يأتيه فى صورة الرجل فيكلمه كما قال صلى الله عليه وسلم « وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول وهو أهونه على » . وانما كانت هذه أهون من تلك لان الاتصال فيها يأتى بانسلاخ الملك عن ملكيته الى البشرية بعكس الاولى فان الاتصال فيها يجىء من انسلاخ رسول الله عن البشرية الى الملكية ولذلك كان يفصم عنه فيها فى شدة القر وهو يتفصد عرقا . هاتان هما أغلب حالات الوحى والأولى أكثر من الثانية . وهناك حالان أخريان، أن ينفث الملك فى روعه الكلام نفثا كما قال صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث فى روعى » أو أن يأتيه فى النوم فيكلمه ، على أنه يمكن ارجاعهما الى السابقتين . أما كلام الله سبحانه وتعالى لنبينه فى اليقظه كما فى حديث الاسراء أو فى النوم كما فى بعض الاحاديث الاخرى فالصحيح أن ليس فى القرآن منه شىء وكله نزل على الحالات السابقة بوساطة

الملك وان كان بعضهم عد من الكلام المباشر آخر البقرة من (آمن الرسول) وبعضا من سورتى الضحى والشرح .

وقد نزل القرآن منجما فى بضع وعشرين سنة ولم يتركنا نبحث عن الحكمة فى تنجيمه فجاء بها ظاهرة فى كثير من آيه قال حكاية عن الذين كفروا وإجابة لهم (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) وقال (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) وأول ما نزل من القرآن كان فى شهر رمضان وهو (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) وآخر ما نزل على الصحيح آيات الربا والدين وبينهما (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) من سورة البقرة . أما القول بأن الآية (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) ينبغى أن تكون آخر ماأنزل كما هو رأى البعض على أن تكون النعمة القرآن فليس حجة إذ المعروف أن هذه الآية نزلت بعرفة عام حجة الوداع حين حج المسلمون البيت وحدهم وكانوا من قبل يخالطهم فى حجه المشركون

وللقرآن إحصاءات كثيرة من حيث نزوله أهمها المكى والمدنى وقد اختلف فيهما فقيل المكى ماوقع خطابا لأهل مكة ولو فى المدينة والمدنى ماوقع خطابا لأهل المدينة ولو فى مكة ولكن هذا لا يتفق والغرض من بيان المكى والمدنى وهو معرفة السابق من المسبوق والناسخ من المنسوخ على أن من القرآن ما نزل بغير هذا الخطاب . وقيل المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدنى ما نزل بالمدينة ولا يكون طبعاً الا بعدها ولكن هذا ليس شاملا أيضا لان من

القرآن ما نزل فى غيرها . والذى عليه المعول أن المكى مانزل قبل تمام الهجرة ولو فى غير مكة كالذى نزل عليه ﷺ وهو فى طريقه الى المدينة مهاجرا والمدنى ما نزل بعد الهجرة ولو فى مكة كالذى نزل عام الفتح أو فى حجة الوداع وأغلب القرآن نزل بمكة لأن البعثة كانت فيها ولطول ما أقام النبى بها .

ويغلب على معانى الآيات المكية الدعوة الى التوحيد وذم الشرك واثبات البعث والترغيب فى الثواب والترهيب من العقاب ووصف الجنة والنار وسائر السمعيات وذكر القصص السالف للانبياء والاداب العامة اللازمة للحياة كما يغلب على ألفاظها شدة الأسر وقوة التبايغ ليشتد بها عضد رسول الله ويقوى جانبه حيث يعز الناصر ويقل المعين . أما الآيات المدنية فقد غلب عليها ذكر الحوادث فى الغزوات لاستخلاص العبر منها وتفصيل ماشرع من العبادات والمعاملات للعمل بها وبيان ما أصبح يحتاجه هذا المجتمع الجديد من النظم الاجتماعية الملائمة فى عبارات تلائم ذلك

وفى تمييز المكى من المدنى على الرأى الذى تخيرفاه آنفاً خلاف كبير غير أن المعتمد عليه أن المدنى عشرون سورة وهى : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانفال والتوبة والنور والاحزاب والقتال والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والجمعة والمنافقون والطلاق والتحريم والنصر ، والمختلف فيه أربع عشرة هي الفاتحة والرعد والحج والرحمن والصف والتغابن والانسان والتطفيف والقدر والبينة والزلزلة والاخلاص والفلق والناس . والثمانون الباقية مكية . وإذ نرجح فى المختلف فيه مكية الفاتحة والتطفيف والقدر والاخلاص والفلق والناس ومدنية الثمانى الباقيات يكون المكى ستا وثمانين سورة والمدنى ثمانيا وعشرين وهو الذى جرى عليه التحقيق فى المصحف المصرى الأميرى الذى تمت مراجعته سنة سبع وثلاثين وثلثمائة بعد

الألف . هذا على أن بعض السور فى كل نوع يشتمل على بعض الآى من الآخر وكل ذلك مميز معروف ولكن تقع التسمية للسورة بالغالب فيها

٢ — جمعه وروايته

كانت الآية أو الآيات أو السورة إذا نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمعها الحاضرين من أصحابه وإذا لم يك منهم حضور أبلغهم إياها وأعلمهم موضعها فيحفظونها وكانوا يتشوفون مثله إلى الوحى تشوف الظمآن إلى زلال الماء فكان كل ما ينزل دائم الحفظ فى جمهرتهم غير أن جلهم كان يحفظ ولا يقرىء وأشهر مقرئيهم سبعة هم عثمان وعلى وزيد بن ثابت وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري، ولم يك يقتصر رسول الله فى المحافظة على القرآن على حفظ الحفاظ بل كان يطلب إلى كتاب وحيه وأشهرهم عثمان وعلى وزيد بن ثابت وأبى بن كعب أن يكتبوا ما نزل فى العسب واللخاف والعظام والرقاع فكان القرآن فى عهده مكتوبا فى هذه الاشياء كما هو محفوظ فى الصدور مرتب الآى غير أن تلك الأشياء لم تك مجموعة بعضها مع بعض بل كانت مفرقة عند أصحابه حين لحق بالرفيق الأعلى

ولم تزل الحال كذلك حتى كانت حروب الردة واستحر القتل فى واقعة اليمامة بالقراء فقتل منهم نحو السبعين وخشى عمر أن يستحر بهم فى سائر المواطن فيذهب كثير من القرآن فأهاب بأبى بكر أن يأمر بجمعه فاستدعى رضى الله عنه زيد بن ثابت فقال له على ماحدث زيد عن نفسه : « إنك رجل شاب عاقل لانتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله فتتبع القرآن فاجمعه قال زيد فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ثم قال فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور

الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الانصارى لم أجدها مع غيره » يقصد (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة فكانت تلك الصحف عند أبي بكر حتى قبض ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين الى أن طلبها منها عثمان رحمه الله للجمع الثانى أو الثالث إن سمينا ما حدث فى عهد النبي ﷺ جمعا على غير المشهور من عدم تسميته بالجمع إذ لم يعد الكتابة الى جمع الصحف بعضها مع بعض كما كان فى جمع أبي بكر وقد تقدم وجمع عثمان وها هوذا :

تقدم أن حفظة الصحابة للقرآن فى عهد النبي ﷺ كانوا كثيرين وأن أشهر مقرئيهم سبعة ذكرنا أسماءهم فمن هؤلاء السبعة أخذ التابعون وهم كثيرون جدا وعن التابعين أخذ الجم الغفير من المسلمين فامتلأت بالقراء على عهد عثمان الامصار وأفضى ذلك الى انفراج مسافة الخلف فى رواية الكتاب وحدث أن تنبه لذلك حذيفة بن اليمان وهو يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزعه هذا الخلاف ولم يكد يعود من غزوه حتى أسرع الى عثمان يقول له : أدرك الامة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلى الينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك فأرسلت بها اليه فأمر زيد بن ثابت الأنصارى وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين أن ينسخوها فى المصاحف وكان مما قاله للقرشيين اذا اختلفتم أنتم وزيد فى رسم شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانه انما أنزل بلسانهم ففعلوا وكان ذلك فى خمسة مصاحف على المشهور بعث بأربعة منها الى مكة والكوفة والبصرة والشام وأبقى عنده بالمدينة خامسها وقيل كانت ستة على أن ما أبقاه لنفسه كان له خاصة غير مصحف المدينة ثم أمر بكل ماعدا ذلك أن يحرق ورد الصحف القديمة إلى

حفصة كما قال وعرف مصحفه بمصحف عثمان أو بالمصحف الامام

من ذلك يتبين آن الغرض مما سمى جمعا فى عهـد رسول الله كان ترتيب الآى فى سورها ومن جمع أبى بكر كان المحافظة على القرآن أن يضيع بعضه بذهاب القراء ومن جمع عثمان كان توحيد الرسم لكيلا ينشأ عن الخلاف فيه تعدد القراءات.وإذن ترتيب الآى فى سورها توقيفى بعمل رسول الله ﷺ من غير ما خلاف.أما ترتيب السور فقيل كان بتوقيف منـه أيضا عرفه من معارضة جبريل له فيما كان ينزل كل عام وفى القرآن كله مرتين بعد تمام نزوله فى السنة الأخيرة.وقيل كان باجتهاد الصحابة بدليل اختلافهم فى هذا الترتيب فقد كان مصحف على مرتب السور على حسب النزول وكانت مصاحف غـيره على الترتيب المعروف مع بعض خلاف بينهم فيه كمصحف أبى بن كعب وعبدالله ابن مسعود ولا يتفق هذا مع التوقيف وهـذا هو الارجح ولا اعتداد بمـا يقوله ذوو الرأى الاول من أن الترتيب لو وقـع بالاجتهاد لتوالت التسابيح وذوات الالف واللام والميم كما توالت الحواميم ولما فصـل بين طسم الشعراء وطسم القصص بالنمل ولا بين ذوات الالف واللام والراء بالرعد اذ لا يبعد أن يكون الصحابة قد استأنسوا بشىء فى اجتهادهم عن رسول الله غـير التوقيف حملهم على مخالفة الظاهر فيما سلف مما لم يك يقضى به مطلق الاجتهاد كما لا يبعد أن تـكون المعارضة وان وقعت لمراجعة الترتيب فى آى السور لا السور نفسها قد وقعت فى بعض السور مجتمعة على الترتيب المعروف .

وبعد فاذا كان المصحف الامام قد ضبط الرسم على عهد عثمان كيلا تتسع مسافة الخلف بين القراء فمن أين تعددت القراءات وحدث فيهما من التنوع الشىء الكثير والجواب عن هذا أن تعدد القراءة لم يك مرجعه اختلاف الرسم وحده بل كثيره يرجع إلى اختلاف العرب فى لهجاتها وفى نظرها إلى إعمال بعض

الأدوات أو إهمالها وبخاصة إذ لم يأت القرآن كله بلغة قريش بل أتى فيه ماليس بالقليل من غيرها وبذلك كان يقرأ رسول الله ويقرىء صحابته . هذا على أن بعض الاختلاف فى القراءة كان مرجعه رسم المصحف الامام نفسه لأن الخط العربى لأول الاسلام لم يك بالغاً حد التوسط بله الاتقان كما قال بذلك فى مقدمته ابن خلدون حيث حكم هذا الحكم ثم قال «وانظر ماوقع لأجل ذلك فى رسم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة فى الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها واقتفى التابعون من السلف رسمهم فيه تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه » فهذا مع خلو الكتابة من الاعجام والشكل إذ ذاك ومع ما تقدم من اختلاف لهجات العرب قد فتح أمام القراء أبوابا واسعة للخلاف جريا وراء التجويز والتأويل فلم تكد تتم المائتان حتى تجاوز الحصر عدد القراء ولكن الناس مع هذا التجاوز كانوا على قراءة سبعة مشهورين هم أبو عمرو بن العلاء وأبو محمد يعقوب ابن اسحق الحضرمى بالبصرة ، وحمزة بن حبيب الزيات وعاصم بن أبى النجود الأسدى بالكوفة وعبد الله بن عامر اليحصبي بالشام وعبد الله بن كثير بمكة ونافع بن أبى نعيم بالمدينة فهؤلاء السبعة هم الذين اشتهروا بالأخذ عنهم أصلا غير أنه قبيل الثلثمائة حذف منهم يعقوب وأثبت مكانه على بن حمزة الكسائى فانخرط يعقوب مع أبى جعفر يزيد بن القعقاع ، وأبى محمد خلف بن هشام وعرفوا بالقراء الثلاثة بعد السبعة المذكورين فكانت القراءات عشرا ثم عرفت القراءات الاربع لمحمد بن محيصن المكى والأعمش الكوفى والحسن البصرى ويحيي اليزيدى بعد فكانت القراءات أربع عشرة ، والمشهور أن السبع متواترة والثلاث آحاد والأربع شاذة ولكن هذا الحكم باعتبار الأغلب فيها إذ القراءة تنقسم إلى صحيحة لايجوز ردها ولا يحل انكارها ويجب على الناس

قبولها وهي ماصح سندها ووافقت العربية ووافقت رسم المصحف الامام وتسمى المتواتر أو المشهور سواء أكانت عن الأئمة السبعة أم عن غيرهم ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة فالضعيفة ماصح سندها وخالفت الرسم أو العربية وتسمى الآحاد والشاذة مالم يصح سندها ووافقت الرسم والعربية . أما الباطلة فهى مازيدت فى القراءة على وجه التعبير كقراءة سعد بن أبى وقاص « وله أخ أو أخت من أم » بزيادة « من أم » خلافا للمعروف.

بقى أن نذكر شيئا عن معنى قوله صلى الله عليه ﴿ أنزل القرآن على سبعة أحرف ﴾ وهو حديث متواتر لامطعن فيه . فبعضهم يفسر الأحرف باللغات ويقول إن القرآن وإن نزل معظمه بلغة قريش قد جاء فيه ما ليس بالقليل من لغات غيرها وإن هذه اللغات لاتجاوزت قبائل هى كنانة وأسد وهذيل وضبة من إلياس ، وبنو سعد وثقيف من قيس وكل هذه مضرية . وبعضهم لايحصر اللغات النازل بها القرآن فى سبع وإنما يقول إن المراد بالأحرف ماتختلف فيه تلك اللغات وإن وجوه الاختلاف لاتعدو سبعة أشياء هي الابدال والتقديم أو التأخير والزيادة أو النقصان وعلامات الاعراب وحركات البناء والتفخيم والأمالة ، وكلها واردة فى القرآن . وبعضهم يقول إن المراد بالاحرف وجوه القراءات التى تتقلب على الكلمة الواحدة فانها لم تتجاوز على كثرة ماعرف بعد حصر وجوه القراءات فى أية كلمة سبعة تغيرات. وكل هذه الاقوال مبينة على تفسير معنى الأحرف من جهة الالفاظ

وهناك من يفسرها من ناحية المعانى ويذكر لذلك سبعة أشياء لاتخرج عن دائرتها مرامى القرآن على خلاف فى عد هذه الاشياء ثم يرجح هذه الناحية ويبين الاغراض السبعة بحديث آخر تنتهى روايته الى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو (نزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف

زاجر وآمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ،فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ماأمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا) ولكن هذا ليس نصا إذ يجوز أن هذا التفسير للابواب لا للأحرف . على أن فريقا ثالثا قال إن الحديث من المشكل الذى لايتعين معناه لاشتراك الحرف فى معان كثيرة منها ماذكرنا ومنها غيره مما لايبعد معه التأويل والله ورسوله أعلم بالمراد .

٣ ـ اعجازه

بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم يحمل الى العرب فى غير مواربة دعوتهم الى الخروج من دينهم والاقلاع عن كثير من عاداتهم وصفاتهم خروجا يتجردون به عما كان يعبد آباؤهم ويغيرون من أجله صفات الاشياء الواقعة بين أيديهم فيحلون كثيرا مما كان حراما ويحرمون أكثر منه كان طلقا حلالا ثم شاء أن تكون معجزته اليهم وفق ماكان للانبياء قبل فى الباب الذى يعرفون لانفسهم فيه نبوغا ويدينون بأن لهم على ولوجه قوة واقتدارا وهو باب الاعراب والبيان . فقد عرف ذلك منهم ولهم منذ اقدم ولم يزالوا يذهبون فيه قدما ويرقون به صعدا حتى جاء الاسلام وقد بلغوا فيه المبلغ الذى لايدانى وعلوا فى الفصاحة والبلاغة علوا كبيرا فعقدت لذلك أسواقهم وزخرت به مجامعهم وأنديتهم .

شاء ذلك فأنزل إليه كتابه بأسلوب راعهم وبيان بهرهم يدعوهم إن صدقوا الى الخروج عما هو لهم كما بينا آنفا وإنه لعسير على النفس وهى بنت الوراثة والعادة أن تترك ماكان عليه الآباء والاجداد وتخلص من عادات اختلطت فيها بالدماء واللحوم فان أبوا الا طغيانا وكفرا وتكذيبا لمحمد فيما قال

إنه من عند ربه وبهتا ،كان لهم أن يقروا على ماورثوا وعلى ومحمد أن يقبع فى داره تاركا ما ادعى ولكن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو شىء من مثله إن كانوا صادقين .

تحداهم الكتاب هذا التحدى وأخذ يتنزل فى المقدار الذى يتحداهم به من القرآن كله الى عشر سور الى سورة واحدة فى عبارة قارصة وسخرية لاذعة وهم ذوو الأنفة والحمية والغضبة الجائحة المضرية واضعا هذا الاتيان فى كفة والالقاء الى محمد بالسلام فى أخرى وماكان محمد بذى العشيرةالمدافعةولاالكثرة الرائعة فان عشيرته الأدنين كانوا عليه لا له صامدين ضده لامعه وهو ذلك الرجل الذى نشأ يتيما فقيرا لايملك من حطام هذه الدنيا شيئا ولا من جاهها كثيرا ولاقليلا سوى ماهيأه له المولى جل شأنه من استكمال صفات النبوة وتوافر ماتحتاج هذه الدعوة فتركوا الاتيان بشىء من مثل هذا القرآن وهم فرسان الفصاحة ورجال البيان وفضلوا أن يبوءوا مخذولين مقهورين تاركين حميتهم وأنفتهم ينالها مالم يك ينالها من خزى وعار وأنصارهم وشيعهم يتسللون الى محمد لواذا مؤمنين فما ذلك وعن أى شىء يكون ؟ إنه للدليل الناصع والبرهان القاطع على أن أولئك القوم قد عجزوا عن التكلم بمثل هذا القرآن ولو قدروا لتكلموا ولقارعوا محمدا بالحجة وأفحموا حتى تسقط دعواه فى يده وتقع نبوته صرعى لاترى لها من مقيل

على أن محمدا هذا لم تكد تتجمع حوله الأنصار والاتباع ويحس بشىء من القوة المادية والمتاع حتى انتقل من الدعوة باللسان إلى الدعوة بالسنان فشن عليهم الغارات تلو الغارات لايزال يغاديهم بها ويراوحهم وهو فى كل ذلك يتحداهم فلم يك منهم إزاء هذا الموقف الجديد فى خشونته،وشدة وطأته عليهم وقوته،الا ركوبه أيضا كما يركب المضطر صعاب الأمور ويقبل المرغم عجزا ماتعافه النفوس ثم لم يزل يعمل فيهم السيف وهم كارهون ويقتل منهم

الصناديد وهم راغمون ويحتل عليهم الديار وهم وادعون طيلة من الزمن كافية لاحراج الصدور وإخراج ماعسى أن يكون قد بقى فى الكنانة من سهام فلم يجيبوا هذا التحدى على كثرة ما أحرجوا ولم ينثروا من كنانتهم غيرمانثروا وبذا حقت عليهم كلمةالاعجاز وكانالذين آمنوا بها أضعاف من آمنوا بالسيف والقتال وصح لكل انسان أن يسوق ماقدمنا دليلا عقليا على الاعجاز يخص به العرب أولا وسائر الناس ثانيا دون حاجة إلى التعرضللوجوهالفنيةللاعجاز ولا إلى شرط الوقوف على العلوم البلاغية فيمن يساق اليهم هذا الدليل
حدث الجاحظ فى هذا الموضوع قال : —

بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا وأحكم ما كانت لغة وأشد ماكانت عدة،فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالاته . دعاهم بالحجة فلما قطع العذر وأزال الشبهة وصار الذى يمنعهم من الاقراز الهوى والحمية دون الجهل والحيرة حملهم علىحظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له وقتل من عليتهم وأعمامهم وبنى أعمامهم وهوفى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحا ومساء إلى أن يعارضوه ان كانكاذبا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة فكلما ازداد تحديا لهم بها وتقريعا لعجزهم عنها تكشف من نقصهم ما كان مستورا وظهر منه ماكان خفيا فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف فلذلك يمكنك مالا يمكننا قال فهاتوها مفتريات فلم يرم ذاك خطيب ولاطمع فيه شاعر ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلفه لظهر ذلك ولو ظهر لوجد منيستجيدهويحامىعليهويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض . فدل ذلك العاقل على عجز القوممع كثرة كلامهم واستجابة لغتهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته لأن سورة واحدة وآيات

يسيرة كانت أنقض لقوله وأفسد لأمره وأبلغ فى تكذيبه وأسرع فى تفريق أتباعه من بذل النفوس والخروج من الاوطان وإنفاق الاموال وهذا من جليل التدبير الذي لايخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى والعقل بطبقات ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ولهم الاسجاع والمزدوج واللفظ المنثور . ثم تحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم . فمحال أكرمك الله أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط فى الامر الظاهر والخطأ المكشوف البين مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا اليه والحاجة تبعث على الحيلة فى الامر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة وكما أنه محال أن يطيقوه ثلاثا وعشرين سنة على الغلط فى الامر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل اليه وهم يبذلون أكثر منه .

هذا ماقاله إمام المترسلين وزعيم البيانيين أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى الاستدلال على أن عجز العرب عن مجاراة الكتاب كان حقا واقعا نقله الينا التواتر الصحيح الذى لايتطرق اليه الشك ولا التأويل . ولقد رأيت إثباته هنا عقب ماقدمت عن هذا العجز من الناحية العقلية إدعاما له وتأييدا فى أنه الحجة البالغة والبينة القاطعة لمن لم يرد الدخول فى تفاصيل الاعجاز وبيان الوجوه التى اعتورها فى شأنه العلماء عياءنه عنها أو عجزا من السامع فى فهمها ليكون هذا بمثابة مقدمة للاعجاز قبل الخوض فى هذى الوجوه.

وجوه الاعجاز

ليس بين العلماء خلاف فى أن العرب عجزوا أمام تحدى القرآن إياهم فلم يأتوا بشىء من مثله ولكن منهم من لم ينسب هذا العجز الى ضعف فيهم أقعدهم عن المحاكاة ولا الى قوة بلاغية فى القرآن وقفوا أمامها خاسئين وانما نسبه الى أن الله سبحانه وتعالى صرفهم مع قدرتهم أن يحاكوه صرفا وهذا هو القول بالصرفة المنسوب الى النظام زعما منه أن ذلك أدل على تأييد الله لرسوله لأن إعجاز القادر أقوى دلالة على هذا التأييد ممن عجزه حق ولقصور فيه ولكن ذلك قول ظاهر الفساد واضح البطلان لم يقل به غير صاحبه ولولا أنه النظام أحد شيوخ المعتزلة وأستاذ الجاحظ وان كان الجاحظ لم يرتض منه هذا القول على ماذكرنا، ماتعرض لنقده أحد من الباحثين وهذى أدله الفساد إن كان فى حاجة الى تدليل

أولا : — لوكان عجز العرب بالصرفة ولم يكن القرآن نفسه معجزا خالا من كل فضيلة له على غيره من الكلام ولصدر عن كثير من العرب عجب ودهش من تلك القوة الخفية التى تحول بينهم وبين أن يقولوا ولا تزال فى صدورهم أفئدة لم تزلزل وفى أفواههم ألسنة لم تعقد فما بال ذلك لم يصدر وما بالهم كان الظاهر عليهم وهم نقدة الكلام وصيارفة القول العجب العاجب من فصاحة القرآن والدهشة الآخذة من بلاغته حتى كان الكثير منهم على عناده وكفرانه يسجد لفصاحته وبيانه وقد أثر فى ذلك الكثير وله أسلم الجم الغفير . روى أن أعرابيا سمع قوله تعالى « فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا » فقال أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام . وروى أن آخر سمع قارئا يقرأ (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فسجد وقال سجدت لفصاحته ، وهذا عمر على قسوته وشدته قبل إسلامه دخل على أخته وزوجها وهما يقرآن سورة

طه فرق قلبه لماسمع وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم من ساعته، وانا لنسوق هنا حديث الوليد بن المغيرة وقد سمع من النبي عليه الصلاة والسلام (إن الله يأمر بالعدل والاحسان و إيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) فرق قلبه لهذا البيان وعلمت بذلك قريش وهو فيهم من هو فأتاه أبوجهل فقال له ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه كيلا تأتى محمدا تعرض لمايقول فقال قدعلمت قريش أنى من أكثرها مالا قال فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له فقال « وماذا أقول فوالله مافيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا ووالله ان لقوله الذى يقول لحلاوة وان عليه لطلاوة وانه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وانه ليعلو ولا يعلى عليه وانه ليحطم ما تحته » قال لايرضى عنك قومك حتى تقول فيه قال فدعنى حتى أفكر فلما فكر قال (هـذا سحر يأثره عن غيره) ذلك ما قال الوليد بن المغيرة ذو المال والولد والقوة والعدد وأحد رجلى القريتين اللذين تمنت قريش أن لو كان القرآن نزل على أحدهما كما حدث الله عنهم بقوله (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجـل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون) فهو رجل مكة ورجل الطائف عروة بن مسعود ، نعم ذلك ماقال بعد تفكير وتقدير وإصرار على مابه من جحد وعناد وهو يدل على مالم يقدر على إخفـائه فقد صرح فى حديثه أن القرآن لايشبه شيئاً مما يقولون ووصفه بما وصفه مما دل على هذه المغايرة وأخيرا كان حكمه عليه قوله فيه (هذا سحر يأثره عن غيره) فجاء ذلك الحكم حاملا فى ثناياه أن بالقرآن قوة خارقة تنظر قريش اليها نظرتها الى السحر وكفى بهذا من المعاندين اذعانا وتسليما . وما دمنا قدسقنا هذا

الحديث من عدو طاغ ، شهادة منه على الاعجاز والفضل ما شهدت به الأعداء فلمنسق تصوير القرآن لهذا الحادث شاهدا آخر فى الموضوع إياه فقد جاء قصصه، رائعاً معجزا قال سبحانه لنبيه وقد ساءه ﷺ صد قريش للوليد أن يسلم واستسلام الوليد لها فى رميه القرآن بالسحر قال يؤسيه ويصبره ويهدد هذا المفتون ويزجره « ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد . كلا . إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لاتبقى ولا تذر لواحة للبشر عليها تسعة عشر » فهذه الآيات قد صورت الحادث تصويرا شمل أطرافه فى بلاغة وقوة أداء، من بيان مكانة الوليد، ومقدار ما شمله لذلك من غرور جعله يقول ما يقول، وأن ذلك لم يغنه شيئاً فيما أراد الله له من سعير .

وثانيا لو كان إعجاز القرآن بالصرفة كما يقول النظام وليس ذلك لفضيلة فيه لزالت الصرفة بزوال زمن التحدى ولأصبح فى مكنة الفصحاء والبلغاء أن يقولوا مثله لخلوه فى ذاته من صفة الاعجاز ولكن شيئا من ذلك لم يكن ولن يكون فقد تبارى بعد ذلك فرسان الكلام وأتى رجال النثر بغاية مافى طوقهم من بيان ومع هذا بقى بينهم وبين ماجاء به القرآن البون الشاسع والمدى البعيد على ما أمدهم به من هدى وأنالهم إياه من رشاد فتأيد بهذا ما كان من إجماع الصدر الاول على أن معجزة الرسول العظمى باقية ما بقى الزمان وأن لا معجزة له باقية سوى هذا القرآن ثم كان ما كان من تدوين علوم الفصاحة والبلاغة وتعبيد الطريق اليهما لكل طالب لهما راغب فيهما ولكن بدلا من أن يعين ما وضع لهما من قواعد وفصل من فصول ، رجال

الكلام الى أن يشبهوا فيما يقولون شيئا من القرآن أرامم الشقة بعيدة عنهم والمحاولة مستحيلة عليهم لما تكشفت عنه تلك القواعد من مزايا القرآن التى لا تحصى وفضائله التى لا تستقصى حتى لقد عمد إمام المؤلفين ورئيس البلغاء والمتكلمين عبد القاهر الجرجانى الى تسمية ما ألفه فى هذا الباب « دلائل الاعجاز » وليس بعد اقرار مثله اقرار ولا ينبئك مثل خبير وانما يعرف الفضل من الناس ذووه

ومن العلماء من قال إن التحدى جاء فى كلام الله القديم القائم بنفسه وهو إحدى صفاته العشرين ومن ثم وقع العجز لانه محال أن يتهيأ للبشر فى صفة من هذه الصفات ماالله جل شأنه فيها وليس هذا بأقل غرابة من القول بالصرفة إن لم يكن أغرب منه فان الكلام القديم قبل صوغه فى هذه الصورة التى بلغ بها لامثل له ولا وقوف للعرب على كنهه فكيف يتحداهم الى شىء غير معروف لهم والتكليف بغير المعروف لا تسيغه العقول ولا تقبله الافهام، فان قيل إن المراد تحديهم بما تضمنته هذه الصورة بعد تبليغها قلنا اذن الاعجاز فى المعانى لا الالفاظ وإذن تكون سائر الكتب المنزلة معجزة كالتوراة والانجيل لأنها صور معبرة عن كلام الله القديم وما قال بذلك انسان ولا ذكرت تلك الكتب عن نفسها شيئا من هذا كما ذكر وردد القرآن، على أن فى القرآن نفسه ما يفهم أن التحدى كان يطلب الى العرب الاتيان بمثل هذه الصورة اللفظية فى نظمها وتأليفها دون النظر الى معانيها فانهم حين قالوا لرسول الله ﷺ كما حدث الجاحظ آنفا أنت تعرف من أخبار الامم مالا نعرف فلذلك يمكنك مالا يمكننا ورموه بافتراء الكتاب على الله قال لهم فهاتوها مفتريات كما هى الآية «أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا

هو فهل أنتم مسلمون » ومع هذا لم يرم ذلك منهم خطيب ولا طمع فيه شاعر كما أسلفنا وفى ذلك دلالة كافيـة على أن القرآن أعجز بنظمه البديع وتأليفه العجيب الذى أنتج البيان الرائع وأتى بالسحر الحلال

وذهب فريق من العلماء إلى أن القرآن أعجز بما تضمنه من التنبؤ بالغيوب والكشف عما فى الضمائر مصيبا فى ذلك كله الاصابة جميعها، وبما اشتمل عليه من القصص الحق لسير الأولين وأخبار الماضين مما لا يقف على مثله عالم بالسير دارس للآثار ولكن ذلك لا ينهض وحده دليلا على الاعجاز لأنهم إن كانوا يريدون منه أن العرب عجزت عنه لعدم قدرتها على أن تتنبأ صادقة ولاستحالة وقوفها على مثل ما جاء به قصص القرآن، لخروج التنبؤ عن طوق البشر ولأنها من حيث القصص لم تك على علم بالسير ولم تسلك لها سبيل التحصيل فانا لا نرتضى ذلك أيضا دليلا على الاعجاز الذى يجب أن يكون للقرآن وإلا كان ماورد فى الكتب المنزلة قبله مخبرا عن غيب أو قاصا لقصص وما أكثر هذا الأخير فيها معجزا كذلك وقد سبق أن هذا لم تذكره تلك الكتب عن نفسها مثل ماذكر القرآن وأنه لم يقل به إنسان . كما سبق أن رسول الله حين قالوا له أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف ورموه بالافتراء قال فهاتوها مفتريات وتحداهم بذلك القرآن فما أقدموا ولا حاولوا ، بل كان ماوردفى القرآن نفسه بعيدا عن التنبؤ والقصص وهو معظمه فاقدا صفة الاعجاز وفى مقدور العرب أن يحاكوه مع أن الاعجاز ثابت لكل كم منه تحقق فيه القدر الذى تنازل إليه التحدى من السورة القصيرة أو الآيات اليسيرة كما هو منطوق الكتاب وعليه يكاد ينعقد الاجماع .

أما إذا أرادوا أن محمدا وهو بشر لا يمكن أن يكون مصدر هذه الغيوب كما لا يمكن وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب أن يكون جعبة هذه الأخبار وخاصة

إذلم يعرف عنه فى الحال الأولى سحر ولا كهانة ولافى الثانيةاتصال بمن كانوا على بعض العلم بهذه الآثار وأنه وهذا شأنه لابد أن يكون صادقا فى نسبته هذين إلىاللهالذىهو وحده المستأثر بعلم الغيوب ودون غيره الملم بتواريخ الأولين وبذلك تثبت نبوته وينسحب الصدق إلى سائر النواحى من القرآن نقول أما إذا أرادوا هذا فانا لانقبله دليلا على الاعجاز أيضابالمعنى المرادلأنه ينتهى بنا الى ماانتهى إليهالأمر الأول إذ كل ما بينهما من فارق أنا اتخذنا فى الأولعجزالعربوفىالثانىعجزمحمد كليهما دليلا على أن بعضالكتاب يحتمعن طريق معناه أنه من عند الله وبذلك تثبت نبوة محمد ويتناول الصدق سائر الكتاب ولكنا لا زلنا على هذا وعلى ذاك بعيدين عن إثبات الاعجاز للقرآن إثباتا ينال جميعه بالذات لابعضه بالنظر إلى معناه ثم يأتى على سائره كما تقدم بطريق الاستنباط .

إلى هنا انتهينا من ذكر الوجوه الثلاثة التى لم نرتضها دليلا على الاعجاز ومنه يتضح أن الأولين مرفوضان جملة وتفصيلا أما الثالث فمع عدم نهوضه وحدهدليلا على إعجازالآياتلذاتالآياتصالحأن يساقحجةللغرضمنالاعجاز على النحو الذى بيناه ولهذا لايفوتنا أن نذكر شيئا عنالقصص والنبوءات . أما القصص فمن أهم مظاهر القرآن وهو الكثير الغالب فيه فلندع التمثيل له الآن اعتمادا على هذا الظهور ولنكتف هنا ببعض ماورد فيه من الآيات المفهمة استحالته على رسول الله إن لم يكن من عند الله والموضحة مدخله إلى الاعجازقال الله تعالى « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون » وقال « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين » وقالأيضا « وما كنتبجانب الطورإذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون »

وقال والقول فى هذا الباب كثير «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا» . وأما النبوءات فعلى قلتها فى القرآن أدل من القصص على الغرض من الاعجاز وهذا شطر منها حيث لاعودة إليها فيما سيأتى من كلام . قال الله تعالى (ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) وقد غلبوا فى هذا البضع وقال (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام انشاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون) فدخلوا كما قال ، وقال فى قصة بدر (سيهزم الجمع ويولون الدبر) كما قال فيها (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) فصدق فى ذلك كما صدق فى إخباره عما فى نفوسهم من ودهم أن غير ذات الشوكة تكون لهم ومن تحقيق ما أراده هو من أنها لهم ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، وهذا من تنبئه عما فى الضمائر ومنه أيضا قوله على لسان رسوله فيمن تخلفوا عنه فى إحدى الغزوات (أحد) (لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا) فانهم لم يخرجوا معه بعد وكذا قوله لليهود (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) فما تمناه أحد منهم تحقيقا لقوله بعد (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون) لهذا ذكر الباقلانى فى كتابه (إعجاز القرآن) عن أصحابه وغيرهم ثلاثة أوجه للاعجاز جعل أولها الاخبار عن الغيوب وثانيها الاخبار عن قصص الأولين وثالثها ما آن أن نشرع فيه مرتضين إياه الوجه الحق

للاعجاز فقد قال (والوجه الثالث أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه فى البلاغة إلى المدى الذى يعلم عجز الخلق عنه) وهو ما نريد ولكن على خلاف معه فى التفاصيل .

الوجه الحق للاعجاز

قلنا إن الوجه الحق الذى نرتضيه دليلا على الاعجاز هو الوجه الثالث من الوجوه التى ذكرها الباقلانى فى كتابه (إعجاز القرآن) وهو أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه وإنما ارتضينا هذا الوجه دون غيره لأنه الثابت لجميع القرآن فى كل قدر تنازل إليه التحدى من السورة القصيرة والآيات اليسيرة ثبوتا ذاتيا له دون نظر إلى ماعسى أن يكون فيه من تنبؤ أو قصص مما صلح على مامر آنفا لأن يكون دليلا على الاعجاز من ناحية الغرض لا الناحية التى نريد . إذ الاعجاز الذى نريد هو إعجاز الأسلوب الذى قد جاء فى ألفاظه بديع النظم عجيب التأليف وفى معناه متناهيا فى الابانة والاعراب فجمع بذلك بين طرفى الفصاحة والبلاغة جمعا أنتج البيان الرائع الذى أتى فى كل غرض قصد اليه بما ليس فى مقدور انسان من بيان، فان للبيان فى الكلام بعد اشتماله على مايجب لتحقيق الفصاحة والبلاغة درجات متفاوتة تفاوت مراتب المروءة بعد الواجب لا تزال يعلو بعضها بعضا كما تتعالى طبقات الاجواء حتى يكون فرق مابين الدنيا والعليا كفرق مابين الارض والسماء ، وفى هذا الميدان الفسيح يتبارى الفصحاء والبلغاء فترى فيهم المسف الدانى والمحلق الرفيع وما منهم من ترى فى كلامه عيبا يسلبه صفة الفصيح البليغ . ألا ترى الى الشاعرين يكون كلاهما مبرزا يرمى بشعره فصيحا بليغا فاذا ماوازنت بينهما فى قصيدين لم تظفر بعيب فيهما ولكنك مع هذا

تضع قصيدة أحدهما فى منزلة غير التى تضع فيها الأخرى صعودا أو هبوطا لما تحسه وقد لا تعرف كيف تعلله من تفاوت درجة البيان واختلاف قوة الرمى الى المقصود . وبقدر ما يكون للشاعر أو الخطيب أو الكاتب من قدرة قوية على تملك زمام الألفاظ وتصرف واسع فى المعانى يبعد فى بيانه عن أقرانه الآخرين . فالقرآن الكريم أتى فى هذين البابين للألفاظ والمعانى فى كل غرض رمى إليه بالعجب العجاب الذى عقدت دونه الألسنة وحارت أمامه العقول فلم يفكر أحد فى مجاراته بله الاقدام على تلك المجاراة . فجاء هذا دليلا على الاعجاز أى دليل . وإلا فمن فى مقدوره أن يكون له كلام بهذا القدر الباسق من الطول ثم هو يخلو فى ألفاظه ومعانيه على اختلاف أغراضه ومراميه من كل مايعاب ويشتمل بعد هذا على آيات من الحسن الفائق بينات وسورات من الجمال الرائع باهرات قال عز من قال (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) نعم لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه هذا الاختلاف فان قول البشر بالغا مابلغ فى قوة البيان لا بد أن تجد به السقطات والزلات فى الألفاظ والمعانى على السواء وإن عز عليك ذلك فى غرض تهيأ له المتكلم وطبع عليه حتى صار فيه صفى الخاطر رخى العنان كالوصف لدى امرىء القيس والمدح عند زهير والاعتذار فى شعر النابغة وبعيد هذا أن يكون فالتشبيه فى أغراض له أخر تجده بينا موفورا .

هذه هى ناحية الاعجاز ومنها عينها استحال على رسول الله نفسه كما استحال على غيره أن يكون من كلامه القرآن لأنه بشر وما كان لبشر أن يقول هذا ، على أن له ﷺ قبل أن يكون رسولا كلاما وله بعد الرسالة كلاما وكلا الكلامين شديد الشبه بأخيه بيناهما معا بعيدان عما لم ينسبه إلى نفسه ونسبه إلى الله سبحانه

وهو القرآن بعد كلام العرب عنه فى بلغاء قريش وسائر عدنان وفى قحطان .
وإذا كان من المحال عقلا أن يكون للرجل الواحد فى كلامه لونان مختلفان وأسلوبان متباينان فكيف يتفق هذا لمحمد لو أراده على فرض المستحيل وأسلوب المتكلم قطعة من نفسه وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . ثم إذا كان هذا العجز باديا فى المحسات كما تراه فى عدم تمكن الكاتب مهما حاول اخفاء خطه فى التوقيعات فهو فى باب المعنويات أبدى وبنسبته إلى الاستحالة أولى ولعل قريشا لهذا كانت تصف رسول الله بالكهانة والسحر حين كانت تقول إن هذا قوله لاعتقادها أنه يستحيل على بشر لم يعتمد على قوة خفية تؤيده فتجعله يقول ماليس فى مقدورها ولا فى مقدور غيرها أن يقول .

هذا وإن لنا بعد كل ما تقدم أن نتلمس بعض مامن آيات الفصاحة والبلاغة المعجزة فى القرآن حتى نحس بعض الاحساس بالناحية التى قلنا إنها الوجه الحق للاعجاز فلا يكون كل ايماننا به عن تقليد شأن من ليس لهم بعلوم العربية حذق ولا فى فنون بيانها افتنان راجين من الله فيما نحاول التوفيق إذ المطلب عزيز المنال يكاد يكون خارجا عن مكنة التصوير قال السكاكى « اعلم أن شأن الاعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه » .

ولما كان هذا الادراك لايكون إلا بالذوق والذوق إنما يتهيأ لذوى الفطر السليمة الذين قد راضوا أنفسهم بالخطب والرسائل والشعر واشتغلوا بعلوم البلاغة من بيان ومعان وبديع حتى صار لهم بذلك ملكة ودراية يمكن أن يعتمد عليها فى معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض فانى سأتخذ هذه العلوم الثلاثة نبراسا أهتدى به إلى تصوير ما أريد وعلى الله الاعتماد .

القرآن معجز بفصاحته وبلاغته

كان فى العرب ذو الفصاحة والبلاغة وفى كلامهم الفصيح البليغ، والفصاحة تتحقق للمتكلم بقدرته عن ملكة على إيراد كلامه معبرا عن المعنى الواحد بتعابير مختلفة فى مراتب الوضوح دون تعرض المعنى فى أحدها لخفاء . وإنما يجيء اختلاف التعابير فى مراتب الوضوح عن طريقين طريق الحقيقة المبالغ فيها بالتشبيه وطريق الخروج عنها خروجا يمكن من إرادتها ولكن لا تراد وهذه هى الكناية أولا يمكن وإن حوول ذلك وهذا هو المجاز فهذه الثلاثة هى مباحث علم البيان دون الحقيقة المجردة حيث لا تفاضل فيها فى مراتب الوضوح غير أن الفصاحة لا تبحث عما تقدم فى أى كلام إلا اذا خلصت مفرداته قبل ذلك من تنافر الحروف وغرابة المعنى ومخالفة القياس وتراكيبه من تنافر الكلمات وضعف التأليف وتعقيد الالفاظ حتى لا يكون للبيان بعد ذلك سوى تخليصه من التعقيد المعنوى تحقيقا للوضوح الذى تبحث فى مراتبه تلك الأشياء الثلاثة من تشبيه وكناية ومجاز . ومن ثم كان لابد لمن يريد مزاولة البيان أن يكون صحيح الذوق ليتقى التنافر فى الحروف والكلمات على علم بمتن اللغة ليكون صادق الحكم على الغريب . ملما بالصرف والنحو ليعرف مخالفة القياس وضعف التأليف والتعقيد من جهة الالفاظ، إذ كل هذه وسائل للبيان وان لم تك من علم البيان . أما البلاغة فتتحقق للمتكلم بمقدرته عن ملكة أيضاً على جعل كلامه الفصيح مطابق المعنى لمقتضيات الاحوال خبرا كان أو انشاء بتحقيق ماتستلزمه تلك المطابقة فيه كأن يوجز أو يطنب فى غير المساواة كل فى الموضع الذى يقتضيه وكأن يفصل أو يصل، ويقصر أو يطلق، ويؤكد أو يرسل ال غير ذلك من مباحث علم المعانى الذى يحقق البلاغة فى الكلام بعد أن يحقق الفصاحة فيه

البيان،وليس لعلم البديع معهما سوى وجوه تحسين الكلام ولكن سميت الثلاثة بعلوم البلاغة على سبيل الاصطلاح .

ذلك ما كانت تتحقق به فى مجموع كلام العرب لاجميعه الفصاحة والبلاغة ووجوه التحسين ،وقد جاء كله فى جميع القرآن بحال أوضح ظهورا وأبعد مراما وأكثر مقدارا بعيدا عن التكلف والاستكراه سهل المأخذ عذب الايقاع ، فبذ العرب فيه من جميع النواحى ثم بذهم فى ناحية أخرى فريدة ليس لهم فيها شىء هى ناحية تفصيله بفواصل الآى وسنتكلم عليها الآن لأنها أظهر شىء فى بدع الاسلوب ثم نعود إلى فضل القرآن فيما تقدمها مما جاء مشاركا للعرب فيه بقدر ما يسمح المقام .

فواصل القرآن

تكلمت العرب الشعر والنثر فجاء فى شعرها الرجز والقصيد وفى نثرها المسجوع واللفظ المزدوج والمنثور وبدهى أن القرآن جاء نثرا لا شعرا ولكنه لم ينضو تحت أقسامه السالفة لا مجموعة ولا فرادى،فلاهو باللفظ المنثور يرسل كله إرسالا خاليا من كل قيد يراه القارىء أو يلحظه السامع فى التقفية والوزن ولا هو بالمزاوج الجمل والعبارات بحيث ترى كل اثنتين منهما أو أكثر على خلوها من التقفية متعادلتين تقريبا فى الاقيسة والموازين كما أنه ليس بذى التقفية الحرفية التى نراها فى الاسجاع،إنما هو كلام فصله الله آيات كما قال «كتاب أحكمت أياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » فجاءت آياته متلاحقات تختم فى فى كل سورة غالبا بمقاطع متشابهات تشعر بالانتهاء دون أن تتقيد بحرفية السجع أو موازنة الازدواج ودون أن تخلو كل الخلو من مظاهر التقييد . هكذا جاء معظم القرآن فلم يقبل أن يطلق عليه اسم من هذه الاسماء بل عرف وحده باسم خاص هو التفصيل وهى مقطع الآية كقرينة السجع فى النثر وقافية

البيت فى الشعر أما قليله فقد جاء فيه ما يشبه المزاوج أو المسجوع وكان يصح أن يسمى بهما لولا أنه قد خرج فى كثير منهما بالطول خروجا لم تكن تألفه العرب فى غير سجع الكهان وقرب بذلك من التفصيل الذى وسعهما ولم يأب منهما القصير فقصرت التسمية عليه دون المعروف من أقسام المنثور وعلى ذلك تعارف العلماء .

هذه هى الفاصلة فى القرآن ولقدكان يمهد لهافى آيه تمهيدا تقع به مستقرة فى مقرها وتأتى متعلقا معنى الكلام بمدلولها . انظر قوله تعالى « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير » كيف وقع اللطيف لما لا يدرك والخبير لما يدرك بالترتيب وقوله على لسان قوم شعيب « قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء انك لانت الحليم الرشيد » كيف جاء الحلم مناسبا لما تقدم فى الآية من ذكر العبادة، والرشد ملائما لما تلا ذلك من التصرف فى الاموال وكذا قوله « أولم يهدلهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات أفلا يسمعون أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » فانه ختم الآية الأولى بالسمع لأنها معنوية تهدى وختم الثانية بالبصر لأنها محسوسة ترى ء

من أجل ذلك كانت الآية ترشد الى فاصلتها كل ذى قلب مفكر وبيان معبر قال زيد بن ثابت أملى علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاية « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر » فعند ذلك قال معاذ بن جبل ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فضحك رسول الله فقال له معاذ مم ضحكت يارسول الله قال بها ختمت .

وكانت الفاصلة إذا غيرت أمام من تلك صفته أبى هذا التغيير على محدثه ولو لم يك حافظا للقرآن روى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ « فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم » ولكنه جعل الفاصلة « غفور رحيم » ولم يك العربى يقرأ القرآن فقال أما إن كان هذا كلام الله فلا ، إن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل بعد البينات لأنه إغراء عليه .

هذا اختلاف الفاصلة لاختلاف الآيات . على أن من الفواصل ما كانت تختلف لتغير لفظة واحدة فى آيتين قال الله تعالى « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » فجعلها بعد الشعر من الايمان لأن مخالفة القرآن له ظاهرة تدعو إلى سرعة التصديق وبعد قول الكاهن من التذكير لوجود مشابهة تدعو إلى بعض تدبر وتفكير . بل كانت تختلف الفاصلة فى الآية الواحدة تأتى فى موضعين لاعتبارين قال الله تعالى فى سورة ابراهيم « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار » وقال فى سورة النحل « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » فأتى بها فى الآية الأولى من صفات المنعم عليه وفى الثانية من صفات المنعم وكلتاهما مناسبة للآية فى ذاتها لتعلقها بالله والانسان ولكن الحديث فى ابراهيم كان مسوقا قبلها لتعديد نعم الله على الناس وهم لا يشكرون حيث يقول بعد هذا التعداد وهو طويل (وآتاكم من كل ما سألتموه) وفى النحل كان فى ذكر صفات الله ألا تراه قبل ذلك يقول (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) ومن هذا النوع ما جاء فى ثلاثة مواضع مثل قوله تعالى فى سورة المائدة (ومن لم يحكم بما أنزل الله) فقد قطعها بثلاث فواصل مختلفة هى (فأولئك هم الكافرون) ، (فأولئك هم الظالمون) ، (فأولئك هم الفاسقون) لأن الحكم فى الأولى يقصد من جحد ما أنزل الله وفى الثانية يقصد من خالفه على علم وفى

الثالثة من خالفه عن جهل . فلا غرو إذن أن تتحد الفاصلة متى بقيت المناسبة ولو كان المحدث عنه مختلفا كما فى آيتى الاستئذان من سورة النور فقد ختمت كلتاهما بما ختمت به الأخرى وهاهما هاتان لترى وجه ما نقول (يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات . من قبل صلاة الفجر . وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة . ومن بعد صلاة العشاء . ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . وإذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) .

هذا وقد يفيد ظاهر الفاصلة عدم ملاءمتها للآية ولكن تدبرا قليلا فى المعنى يدفع هذا الظاهر ويكشف عن ملاءمة وثيقة الصلة شديدة الارتباط . من ذلك مثلا مجىء (العزيز الحكيم) فاصلة لآيات يقضى ظاهرها أن تكون الفاصلة (الغفور الرحيم) كما فى قوله تعالى (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) فان قوله وإن تغفر لهم يقتضى ظاهره مجىء الفاصلة من الغفران غير أن من يعلم أنه لا يغفر لمستحق العذاب فى نظر الناس إلا ذو العزة الذى ليس فوقه عزيز ثم هو مع ذلك يعلم أن الله يرى ما يرى الخلق من حكمة يجهلونها فى الغفران لا يتردد فى أن فاصلة الآية هى ما ختمت بها لا ما لوح به ظاهرها . وآيات هذا النوع كثيرة وكل واحدة منها توحى أنها بفاصلتها وفاصلتها بها أحق وأولى من غيرها .

إلى هنا كل ما تقدم من فواصل كان يهدى اليه المعنى العام للسياق وفى القرآن فواصل أخرى كثيرة كان يمهد لها فوق ذلك بالالفاظ نفسها أو بلازم معناها . فمن النوع الاول ما وافقت فيه الفاصلة أول الصدر مثل « وهب لى من

لدنك رحمة انك أنت الوهاب » أو آخره مثل (أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا) أو كلمة تخللته مثل (قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى) والنوع الثانى كثير ومنه قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذاهم مظلمون) لان انسلاخ النهار من الليل يستلزم الظلمة فجاءت الفاصلة منها، ووقعت بالمد والنون الجارية عليهما فواصل السورة

هذا وقد راعى القرآن فى معظم فواصله انتهاءها بحروف المد واللين والنون وهاء السكت لأنها تمكن القارىء من الترنم والترتيل كما راعى فى حروفها التماثل أو التقارب وافتن فى ذلك افتنانا بديعا، فكانت منها المتفقتان وزنا لا تقفية مع عدم تمام المقابلة كما فى قوله « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » أو مع تمامها كما فى قوله « وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم » وقوله (ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثه)، والمتفقتان تقفية لا وزنا مع عدم تمام المقابلة مثل (إلا حميما وغساقا جزاء وفاقا) أو مع تمامها مثل (والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس)، ثم المتفقتان تقفية ووزنا مع عدم تمام المقابلة نحو (فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعه) أو مع تمامها نحو (إن الينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم) ونحو (إن الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم) ومنه ماكان يجمع فوق ذلك الى حرف الفاصلتين المتحد اتحاد حرف أو اثنين أو ثلاثة قبله فلا يشعر القارىء بشىء من التكلف مطلقا، مثال الحرف (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر) و (ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك) ومثال الحرفين (والطور وكتاب مسطور) و (ما أنت بنعمة ربك بمجنون وان لك لأجرا غير ممنون) ومثال الثلاثة (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم

مبصرون وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون)

ولقد تصرف القرآن فى تهيئة التراكيب للفاصلة تصرفا واسع المدى وكان مع ذلك محتفظا أيما احتفاظ بتبعية اللفظ للمعنى بل كثيرا ما آتاه هذا التصرف مآرب أخرى وهذان شيئان امتاز بهما على سائر أجناس الكلام وبرع فيهما. فمن ذلك تقديم المعمول على العامل فى قوله (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) وقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) ومنه تقديم الصفة الجملة على المفردة نحو (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) وإيراد الجملة الاسمية دون الفعلية نحو (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) أو المفرد لا الجملة (نحو وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) والظاهر بدل الضمير مثل (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين) وصيغة المفعول بدل الفاعل نحو (حجابا مستورا) أو الفاعل بدله نحو (من ماء دافق) وحذف المفعول نحو (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى) والاتيان بهاء السكت نحو (ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه).

ومنه تذكير اسم الجنس أو تأنيثه مثل (أعجاز نخل منقعر) و (أعجاز نخل خاويه) ومثله فى ذلك الصفة نحو (وكل صغير وكبير مستطر) و (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) ومجىء صيغة المبالغة بدل الوصف نحو (وما كان ربك نسيا) . أو بدل صيغة غيرها نحو (إن هذا لشىء عجاب) بدل عجيب . واختيار مرادف على آخر مثل (سأصليه سقر) أو حركة على أخرى نحو (فأولئك تحروا رشدا) وإنابة حرف عن آخر نحو (بأن ربك أوحى لها) إلى غير ذلك مما امتلأت به كتب الشواهد ونبهت على كثير منه أسفار التفاسير .

وفى هذا القدر عن الفاصلة ما فيه الكفاية فلنعد إلى غيرها مما وعدنا بالكلام فيه.

فصاحة القرآن

إذا تكلمنا عن فصاحة القرآن يجب أن يكون كلامنا فيها راجعا إلى أمرين أحدهما يتعلق بالأسس التى لابد منها فى تحقيق الفصاحة للمفردات والتراكيب على الوجه الذى بيناه ، والثانى يتعلق بالكلام من حيث اختلاف طرائق التعبير فيه إلى ماسبق من تشبيه وكناية ومجاز وقد اخترنا أن يكون عنوان الأول ممهدات الفصاحة وعنوان الثانى درجة الفصاحة كما رأينا أن نسوق الكلام فيها على هذا الترتيب

أولا — ممهدات الفصاحة

اشتمل القرآن الكريم على مايقرب من ثمانين ألف كلمة لم تخرج واحدة منها عن حد الفصاحة الذى رسمه العلماء ، فلا تنافر حروف ولا مخالفة قياس ولا غرابة معنى، كما اشتمل على أكثر من ستة آلاف آية لم تتنافر فيها الكلمات ولم يعترها ضعف التأليف ولم يصب معناها التعقيد، ومهما أجهد الانسان نفسه باحثا منقبا ليظفر بشىء مخالف لهذا كما هى الحال فى كلام أفصح الفصحاء على طول القرآن وقصر ماقال كل فصيح فانه لاشك راجع صفر اليدين مما يحاول مملوء القلب يقينا بصدق مانقول ، وهذه ثلاث نبذ تتناول أطراف الموضوع .

١ — تنافر الحروف وتنافر الكلمات

تخف الكلمة أو تثقل أو تكون بين بين بحسب الانتقال فى مخارج حروفها من مخرج إلى آخر يلائمه أو لايلائمه أو يكون وسطا ، فان مخارج الحروف إما من الحلق وتسمى العليا أو من الشفة وتسمى الدنيا أو من الفم وتسمى الوسطى وهذه الثلاثة تنوع النطق بالكلمات الثلاثة اثنى عشر نوعا لايلتقى فى

أحدهما مخرجان، لأن البدء بكل مخرج يتناوب عليه أربعة أنواع، اثنان يشتمل كلاهما على المخارج الثلاثة واثنان يختمان بالمخرج المبدوء به، ولكن ليست كل هذه الانواع مع خلوها من التنافر الحرفى متحدة فى خفة النطق بل منها الكثير الخفة والمتوسط والقليل، فتكون الكلمة كثيرة الخفة مثلا إذا انحدر فيها النطق من الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى كعلم وقليلتها إذا كان بالعكس كملع ومتوسطتها إذا كان من الأوسط إلى الأعلى الى الادنى كلم أو من الاعلى الى الأدنى إلى الأوسط كعمل وعلى هذا تقاس بقية المخارج . أما إذا توالت الحروف من مخرج واحد فان الخفة تزول وينشأ الثقل ولكنه يكون قليلا فى المخارج الدنيا ومتوسطا فى الوسطى وشديدا فى العليا وهنا يحدث تنافر الحروف الذى يسلب الكلمة فصاحتها ويزداد شدة إذا زادت الكلمة عن الثلاثة وتردد فى حروفها. وعلى مثل هذا يكون تنافر الكلمات ولكن بتنزيل الكلمة فى الجملة منزلة الحرف فى الكلمة ولو كانت كل مفردة فى ذاتها بعيدة عنه ولذلك اشترط فى فصاحة الكلام فصاحة كلماته، على أنه قد يجتمع التنافر فيهما فى آن وليس هذا فى حاجة إلى ضرب أمثال فليلتمس فى كتب البلاغه

هذا هو التنافر بنوعيه ومع دورانه فى كلام الفصحاء مختلف الألوان قد خلا منه بنوعيه القرآن كما خلا من اللهجات غير المستحسنة فى المفردات وهى الآتية من طريق الابدال : كالتاء بدل السين فى النات والتاء بدل الطاء فى سلتان والكاف بدل التاء فى عصيك والنون بدل العين الساكنة قبل الطاء فى أنط والظاء بدل الضاد أو العكس فى قول الاعرابى لعمر (أيظحى بضي) والجيم المشددة بدل الياء المشددة وقفا فى علج وهى العجعجة والشين من كاف المؤنث فى كشكشة تميم والسين من كاف المذكر فى كسكسة بكر والميم من لام التعريف فى طمطمانية حمير الى غير ذلك مما كانت القبائل تستعمله وعف عن استعماله القرآن، ثم تحقق فيه بعد الخلو من هذه الاشياء أن جاءت جمهرة كلماته ثلاثية والثلاثى

أخف أنواع الكلمات ثم وقعت حروفها شديدة الائتلاف بعضها مع بعض بقدر ماوقعت هي قوية الانسجام مع أخواتها في التراكيب واحصاءات القرآن تدل على أن مالا تكثر خفته من كلماته نادر في حكم المعدوم، فمثلا ليس فيه كافان متعاقبان الافي لفظي (مناسككم) و(سلككم) ولا حاء بعد حاء في كلمة واحدة مطلقا ولا في كلمتين إلا في موضعين هما (عقدة النكاح حتى) و (لا أبرح حتى) ولا غينان كذلك في كلمة مطلقا ولا في كلمتين الا في موضع واحد هو (ومن يبتغ غير الاسلام) ولا شدتان متواليتان نتيجة الغن والادغام الافي أربعة مواضع هي (نسيا رب السموات) و (في بحر لجي يغشاه) و (قولا من رب) و (زينا السماء)

ولقد كان القرآن يجمع كثيرا من الحروف المتحدة المخارج في الآية الواحدة أو يردد فيها حرفا بعينه فلا يغير هذا من صفة الفصاحة شيئا لما كان يودعه نظم الحروف من حسن السبك وجمال الالتئام، فمن ذلك أنه جمع في الآية (قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) على قصرها ثمانية عشر ميما في النطق، وجمع في آية الدين ثلاثة وعشرين كافا وهي أشد من الميم، وهذه سورة العصر، وهي ثلاث آيات قصار قد أتى فيها بعشرة واوات، وآية الكرسي قد بدأها بلفظ الجلالة وهو مركب من اللام والهاء ثم دارت اللام فيها ثلاثا وعشرين مرة والهاء أربع عشرة مرة، فلم يشعر القارىء في ذلك ولا في أمثاله وهي كثيرة بشيء من الثقل بل بالعكس قد شعر بأن له وقعا كوقع الرنة الموسيقية تترددفي لحن من الالحان فتربط بين أجزائه وتكسوه من الحسن ماتستلذه الاسماع . ومن هنا يدرك السر في اختيار حروف الفواصل متماثلة أو متقاربة وفي التزام القرآن في كثير من المواطن حرفا واحدا أو نوعا من الحروف المتحدة المخارج يكثر منه، كالتزامه القاف في سورة قاف، وبعض حروف الحلق في مثل قوله (فإن أعرضوا فقل

أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) كما يدرك فى أنه اذا ساق التركيب سهلا لم يساقط فيه شيئا من الكلم الفخام واذا نخمه لم تجد أثرا لرقيق الكلمات إلى غير ذلك مما تكامل فيه فجعل له فى هذا الباب ائتلافا ليس مثل ائتلاف وانسجاما دونه كل انسجام.

٢ــ مخافة القياس وضعف التأليف

وضع الصرفيون قواعد علمهم فجاءت منطبقة على ما اتفق على النطق به مجموع العرب فى بنية الكلمات غير أن من تلك القواعد ماوضع للتقريب لا للقياس فلم يسلب ماخالفه صفة الفصيح وإن سمى باسم الشاذ كما فى أفعال الثلاثى ومصادره الخارجة عن ضوابط الأبواب . ومنها ماوضع ليقاس عليه بحيث اذا خالقه لفظ عد مخالفا للقياس وخارجا عن دائرة الفصيح كالفك فى موضع الادغام فى قول الشاعر :

مهلا أعاذل قد جربت من خلقى　　　أنى أجود لأقوام وان ضننوا

وكالزيادة المؤدية الى. ما ليس أصلا فى الكلام كقول الآخر (من حوثما نظروا أدنو فأنظور) وحوثما لغة فى حيثما، وكالنقص المجحف مثل (درس المنا بمتالع فأبان) يريد المنازل ، وكالعدول عن صيغة معروفة الى أخرى غير معروفة مثل سلام يراد به سليمان فى قول الحطيئة .

فيها الزجاج وفيها كل سابغة　　　جدلاء محكمة من نسج سلام

الى غير ذلك مما لم يخل منه كلام الفصحاء .

وكذلك وضع النحويون قواعدهم فجاءت منها المطردة التى يعد المخالف لها لحنا لايجوز فى الكلام أو بعبارة أخرى لايسمى ما دخله اللحن كنصب الفاعل ورفع المفعول ونحوهما فى عرف البيانين كلاما، إذ الكلام ماكانت له صفة

واعتبار . ومنها الغالبة المشهورة عندهم وهذه هى التى يعد ماخالفها ضعيف التأليف غير فصيح كعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة كما فى قول الشاعر .

لما رأى طالبوه مصعبا ذعروا   وكاد لوساعد المقدور ينتصر

وكمجيء الضمير المتصل بعد إلا فى قول الآخر.

ليس إلاك ياعلى همام   سيفه دون عرضه مسلول

ونحو ذلك مما خالف المشهور الفصيح

فالقرآن الكريم قد خلا كل الخلو من مخالفة القياس وضعف التأليف وتجاوز ذلك مما هو من سقطات الأفراد الى ترك غير المستحسن من اللهجات على شيوعها فى كثير من قبائل العرب المعروفة بالفصيح صرفية كانت أم نحوية الا ماكان على سبيل تعدد القراءات .

فمن الصرفية تلتلة بهراء وهى كسر حروف المضارعة الا همزة إخال فانها عامة الكسر عند الجميع . والخلخانية الازد وهى حذف بعض الحروف من غير علة كمشا الله . ووهم كلب ووكمها والاول كسر هاء الغائب دون أن يسبقها كسر ولا ياء ساكنة، والثانى كسر كاف المخاطب بعد الكسرة أو الياء الساكنة أو قبل ميم الجماعة . وقصر أولاء الاشارية ومد إلى الموصولة عند تميم. وقلب ألف المقصور ياء اذا أضيف الى ياء المتكلم مع ادغامها فيها عند هذيل .

ومن النحوية إلزام المثنى الألف عند كلب وكنانة وبنى الحارث. واستعمال ذو وفروعها بمعنى الذى وفروعها عند طيء . وحذف نون اللذين واللتين رفعا عند بالحارث من مذحج. وإجراء الذين مجرى جمع المذكر السالم رفعا عند عقيل وهذيل . والزام الاسماء الخمسة الألف قصرا أو إعرابها بالحركات على النقص. وحذف ياء المنقوص نصبا كحذفها رفعا وجرا. والحاق الضمائر بالافعال على أنها علامات تثنية وجمع . الى غير ذلك مما هو معروف عن النوعين فى اللهجات .

وإنه ليجمل بنا هنا أن نذكر شيئا عما ظهر بمظهر الخروج على بعض ماقدمنا فى القرآن مثل قوله تعالى (إنّ هذان لساحران) وقوله (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) وقوله(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) فبعض الباحثين ينسبه الى خطأ كتاب المصحف الامام مستندا على ماحدث به هشام بن عروة عن أبيه قال سألت عائشة رضى الله عنها عن لحن القرآن (وذكر هذه الآيات) فقالت « يابن أخى هذا عمل الكتاب أخطئوا فى الكتاب » ثم يؤيد هذه النسبة بما رواه عكرمة عن نفسه قال لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفا من اللحن فقال لاتغيروها فان العرب ستغيرها بألسنتها أو قال ستعربها بألسنتها ثم قال لو كان الكاتب من ثقيف والمملى من هذيل لما وجدت فيه هذه الحروف ·

غير أن اسناد هذا الى عثمان على تفسير اللحن بالخطأ ضعيف مضطرب وإلا فكيف يجعل للناس إماما ويترك فيه لحنا فى حين أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا لايلحنون فى الكلام فضلا عن القرآن الذى تلقوه عن النبى ﷺ كما أنزل وحفظوه وضبطوه وأتقنوه وكيف يظن بهم اجتماعهم على الخطأ فى كتابته وعدم تنبههم اليه ورجوعهم عنه ، ألا إن ذلك بعيد التصديق عن عثمان عقلا وشرعا وعادة على معنى أن اللحن كما تقدم هو الخطأ الذى لايجوز ولذلك يطعن فيه بضعف الاسناد . أما حديث عائشة فلا يقال فيه بالتضعيف لصحة الرواية وإنما يقال إنها تريد الخطأ فى عدم كتابة الأولى لا أن ما كتبوه خطأ فى ذاته لايجوز فان مالا يجوز مردود بالاجماع . ويقال فيما ذكره عروة فى سؤاله من كلمة اللحن إنه انما يعنى باللحن القراءة واللغة لا الخطأ بدليل أن هناك راءات أخر على مقتضى السياق فيما تقدم ونحوه ، ولهذا لانقول بما سبق من

خطأ الكتاب خطأ ذاتيا بل بما انتهينا اليه من أنه خطأ فى عدم كتابة الاولى.
وهناك تأويل لكل خارج عن الظاهر من آيات.فيقال فى الآية الاولى هنا مثلا
إنها على لغة من يلزم المثنى الألف من كلب وكنانة وبنى الحارث ، أو إن هذان
ليس بمثنى لأن مفرد المثنى يشترط فيه أن يكون معربا فهو على صورته ولذلك
يبنى،أو إن اسم إن ضمير شأن محذوف والجملة بعدها خبرها أو خبرها لفظ هذان
واللام داخلة على مبتدأ محذوف أى لهما ساحران ، أو إن الألف فى هذان
أتى بها لمناسبة الألف فى لساحران وفى يريدان ، أو إن بمعنى نعم . ويقال فى
الآية الثانية إن المقيمين منصوب على القطع للمدح،أو معطوف على مجرور
قبله هو ما أو الكاف فى اليك أو فى قبلك أو الضمير فى منهم . أما الصابئون
فى الآية الثالثة فيقال إنه مبتدأ حذف خبره أى كذلك،أو معطوف على محل
إن مع اسمها وهو الرفع أو على الفاعل فى هادوا،أو إن بمعنى نعم والذين مبتدأ
والصابئون معطوف عليه .

٣ — الغرابة والتعقيد

قد ضممنا فيما سبق تنافر الكلمات الى تنافر الحروف لأن مرجعهما
الاثنين الذوق السليم،وجمعنا بين مخالفة القياس وضعف التأليف لأن اتقاءهما
يكون بقواعد النحو والتصريف،وكان الظاهر أن نضم اليهما تعقيد الالفاظ
لانه الى قواعد النحو يرجع كما يرجع الضعف لولا أنه لم يخالف مثله مشهور
القواعد وانما جاء من اجتماع عدة أشياء لاغبار على شىء منها حين الانفراد
ولكن اجتماعها هو الذى يحدث الاضطراب فى التركيب فيصيب المعنى من
هذه الناحية بالخفاء كما يصيبه التعقيد المعنوى من حيث التصوير مع استقامة

الالفاظ وكما تصيب الغرابة معانى المفردات لعدم معرفة المدلول ، فناسب لذلك أن نسلك الثلاثة فى عنوان .

أما الغرابة فقد انتشرت فى كلام كثير من الفحول فى حين أن اختار القرآن كلماته ظاهرة المعنى واضحة المراد فأصبح بذلك مفهوما حتى لغير الخاصة من الدهماء ، ولقد كانت اللفظة ترد فى ثناياه غير بارزة المعنى فى ذاتها للسواد فيشع عليها أسلوبه شعاعا يكشف عن معناها ويصوب اليها نورا يبين من غرضها ومرماها فاذا هى أمامه كفلق الاصباح . وكثيرا ماكان يعدد الأسلوب من معانى اللفظة الواحدة تعدادا لايخرج على كثرته عن معناها الاصيل خذ لذلك مثلا كلمه الهدى فقد جاءت فى قوله تعالى (أولئك على هدى من ربهم) بمعنى البيان وفى قوله (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) بمعنى الايمان وفى قوله (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) بمعنى القرآن وفى قوله (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) من الدعاء وفى قوله (أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) من الالهام وفى قوله (إن الله لايهدى كيد الخائنين) من الاصلاح الى غير ذلك من معانيها التى قاربت العشرين معنى ومثلها فى تلك كلمات كثيرة كالصلاة والرحمة والسوء والفتنة والروح والقضاء والذكر والدعاء وغيرها مماورد متنوع المعانى باختلاف الأساليب على مثل تلك الكثرة أو يزيد .

وكما كان الاسلوب يسبغ على اللفظة الواحدة معانى تختلف باختلاف السياق كان كذلك يقبل من الكلمة فى الموضع الواحد جملة معان يحتملها التفسير دون أن تخرج عل السنة وسائر الكتاب من ذلك قوله تعالى (انفروا خفافا وثقالا) فقد احتمل تفسيره شبانا وشيبا أو أغنياء وفقراء أو أعزابا ومتأهلين أو نشاطا وكسالى أو أصحاء ومرضى وكل ذلك سائغ مقبول ، ومنه

قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) فقد قيل الظالم المضيع للواجبات المنتهك للحرمات والمقتصد فاعل الواجبات تارك المحرمات والسابق الذى يزيد عن المقتصد فيتقرب بالحسنات ، وقيل بل الظالم مؤخر الصلاة الى نهاية وقتها والمقتصد مصليها خلاله والسابق مؤديها أوله ، بل قيل الظالم مانع الزكاة والمقتصد مؤتيها وحدها والسابق الزائد عليها بالصدقة . وقد تختلف القراءة فى كلمة فتفسر على كل قراءة تفسيرا فيكون كل ذلك صالحا وهذا كثير من أمثلته (لقالوا انما سكرات أبصارنا) فقد قرىء بتخفيف سكرت على معنى أخذت وبتشديده على معنى سدت ومن أمثلته أيضا قوله تعالى (سرابيلهم من قطران) على أن القطران كلمة واحدة لما تهنأ به الابل أو كلمتان احداهما القطر اسم للنحاس والثانية آن بمعنى ذائب من شدة الحرارة ولكن سهلت همزته

وأقصى ماذكر فى القرآن من غريب لم يعد أمثال ما كان يسأل عنه ابن عباس زعما من السائلين أنه لم يرد فى الأشعار فكان يأتى له بالنظائر والامثال كييأس بمعنى يعلم فى قوله تعالى « أفلم ييأس الذين آمنوا » ومثله قول الشاعر

لقد يئس الاقوام أنى أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشير نائيا

ونحاس بمعنى دخان فى قوله (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس) ومثله

يضىء كضوء سراج السليط لم يجعل الله فيه نحاسا

وتحسونهم بمعنى تقتلونهم فى قوله « إذ تحسونهم باذنه » ومثله

ومنا الذى لاقى بسيف محمد فحس به الاعداء عرض العساكر

ومقيت بمعنى قادر فى قوله (وكان الله على كل شىء مقيتا) ومثله

وذى ضغن كففت النفس عنه وكنت على مساءته مقيتا

وينغضون بمعنى يحركون فى قوله (فسينغضون اليك رءوسهم) ومثله

أتنغض لى يوم الفخار وقد ترى خيولا عليها كالاسود ضواريا

الى غير ذلك مما قد سئل عنه وهذا أوغل ما فيه فى الغريب ومنه يتضح أن لا غرابه تسلبه صفة الفصيح كما يتضح أن سياق ما ورد فيه من آيات كان مقربا لمعناه أيما تقريب على أنه مع الاغضاء عن إيضاح السياق لايمكن أن يقاس بأمثال ماورد فى فصيح الكلام ماجئنا بغرابته القاىء على أدبه إلى إستصحاب معاجم اللغة للوقوف على معناه .

وأما التعقيد فقد عرا بنوعيه كثيرا من كلام الفصحاء والبلغاء فخفيت معانيه خفاء كبيرا لاضطراب التراكيب بتعقيد الالفاظ أو خفاء أكبر منه لسوء التصوير بعدم استقامة التفكير حتى أصبح تلمسها عسيرا على الجهابذة المتبحرين، والشواهد على ذلك تملأ كتب البلاغة ومواطن النقد والمحاكمات اذ لم يكد يسلم من التعثر فيهما علم من أعلام البيان على قلة ما قال ، وقد سلم القرآن منهما على طوله المديد وعلى كثرة ما عالج من معان زادت فى عددها عن عدد الآيات وقد تقدم أن آياته جاوزت ستة الآلاف . فكان فى كل غرض قصد إليه مستقيم التركيب عذب الاسلوب واضح المعنى صحيح التفكير وهذا حكم يصدق على جميع القرآن من حيث سلامة التركيب دون الاستثناء وعلى معانيه من حيث الوضوح الاما أتى متشابها كما سيأتى لحكمة أرادها فيه .

ولقد راعى القرآن فى معانيه الجزئية فوق ما تقدم من صحة ووضوح، وجود الروابط والصلات بين كل طائفة يجمع بينها معنى عام حتى أصبح التلاؤم شديدا والانسجام بينا وصارت أغلب سوره تتصل فواتيحها بخواتيمها اتصال تناسب أول اتحاد فى حسن ابتداء وجمال انتهاء وتجمع بينها كلا متعاشق الاجزاء يرمى إلى غرض واحد أو أغراض فيها على تعددها تناسب وائتلاف وهذا شىء واضح للعيان . فمن الربط بين الفاتحة والخاتمة عن طريق الاتحاد ماتراه فى سورة الحشر من تسبيح وفى الممتحنة من نهى المؤمنين عن موالاة

الكفار وهما قصيرتان، وما تراه فى سورة النحل من ذكر القرآن وفى الاحزاب من ذكر الكافرين والمنافقين والمشركين وهما متوسطتان، ثم ما تراه فى سورة البقرة عن الايمان وفى آل عمران عن الكتاب وأهل الكتاب وهما طويلتان، وعليك الرجوع الى هذه الآيات كما عليك التماس الربط فيه عن طريق التناسب فهو يتناول معظم القرآن ولذا آثرنا التمثيل دونه للاتحاد . على أن المناسبة فى كثير من السور كانت تتعدى السورة الى غيرها فتظهر أحيانا واضحة بين فاتحتها وخاتمة ما قبلها أو بين خاتمتها وفاتحة ما بعدها فتلمس ذلك أيضا فهو كثير يبديه مجرد الالتماس .

أما التناسب بين ما تضمنت كل سورة من آيات فقد بلغ القرآن فيه درجة الأعجاز اذ جاءت كل آية فى سورتها تابعة لما قبلها متبوعة لما بعدها على اختلاف هذه التبعية من وجوه . فنها ما يظهر فيها الارتباط بين الآية اللاحقة والآية السابقة من حيث تعلق الكلم فيها بعضه ببعض لعدم تمام السابق من غير اللاحق أو تمامه بدونه ولكن يقع منه اللاحق موقع التأكيد أو البدل أو البيان أو الاعتراض وهذا كثير جدا ولا يحتاج الوقوف على التناسب فيه الى تأمل . ومنها ما يكاد يظهر بمظهر المستقل ولكن قليلا من التأمل يكشف عن جهة جامعة من أنواع العلاقات ولهذا كان من عادة القرآن ذكر الرحمة بعد العذاب . والرغبة بعد الرهبة . والوعدوالوعيد أو التوحيد والتنزيه بعد بيان الأحكام ليكون ذلك باعثا على العمل أو مبينا عظم الآمر الناهى كما كان من عادته أن يخرج من شىء إلى شىء لمناسبة تسمح بهذا الخروج ثم تارة يعود الى ما كان فيه فيكون ماخرج إليه استطرادا وتارة لا يعود فيكون انتقالا، مثال الأول خروجه فى قصة ابراهيم من سورة الشعراء وكان الحديث قبلها فى قصة موسى الى وصف المعاد عقب قوله على لسان ابراهيم (ولا تخزنى يوم

يبعثون يوم لاينفع مال ولا بنون) الى آخر ماذكره فى وصف اليوم فانه عاد بعده الى قصص الانبياء بالدخول فى قصة نوح وهذا هو الاستطراد : ومثال الثانى انتقاله فى سورة صاد من ذكر الانبياء الى ذكر المتقين بقوله (هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب) فانه أنهى السورة ولم يعد الى ذكر الانبياء وهذا هو الخروج . ومع ذلك فالمناسبة دائما ثابتة فيه لأن لكل سورة أمرا كليا يهيمن على حكم الربط بين آياتها متى عقله القارىء بالنظر الى الغرض العام الذى سيقت له ومايحتاج اليه ذلك الغرض من أغراض خاصة تبين له وجه النظم مفصلا واضح الروابط بين الاحكام .

هذا على أنه قد تخفى المناسبة أحيانا فتحتاج فى تلمسها الى فضل علم بأسباب التنزيل ومن أمثلة ذلك وهى قليلة قوله تعالى « لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه » فان هذه الآية قد وردت فى سورة القيامة بين أوصاف اليوم الآخر ولها خاصة السورة دون هذه الآية ولكن السبب فى وجودها ظاهرة الخروج راجع الى أسرار التنزيل فقد حدث أن رسول الله ﷺ حين أنزل عليه ما أنزل من أول السورة الى قوله تعالى « ولو ألقى معاذيره » بادر الى تحفظه فحرك بما نزل لسانه متعجلا به ولما كان فى هذا انشغال له عما هو نازل من سائر السورة لقنه المولى سبحانه وتعالى بهذه الآية ثم عاد الى تكملة ما بدأ به . وفى الآية مناسبات أخر فضلت عليها ما اخترت كما فضلت التمثيل بها دون غيرها لانها أبعد الآيات فى ظاهرها تعلقا بسورتها .

وكما تختفى المناسبة أحيانا وهى موجودة فتكون الآية محل كلام ، كذلك قد تظهر بعض الآيات بمظهر الاختلاف ولا اختلاف ، فمن ذلك ماذكره الله سبحانه وتعالى عما خلق منه آدم ، فقد جعله التراب والطين والحمأ والصلصال

فى كثير من الآيات فأشعر ذلك بالمخالفة ولـكن لاخلاف لأن مرجعها كلها الى جوهر واحد هو التراب الذى منه تشكلت هذه الأشياء . ومنه قوله تعالى « فاتقوا الله مااستطعتم » مع قوله « اتقوا الله حق تقاته » ووجه عدم المخالفة أن الأولى فى الاعمال والثانية فى العقائد وكذا قوله (فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة) مع قوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل) فان الاولى فى توفية الحقوق والثانية فى ميل القلب ومن أمثلة هذا النوع فى الاية الواحدة قوله تعالى (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيهـا أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) فان ظاهرها يقتضى أن خلق الارض والسماء استغرق ثمانية أيام وهذا ينافى المجمع عليها من أنها ستة لاغير ولـكن التدبر فيها يرى أن اليومين الأولين الخاصين بخلق الارض داخلان فى الاربعة بعدها اذ كان جعل الرواسى وتقدير الاقوات فى يومين أتماها أربعة ثم كان خلق السموات فى يومين ثالثين أكملا سلفيهما ستة أيام كما هو المعروف . وهناك آيات أخر من هذا النوع لا يخفى التوجيه فيها على ذوى البصائر والعقول .

أما الاختلاف بمعنى التناقض فلا وجود له ألبتة فى القرآن

تلك كلمة أسلفناها عن معانى القرآن فى صحتها ووضوحها وتلاؤمها وعدم اختلافها وإنه لمن الضرورى وقد امتد بنا الحديث هذا الامتداد أن نشفع تلك الكلمة بأخرى موجزة عن مبهمات القرآن ومتشابهاته . فأما المبهمات

فنقصد بها الآيات ذوات الحاجة الى إيضاح وهى نوعان نوع فسره القرآن فى موضع غير موضعه فيه كقوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم » فانه بين هؤلاء فى آية أخرى هى « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » وكقوله « واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا » فقد فسره فى سورة النحل بقوله (وإذا بشر أحدهم بالانثى .) وكذا قوله (أحلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم) فانه مفسر بقوله (حرمت عليكم الميتة) الى آخر الآية . ونوع ترك تفسيره لاسباب ظاهرة منها اشتهاره نحو « اسكن أنت وزوجك الجنة » فمعروف أنها حواء . ومنها التستر عليه نحو (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام) فقد نزلت فى الاخنس بن شريق ولم يذكر الله اسمه تسترا عليه لما علم من أنه سيسلم ويحسن اسلامه . ومنها ألا يكون فى ذكره فائدة كما فى الآية (أو كالذى مر على قرية) ومنها سوقه سوق العموم وان كان فى الاصل خاصا كما فى قوله تعالى عن ضمرة بن جندب (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه المرت فقد وقع أجره على الله) ومنها تعظيمه بالوصف كما فى قوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به) يقصد النبي وأبا بكر الى غير ذلك من الاسباب .

وأما المتشابهات فهى ما استأثر الله تعالى بعلمها اذ ليس فى قدرة العقول الوصول الى حقائقها ولعله لا شىء منها فى القرآن الا أوائل السور المبدوءة بالحروف، والحكمة فى وجودها مع استغلاق معناها هى اختبار العباد فى درجات الايمان فان من لم ترسخ عقائدهم يقفون عندها وقفة الزيغ والالحاد كما قال الله سبحانه وتعالى ذاكرا ذلك (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون

ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر إلا أولو الألباب) اذالمختار أن الوقف فى هذه الآية على لفظ الجلالة والكلام بعده مبتدأ وخبر . وبعض العلماء لايقف بل يعطف فيشرك الراسخين فى العلم فى التأويل ولكن ذلك غير مؤيد فان المؤولين لم يصلوا الى مقنع فى تأويلهم كما سترى مما يقولون . فبعضهم يجعل هذه المبادىء الحرفية مأخوذة من مبادىء أسماء الله تعالى أو من مبادىء جمل ينسبها سبحانه الى نفسه ويقول إن ذلك اختزال جرت على بعضه العرب فى نحو قول القائل

بالخير خيرات وان شرافا ولا أريد الشر الا أن تا

يريد وان شرا فشر ، الا أن تشاء . وبعضهم يجعلها أسماء للسور أو أسماء لله لما روى من أن عليا رضى الله عنه كان يقول « يا كهيعص اغفرلى » أى يامسمى بهذا الاسم أو ياقائل هذه السورة من سورك . وبعضهم يقول إنها مركبة على حساب الاعداد فى « أبجد » لأشياء موقوتة فى علم الله . وكل هذا لم ينته بنا إلى معنى معروف كما رأيت . وأخيرا هناك رأى لا بأس من إيراده وان كان لايضح عن سوابقه ذلك قول من يقول إنها إعلام للعرب ومن بعدهم بتركيب القرآن الذى أعجزهم من حروف لغتهم وإشارة إلى شىء من النظام الذى ورد عليه ذلك التركيب فى أنواع الكلمات ونسبة دورانها فيه وغلبة الحروف التى بدئت بها كل سورة على غيرها فيها ولذلك كثر ذكر الكتاب بعد كل حروف بدئت بها سورة حتى شمل كل السور الا ثلاثا هى العنكبوت والروم ونون . على أن أصحاب هذا الرأي قد ظفروا باشياء غاية فى العجب انتهوا اليها بعد بحثهم . فقد وجدوا مثلا أن السور التى بدئت بالحروف ثمان وعشرون بعدد حروف الهجاء . وأن الحروف التى دارت فيها هى نصف تلك الحروف .

وأنها مشت على هذه المناصفة فى تقاسيم كثيرة للحروف ففيها نصف الحروف المهموسة وهي عشرة التاء والثاء والحاء والخاء والسين والشين والصاد والفاء والكاف والهاء ونصف المجهورة وهى الباقية . وفيها نصف الحروف الشديدة وهى ثمانية الهمزة والجيم والدال والطاء والظاء والقاف والكاف والهاء ونصف الرخوة وهي الباقية وفيها نصف حروف الحلق وهى ستة الهمزة والحاء والخاء والعين والغين والهاء ونصف غير الحلقية وهى الباقية وكذا نصف حروف الاطباق الاربعة وهى الطاء والظاء والصاد والضاد ونصف غير المطبقة وهى الباقيه .

إلى هذا الحد وصلت البحوث ولكن العلم الحق عند الله فهو علام الغيوب « يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور » .

ذلك ما رأيت إثباته هنا عن مبهمات القرآن ومتشابهاته وإنه ليجمل أن أذكر معهما الحكمة فى وجود ناسخ ومنسوخ بالقرآن وهى لا تعدو أنها ضرورة من ضرورات التشريع ساقت اليها الظروف والأحوال وأوجب وجودها ما اقتضاه أخذ العرب بالاسلام من تدريج وانما بقى المنسوخ بعد نسخه كى يتعبد بتلاوته وكى يعرف الناس ما كان من خطوات التشريع

وبعد فقد انتهى ما أردنا إجماله عن الامر الأول وهو ممهدات الفصاحة فى القرآن، إجمالا يفتح أمام القارىء الأبواب التى يلجها فى التفصيل. وهذا ما نريد أن نذكره عن الامر الثانى وهو درجة الفصاحة نفسها على هذا المنوال .

ثانيا ـ درجة الفصاحة فى القرآن

قد بان مما تقدم أن ميدان الفصاحة ذو غايات ثلاث هى التشبيه والمجاز والكناية، وقد جرى القرآن الكريم فى كل غاية أشواطا تقطعت بالفصحاء دون بلوغها الاسباب فوقفوا أمامها حائرين لايجدون إلى شق غبارها من سبيل وهذى بعض الامثلة على مانقول

١ ـ تشبيهات القرآن

اشتمل القرآن الكريم على كل ما حسن من أنواع التشبيهات

فجاء فيه تشبيه المحسوس بالمحسوس كقوله تعالى فى وصف الحور (كأنهن بيض مكنون) و (كأنهن الياقوت والمرجان) وفى عظائم السفن (وله الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام) وفى أصحاب الفيل « فجعلهم كعصف مأكول » وفى بعض أهوال الساعة « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » وفى عصا موسى « تهتز كأنها جان » و« فألقاها فاذا هى حية تسعى » وفى هذين التشبيهين الاخيرين تصرف بديع فانه أراد من الاول سرعة الحركة فشبه بالجان وهو ولد الحية إذا هو أسرع منها حركة وفى الثانى أراد العظم فشبه بالحية نفسها ولكنه عقبها بالفعل «تسعى» لكيلا تنقص الحركة على إطلاقها

وجاء فيه تشبيه المعنوى بالمحسوس كقوله تعالى فى أعمال الكافرين يحبطها الاشراك فلا تغنى عنهم من الله شيئا « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال

البعيد» وكقوله فيها أيضا «مثل ماينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وماظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون» فكلتا الآيتين توضح الغرض أتم أيضاح من حيث انقضاء الشامل الذى لايبقى شيئا يمكن أن يكون به انتفاع . وكقوله تعالى فيمن آتاه آياته فانسلخ منها فأصبح لايجيب بعنف ولالين « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبو بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » فهؤلاء والكلب سواء لايجيبونك الى الايمان قسوت أم لنت كما لايطيعك الكلب الى ترك اللهث حملت عليه أم تركت . وكقوله تعالى فى عدم انتفاع المشركين بمن يدعون على حاجتهم الى الانتفاع « وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشىء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ومادعاء الكافرين الا فى ضلال

وجاء فيه التشبيه المعنوى الطرفين كقوله تعالى «أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » ولكن هذا على عكس سابقيه فى القرآن قليل لأن المعنويات لا تطاوع على تحقيق الغرض من التشبيه ولذلك نجد القرآن لايزال يحبو هذا النوع بما يخرجه الى ناحية الحس، ألا تراه فى هذه الآية مثلا، والقصد من التشبيه فيها التفريق بين حالى الضال يهدى والضال يبقى فى ضلاله ، قد استعمل للضلال والهدى على سبيل التجوز الاماتة والاحياء وأثرها فى الحس أوضح من أثر هذين .

وعطف عليهما وهما الطرف الأول من التشبيه ماقربهما من الحس وهو قوله « وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس » ثم لم يكتف بذلك بل جعل الطرف الثانى ظاهرا كله بمظهر الحس إذ حذفه ولم يبق دالا عليه سوى المحسوس المناظر فى الطرف الأول للمعطوف وهو قوله « كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » وبهذا التصرف البديع الجبار خرجت الآية على أحسن مخارج التشبيه إذ كادت تكون من تشبيه المعنوى بالمحسوس أو المحسوس بالمحسوس

أما الصورة الباقية عقلا وهى تشبيه المحسوس بالمعنوى فلم يرد منها فى القرآن شىء لما يعترى التشبيه فيها دائما من الحمل الضعيف أو المبالغة الممقوتة وهذا خروج على الأصل فى التشبيه لأن العقل مستفاد من الحس والمحسوس أصل للمعقول والتشبيه على هذه الصورة يستلزم جعل الأصل فرعا والفرع أصلا وهو قبيح . ولذلك حاد القرآن أيضاً عن أن يرد به شىء من التشبيه المعكوس إلا اذا كانت شركة الطرفين فى وجه الشبه لدى المخاطبين تبيح هذا التغيير كقوله تعالى « أفمن يخلق كمن لايخلق » لأن المشركين سووا فى استحقاق العبادة بين آلهتهم والإله الحق وعكفوا عليها من دون الله يعبدون فكانت عندهم أصلا يقع به الالحاق ولذلك وقع التشبيه مقلوبا ولكنه جاء فى صفة تظهر خطأ التسوية باديا وعجز آلهتهم مكشوفا وهى صفة الخلق والانشاء ، وكذلك قوله تعالى « انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا » فان العرب أولعت بالربا وأقبلت عليه أكثر مما تقبل على البيع فألحقه الله به ولكنه عقب على ذلك بما يفك هذا الالحاق وهو تحليله البيع وتحريم الربا .

على هذه الصور الثلاث جاءت تشبيهات القرآن مع إدغام الثالثة بنحو ما قدمنا عن الآية الممثل بها هناك فهو دائما يخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ويقدم الناقص ليلحقه بالكامل ، إلا أنه كان يجرى فى تشبيهاته

كثيرا على الترفع بالكامل أن يتساوى بالناقص فيقدمه عليه حينئذ وذلك فى حالات النفى مثل قوله « يانساء النبي لستن كأحد من النساء » أى فى التنزل والامتهان أو فيما يجرى مجرى النفى كما فى قوله « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » أى فى سوء الحال والنفى هنا آت عن طريق الاستفهام الانكارى وعلى هذا يمكن أن تخرج الآية السابقة (أفمن يخلق كمن لايخلق) فلا تكون كآية البيع والربا نصا فى التشبيه المقلوب

على أن القرآن كان اذا لم يجد فى بعض التشبيهات المشبه به الفائق على المشبه حقا وواقعا، تخيره مما هو المثل الاعلى فى نظر المخاطبين وان لم يكن من هذا العلو على القدر المطلوب ومن ذلك قوله تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار ؛ نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شىء عليم) فان المشبه به أمام المشبه ضئيل نحيل ولذلك ترى الآية قد أطالت فى وصفه بما عساه يفيض عليه السطوع والاشراق فجعلت المصباح فى زجاجة لامعة لمعان الكوكب الدرى وجعلت زيته مبالغة فى نقائه معتصرا من زيتونة مباركة يكاد زيتها يضىء ولولم تمسه نار ثم جعلت مشرقه كوة صغيرة غير نافذة وهى المشكاة ليملأها بضوئه ويشتد فى جوانبها شعاعه، ولما كان الغرض من نور الله انما هو الهدى يشع فى قلب المؤمن إشعاع ذلك المصباح فى المشكاة ذكر فى الآية بعد أن تكون المشكاة فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه وهى المساجد لعظم مصابيحها وليكون فى ذلك ضمنا تشبيه قلب المؤمن يملؤه الايمان بمشكاة المسجد يشع فيهامصباحه وسائر

جسده بسائر المسجد طهارة وقدسا . ولتماسك التشبيه على النحو الذى بيناه وجب أن يوصل بين الآيتين قراءة، فلا جواز للوقف على نهاية الأولى

ولعل القرآن وقد عدل عن التشبيه المقلوب وتشبيه المحسوس بالمعنوى فرارا من الضعف والخفاء قد عدل لهذا أيضا عن التشبيه المعتمد على الخيال مالم تك الصورة الخيالية قد بلغت فى نفوس العرب مبلغ الصورة الحقيقية وأشد بما توالى عليها من صنع الخيال الذى يذهب بها فى التصوير الى مدى بعيد . انظر قوله تعالى فى شجرة الزقوم (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين) كيف اعتمد فى المشبه به على ما تتخيله العرب فى الشياطين من قبح المنظر الذى عمها وتناهى فى رءوسها حتى صار لهاتى نفوسهم من الشناعة والبشاعة ماذهب الخيال فى تصويره كل مذهب واسترسل فى تجسيم هوله أيما استرسال وكذا قوله تعالى فيما يعاكس هذا التشبيه على لسان النسوة وقد أخرجت عليهن يوسف امرأة العزيز (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش الله ما هذا بشرا إن هذا الا ملك كريم) فان للملك فى النفوس صورة بلغ الخيال فى تحسينها المبلغ الفائق وأبدع فى تجميلها ما شاء له الابداع .

ولم تقف قوة القرآن فى إخراج تشبيهاته عند الحدود التى رسمنا بل تعدتها الى درجات أخر ذات روعة وجلال . من ذلك أنه كان اذا أتى بالمشبه أمرا غير معتاد انتزع المشبه به مما جرت به العادة فكان كثير الوقوع قال تعالى فى قصة عاد (كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) والعارف أن بلاد العرب بلاد نخيل وأن من رياحها ما كان دبورا مدمرا وأنهم كانوا يعلمون أن منازل عاد كانت أكثر بلادهم نخيلا يدرك مبلغ هذا التشبيه من نفوسهم ، وقال فى السماء تشقق عن حمرة ولين (فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان)

أى حمراء ذاهبة كالدهن، أو كالوردة تكون فى حمرتها وطراءتها كالجلد الاحمر المدبوغ ، فيكون هنا تشبيه داخل تشبيه وكلا الشيئين كان للعرب به عهد واختبار ، وقال (واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) وليس أظهر فى بيان السهولة فى نتق الجبل من جعله كالظلة يرفعها الانسان فوق رأسه دون كلفة ولا عناء . ومنها أنه كان اذا أتى بالمشبه أمرا غائبا عن العيان وإن كان من شأنه أن يحس أو معنويا يحتاج فى تصوره الى تدبر وتفكير ، أعقبه بالمشبه به معروفا بالبداهة دون إعمال روية ولا إجهاد مثال الأول قوله تعالى يصف سعة الجنة (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) فقد أخرجها على غيبها مخرج المعاين المالىء للآفاق ، ومثال الثانى قوله تعالى فى قصة عاد أيضا (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاويه) فان خواء النخل بتأكل أجوافها يخرج الى البديهة إدراك حال الاجساد وقد غادرتها الارواح وكذا قوله فيمن اتخذوا من دون الله أولياء (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) وقوله فيمن حملوا التوراة ولم ينتفعوا بها كأنهم لم يحملوها (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين) وليست الآيتان فى حاجة الى تعليق

ولقد كان القرآن يتصرف فى الحال الواحدة بالتشبيه تصرفا واسع الافق رحب الميدان فيكون فى كل حالة مصيبا للغرض أشد اصابة موفيا مايريد أكمل إيفاء ، خذ لذلك مثلا تشبيهه المنافقين تشبيهين متتاليين حيث يقول (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات

لايبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير) وخذ لهذا أيضا تشبيهه لاعمال الكافرين كذلك حيث يقول (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) فقد سلبها التشبيه الاول المنفعة على ظنها بها ، وجردها الثانى من أن تكون محل هداية وإرشاد. وانظر تشبيهه فى الشرك وما يفعل بالمشرك حيث يقول (فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) فهو لامحالة الى هلاك ليس مثله هلاك . وكذا تشبيهه فى التفرقة بين الله جل شأنه وبين ما أشركوا به من أصنام إذ يقول (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله . بل أكثرهم لايعلمون .وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شى وهو كل على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم).ثم انظره فى هذه الناحية يشبه المشرك تتنازعه الآلهة والموحد يخلص الى الواحد موازنا بينهما حيث يقول (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون) بل انظره يشبه كلمة التوحيد فى نتاجها وكلمة

الشرك فى عقمها إذ يقول « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » . وعلى هذا النحو يقول فيمن ينفق ماله رئاء الناس وفيمن ينفقه ابتغاء مرضاة الله (يأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لايهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسكم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير) ثم يعود ثانية إلى تمثيل ما يصنع المن والرئاء بالصدقات من سحق وتدمير فيقول عقب هذه الآيات (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون)وانظر تشبيهه قبل ذلك فيمن ينفقون أموالهم فى سبيل الله وما قدرلهم من مضاعف الأجر حيث يقول (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيلى الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) ولهذه المناسبة انظر كيف تدرج من هذه الآية إلى الآيات السابقة فى المن والأذى حيث قال بينهما وما أشده التحاما وأوثقه رباطا (الذين ينفقون

أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم » .

بل لقد كان القرآن يتصرف فى التشبيه فى المعنى الواحد لافى الحال الواحدة تصرفا يجرى بين قبض وبسط وتساو، فيبلغ فى كل ذلك الغرض الذى يريده والمرمى الذى يقصده فى قوة وسداد ومن ذلك ما جاء فى وصفه هذه الحياة وأن كل مافيها من زخرف وغرور إن هو الامتاع لابد مستسلم إلى فناء . قال فيها موجزا فى سورة الكهف « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا » وقال فيها مساويا فى سورة الحديد « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » وقال فيها فى سورة يونس مطنبا « يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » فهذه الآية الأخيرة قد أتت فى تشبيه المفرد بالمركب بما ليس له مثيل ولا مقارب فى كلام الناس، وأنى للناس أن يذللوا هذا النوع وبه ماترى من شدة الشكيمة وصعوبة الانقياد وهو فى القرآن أكثر من أخويه تشبيه المفرد بالمفرد والمركب بالمركب . أما تشبيه المركب بالمفرد فليس فى القرآن منه شيء لأنه

يتنافى والطريق الصحيح للتشبيه إذ ليس فى قوة مفرد أن يزيدك بيانا على ماتفهمه من تركيب اللهم إلا إذا جاء على سبيل الاستعارة التمثيلية فى ضرب الأمثال حيث يعتمد المثل على قصة تجعل المشبه به على قصره أطول من المشبه مهما امتد به التركيب على أن هذا ليس من التشبيه بالمعنى المصطلح عليه فى شيء وإذن فهو خارج بذاته لا بما تلمسناه له من أسباب فلاحجة به علينا ولا ضير علينا منه .

والقول فى تشبيه القرآن حافل طويل يعجز الانسان عن الاحاطة بأمثلته ويحار فى تعديد المزايا لكل مثال فلنقف منه عند هذا القدر خاتمين إياه بآية كريمة تلاحق فيها التشبيه بقوة وغزارة كالموج يدرك بعضه بعضا فى شدة دفع وحسن التئام وهى قوله تعالى « قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار . أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » .

٢ — مجازات القرآن

قد وردت جميع المجازات المعروفة فى القرآن الكريم بكثرة وفوق وابتكار وهذه كلمة موجزة عن كل نوع .

ا ــ المجاز الاستعارى

فالمجاز الاستعارى وهو المبنى على التشبيه جاء فيه بالكثرة التى عليها التشبيه نفسه قال تعالى فى استعارة الموج للجلبة والتلاطم « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض » والمرأة التى لا تلد للريح غير اللاقحة « إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » والسلخ لخروج النهار من الليل « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » واشتغال النار للشيب يلتهم السواد « فاشتعل الرأس شيبا » إلى غير ذلك من الاستعارات المحسوسة الطرفين . وقال فى استعارة القذف والدفع للتسلط والقهر « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » والمس للنيل والزلزلة للانزعاج « مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » والصدع للجهر بالدعوة « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » والنبذ للاهمال « فنبذوه وراء ظهورهم » والأودية لمقاصد الشعراء « ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون » والظلمات للكفر والنور للايمان « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » إلى غير ذلك مما استعير فيه محسوس لمعنوى . وقال فى استعارة الرقاد للموت « من بعثنا من مرقدنا » والسكوت للزوال « ولما سكت عن موسى الغضب » والقدوم للجزاء بعد الامهال « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » إلى غير ذلك من استعارة المعنوى للمعنوى . أما استعارة المعنوى للمحسوس فلم يك يقدم عليها إلا إذا جاء وجه الشبه فى بعض المعنويات أقوى منه فى بعض المحسات على خلاف المتعود المعروف ومن ذلك قوله فى استعارة الطغيان لزيادة الماء « إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية » والعتو لشدة الريح « فاهلكوا بريح صرصر عاتية » وليس من شك فى أن إحساس الناس بطغيان الطاغى وعتو

العاتى أشد ايلاما لنفوسهم وهم أكثر له خوفا من الزيادة فى الماء والشدة فى الريح،

ولقد كان القرآن يعنى بالترشيح فى الاستعارة لما فيه من تقوية الحمل وتعزيز المعنى قال تعالى «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون » وقال « إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور تكاد تميز من الغيظ » وقال « وفتحت السماء فكانت أبوابا وسيرت الجبال فكانت سرابا» وقال « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وقال « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . ولم يقف عند حل التخيل فى الترشيح بل جاءت فيه استعارات مبينة كلها على التخيل لاستحالة التشبيه فيها على سبيل التحقيق كما فى قوله تعالى « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء» وقوله « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » وقوله « الرحمن على العرش استوى» وقوله « وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون » إلى غير ذلك من آيات الصفات المناظرة لصفات الاحداث، وإنما لم يحسن تخريجها على التجوز الارسالى لأن مبناه كما سيأتى على غير التشبيه فهذا موطن الفرق ومحل الخلاف بين أمثال هذه الآيات وبين المجاز المرسل من جهة ثم بينها وبين الاستعارت التحقيقية من أخرى . وكثيرا ما كان ينساق فى باب التخيل حتى يكون الكلام فى مجموعه مثلا مضروبا وقصة متخيلة بقطع النظر عما فى داخله من استعارات جزئية فمن ذلك قوله تعالى « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » وقوله « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » إلى غير هذين من قصصه التخيلية الكثيرة التي كانت تستغرق

الواحدة منها أحيانا الكم الكبير من القول . وللقرآن افتنان فى الاستعارة التهكمية وهى التى تستعمل فيها الألفاظ الدالة على المدح والتكريم فى نقائضها من الذم والتهجين كما فى قوله « خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه عن عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم » وقوله « فبشرهم بعذاب أليم » وقوله « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » إلى غير ذلك

ب ـ المجاز الارسالى

وهو مالم يبن على التشبيه، ولم يقل دورانه فى القرآن الكريم عن المجاز الاستعارى فهو فيه كثير الأمثلة متعددة الانواع إلى درجة بلغت علاقاته فيها نحو الأربعين

فمنه إطلاق الكل على الجزء وعكسه نحو « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم »، (فولوا وجوهكم شطره) ومثل هذين وصف الجزء بصفة الكل والعكس مثل (ناصية كاذبة خاطئة) ، (ولملئت منهم رعبا) ومنه إطلاق الخاص على العام وعكسه مثل (أنا رسول رب العالمين) أى رسله ؛(ويستغفرون لمن فى الأرض أى للمؤمنين بدليل (ويستغفرون للذين آمنوا)وبدليل (ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لاواه حليم) ومنه إطلاق المسبب على السبب وعكسه نحو (قد أنزلنا عليكم لباسا) ، (ما كانوا يستطيعون السمع)وقد يترکب سبب على سبب نحو (فأخرجهما مما كانا فيه) لأن المخرج هو الله للأكل من الشجرة الناشىء عن وسوسة الشيطان ومنه تسمية الشيء باعتبار ما كان أو ما يكون مثل (فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) ، (فلا تحل له من بعد حتي تنكح زوجا غيره) ومنه تسمية الحال باسم المحل والعكس مثل

« فليدع ناديه » ، (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا) على معنى الرؤية البصرية أى فى عينك وقد اجتمعا فى قوله تعالى (خذوا زينتكم عند كل مسجد) أى ما تتزينون به عند كل صلاة وكذا منه تسمية الشىء باسم آلته نحو (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) واطلاق الفعل والمراد مقاربته نحو (فاذا بلغن أجلهن) أى قاربنه وبذلك يندفع ما يعترض به على قوله (فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون) من أنه لامعنى للتأخير والتقديم إذا جاء الأجل لأن المراد فاذا اقترب أجلهم، وكذا اطلاقه والمراد ضده مثل (ما منعك ألا تسجد) أى مادعاك على أن لاغير زائدة ومنه قلب الاسناد نحو (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أى تعرض النار عليهم لأن المعروض عليه هو العاقل كما أن منه أيضا إقامة صيغة مقام أخرى كالمصدر مقام فاعل أو مفعول والعكس فيهما نحو (أن أصبح ماؤكم غورا)، (لا يحيطون بشىء من علمه) ، (ليس لوقعتها كاذبة) ، (بأيكم المفتون) على أن الباء غير زائدة وكفاعل مقام مفعول والعكس مثل (جعلناه حرما آمنا) ، (إنه كان وعده مأتيا) وكواحد من المفرد والمثنى والجمع مقام آخر منها نحو (والله ورسوله أحق أن يرضوه) ، (إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا) ، (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) ، (ثم ارجع البصر كرتين) ، (قال رب ارجعون) ، (قالتا أتينا طائعين) والماضى على المستقبل وعكسه نحو (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) ، (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) والخبر مقام الانشاء والعكس نحو (والمطلقات يتربصن) ، (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) وبعض أنواع الخبر مكان بعض خلافا للظاهر نحو (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون .) فقد نزل فيه الخالى منزلة السائل وبعض أنواع الإنشاء مكان بعض نحو (فهل

أنتم منتهون) أى انتهوا وجمع القلة مكان جمع الكثرة والعكس نحو (وهم فى الغرفات آمنون) ، (ثلاثة قروء) والمذكر فى موضع المؤنث والعكس نحو (وأحيينا به بلدة ميتا)،(الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون)

ومن هذا المجاز أيضا بابان واسعان هما التضمين ويكون فى الحروف والأفعال والأسماء نحو (عينا يشرب بها عباد الله) أى يروى بها أو يشرب منها، (حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق) أى حريص ثم التغليب ويكون لكل ماهو ذو مزية على سواه نحو (إلا امرأته كانت من الغابرين) للمذكر على المؤنث ونحو (بل أنتم قوم تجهلون) للخطاب على الغياب وغير ذلك مما لاداعى إلى الاطالة فيه بعد الذى قدمناه

جـ ـ المجاز العقلى

والتجوز فيه عقلى بالاسناد لا لغوى فى المفردات كما فى المجازين السابقين، وهو صالح لأن يخرج عليه كثير من أمثلتهما ولاسيما المرسل منهما إذا أبقينا الالفاظ على حقائقها وتجوزنا فى الاسناد دونها ولهذا كان كثير الوقوع فى القرآن أيضا ومنه قوله تعالى (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) ، (وأخرجت الأرض أثقالها) ،(فوجد فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه) لأن الأرض لاتأخذ ولا تخرج والجدار لايريد ونحو هذا مما طرفا الأسناد فيه حقيقتان ، على أنه يوجد من المجاز العقلى فى القرآن ما الطرفان فيه أو أحدهما من المجاز اللغوى كما فى قوله (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم) أى فما ربحوا فى تجارتهم وهذا هو التجوز العقلى ثم الربح والتجارة مع ذلك مجازان لغويان وكما فى قوله (تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى) لأن الدعاء من النار بمعنى الجمع مجاز لغوى وإسناد الجمع إليها مجاز عقلى وكما فى قوله (فأمه هاوية) لأن إطلاق الأم على الملجأ والكافلة تجوز لغوي والاخبار عنها بالهاوية مجاز إسنادي،

والشواهد عليه من القرآن كثيرة واسنافى حاجة إلى تعدادها بعد أن بينا إمكان تطبيق الكثير من أمثلة المجازين السابقين عليه وبخاصة المرسل منهما

٣ — كنايات القرآن

لقد كثرت الكناية فى القرآن الكريم وتنوعت أغراضها وكان من أكثرها دورانا فيه الكناية عن الألفاظ التى لا يحسن النطق بها وسنعبر نحن هنا عنها على سبيل الكناية أيضا . فمن ذلك أنه كنى عن قضاء الحاجة بأكل الطعام وعن التبول بالمجىء من الغائط وهو المطمئن من الأرض فى قوليه « كانا يأكلان الطعام » وقوله « أو جاء أحد منكم من الغائط » وكنى عن المأتى الخاص فى المرأة بالحرث فى قوله « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » . وكان إذا كثرت الكناية عن الشىء الواحد لا يجمد على لفظ معين يستعمله كلما أراده بل يستخدم عدة ألفاظ تكاد تفى بمواضع ذلك الاستعمال، ومن هذا أنه كنى عن المخالطة الجنسية بالملامسة والمباشرة والافضاء والدخول والغشيان والرفث والمراودة وغيرها مما نطقت به الآيات على ماهو معروف. ولم يقف بالكناية عند حد الألفاظ القبيحة فكان كثيرا مايغادر اللفظ مع عدم قبحه إلى ماهو أجمل منه مجاراة للعرف والعادة ومن ذلك أنه حاد عن ذكر أسماء النساء إلى الكناية عنها لأن العرب كانت لا تذكر من أسماء نسائها سوى أسماء الاماء فلم يرد فيه ذكر امرأة باسمها إلا مريم لنسبة عيسى إليها بل إن لفظ النساء نفسه لم يك يذكره صريحا إذا كان المراد المتعة كما فى قوله « وفرش مرفوعة » فقد قيل إنه كناية عن النساء بدليل قوله تعالى بعده « إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا » وكما فى قوله « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها » فقد قيل إن المراد بالأرض الثانية النساء أيضا

وللكناية فى القرآن أغراض غير ماتقدم . منها قصد المبالغة للتبشيع كما فى قوله « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » أولبيان القوة نحو « وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم »أو الضعف نحو« أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » . ومنها التنبيه على عظم القدرة كما فى قوله « هو الذى خلقكم من نفس واحده » أو على حقيقة المصير كما فى قوله (تبت يدا أبى لهب وتب،ما أغنى عنه ماله.وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد) فقد إختارهذه الكنية لأبى لهب وكنى عن امرأته بحمالة الحطب إشارة إلى أن مصيرهما النار ذات اللهب،فالألفاظ متعاشقة متناسبة وقد رشح الكناية فى قولة حمالة الحطب بقوله (فى جيدها حبل من مسد) والسورة على قصرها ذات قوة متينة و إعجاز شديد ثم هى ذات انطباق تام على مانزلت من أجله فقد كان سبب نزولها أن أبا لهب وهو عبد العزى بن عبد المطلب لما سمع قول رسول الله فى صدق دعوته وقد جمع الناس على الصفا قال له تبا لك إنما جمعتنا لهذا، ثم كانت امرأته حمالة الحطب وهى أم جميل بنت حرب تمشى بين الناس بالوقيعة،والعرب تكنى عن هذا بحمل الحطب لانه وسيلة إلى ايقاد النار.ومنها التمكين من التعبير عن الدقيق كما فى قوله تعالى(وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) فانه ليس هناك أدق من أن يكنى عن أول بدو النور بالخيط الأبيض . وقد يكون الغرض من الكناية الايجاز فى التعبير كما فى قوله (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا) أى فان لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله وهو كثير جدا فى القرآن مثل « ولبئس ما كانوا يفعلون »

التعريض — هذا ومما يعد قسيما للكناية التعريض وهو كثير فى القرآن أيضا وله أغراض كما للكناية أغراض.وأهم أغراضه الذم والتنقيص إما بالاهانة والتوبيخ

كما فى قوله تعالى (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) فانه تعريض بسؤال قاتلها لاهانته وتوبيخه وكما فى قوله (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون) فانه تعريض بالكفار فى إنكارهم الرجعة والمعاد، وإما بالسخرية والاستهزاء كما فى قوله على لسان قوم نوح له (فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين)، وإما بالتوضيع والتحقير كما فى قوله (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) فهو تعريض بآلهتهم على جهة التوضيع والتحقير للضعف البادى عليها فى عدم النطق والعجز عن الدفاع . ولقد أتى القرآن بهذا العجز بينا على سبيل التصريح فى آية جعل الآلهة فيها أدنأ مرتبة وأقل قدرة من الذباب هى قوله سبحانه (يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز). على أن التعريض قد يأتى للذم خالصا كما فى قوله (إنما يتذكر أولو الألباب) ، (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) وهو كثير جدا فى القرآن. وهناك أغراض أخرى له أتت فى القرآن أيضا. منها استدراج الخصم بمخاطبة غيره كقوله تعالى لرسوله (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فانه تعريض بالكفار لاستحالة الاشراك عليه صلى الله عليه وسلم. ومنها التلطف فى المحاورة كما فى قوله على لسان رسوله (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) أى ومالكم بدليل قوله بعد (وإليه ترجعون) وقد يصل التلطف إلى أن يكون مجرد لفت نظر كما فى قوله تعالى على لسان الملكين لداود وقد تسورا عليه المحراب وقال أحدهما عن الآخر (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة

واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب) إلى آخر القصة فانها تعريض به عليه السلام لما جال فى خاطره من ضم امرأة (أوريا) الواحدة إلى نسائه التسع والتسعين بتطليقه إياها أو بعد وفاته عنها وقد فطن لهذا التعريض بعد حكمه بظلم السائل (فاستغفر ربه وخررا كعا وأناب) وقبل الله استغفاره بقوله (فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب).

هذا ومما ينبغى ذكره هنا صلاحية كثير من آى القرآن لاستخدامها على سبيل التعريض وإن لم تك واردة لذلك أصلا وأمثلة هذا كثيرة منها ماروى من أن أبا العيناء سئل عن ابنى وهب،الحسن وسليمان،أيهما أفضل فقال (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) سليمان أفضل فقيل له وكيف فقال (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم) .

بلاغة القرآن

كما ترسمنا خطا البيانيين فى الأصول التى بنينا عليها كلامنا فى فصاحة القرآن كذلك سنقفو أثر المعنويين فى الكلام على بلاغته وهم قد رجعوا ضروب القول على كثرتها إلى أصلين ترجع إليهما كل فروعه وتتشعب منهما جميع فنونه، ذانك هما الأخبار والمنشآت . وقد ورد كلاهما فى القرآن مراعى فيه جميع مقتضيات الأحوال التى من أجلها وضع علم المعانى وبعبارة أخرى علم البلاغة فى أخص معانيه وكل ما سنذكر فى هذا إنما هو إظهار بعض من تلك المقتضيات، أما محاولة الالمام بها جميعا فليست فى مقدور انسان . وقبل البدء فيما نحاول يحسن أن نذكر النقط التى سيتناولها الكلام ليكون القارىء على بينة منها وهى لاتعدو كلمتين موجزتين عن كل من الخبر والانشاء لابد منهما فى التعريف بهما من حيث أصل الوضع وطرق الاستعمال وبعدها نسوق ماتبيناه من المقتضيات فى هذه الأمور .

١ — الجمل فعلية واسمية ومتعلقاتها .

٢ — التنكير والتعريف .

٣ — الأفراد والتذكير وفرعهما .

٤ — الذكر وعدم الذكر .

٥ — التقديم والتأخير .

٦ — الاطلاق والقصر .

٧ — الفصل والوصل .

٨ — الايجاز والاطناب والمساواه .

٩ — خروج الكلام عن مقتضى الظاهر .

١٠ — الدقة فى استعمال الألفاظ والتراكيب من حيث المناسبة للمعانى
١١ — تنوع القسم فى القرآن وحكمته .
١٢ — الجدل فى القرآن .
١٣ — بدائع القرآن .
١٤ — مزايا القرآن بوجه عام .
هذا ما نريد أن نعرض له بنبذ يسيرة بعد كلمتى الخبر والانشاء .

الخبر

جاءت أخبار القرآن فى كثير منه على المقصد الأول من الخبر وهو إفادة الحكم باعلام المخاطب إياه أو لازم الفائدة بأعلامه أن المتكلم عارف به، ثم هى قد جاءت خالية من كل تأكيد ما انعدمت دواعى هذا التأكيد من تردد أو إنكار نحو (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) ، (وناديناه أن يا ابراهيم) ،(هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) ، (ولا تزر وازرة وزر أخرى) إلى غير ذلك من الآيات حتى المنبئة عن غيب لأن تحقق وقوعه يجعله فى غير حاجة إلى توكيد قال تعالى (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) وقال (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) . فان كانت محل تردد رأيت بها من المؤكدات بعضا نحو (إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر) ، (انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) ، (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) ، (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) أما إذا كانت موطن انكار فانك تجد فيها من المؤكدات ما يتلاءم ودرجات الانكار نحو (وإنهم عندنا لمن المصطفين الاخيار) ، (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع

وهو شهيد) ، (وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) وانظر هـذه الضروب الثلاثة يعقب بعضها بعضا لتجدد المقتضيات فى قوله تعالى (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا اليكم مرسلون قالوا ماأنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء ان أنتم الا تكذبون قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين) .

وقد يخرج الخبر عن هذا المقصد الاصيل الى مقاصد أخرى. منها ما يبقى فيه الخبر خبرا فيكون للوعيد نحو (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ، (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) أو الاسترحام كقول موسى (رب انى لما أنزلت إلى من خير فقير) أو اظهار الضعف كقول زكريا (رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا) أو التحسر كقول مريم (رب انى وضعتها انثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) الى غير ذلك مما لاتتأتى فيه فائدة أو لازمها . ومنها ما يتحول فيه الى إنشاء كالامر فى قوله (والوالدات يرضعن) ، (والمطلقات يتربصن) أى ليرضعن وليتربصن ، والنهى فى قوله (لايمسه الا المطهرون) أى لايمسسه ، والدعاء نحو « وإياك نستعين » أى أعنا ، والتعجب نحو « فما أصبرهم على النار »

وكما يكون الخبر مثبتا يكون منفيا نحو « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ويخص باسم النفى اذا كان النافى صادقا كهذه أما اذا كان كاذبا فانه يسمى بالجحد كنفى فرعون وقومه على غير حقيقة ، آيات موسى فى قوله « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين » ولذلك قال سبحانه بعدها « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعتوا » . وعلى ذكر النفى نقول إنه لما كان نفى العام يدل على نفى الخاص وإثباته لايدل على إثباته ،

وكان اثبات الخاص يدل على اثبات العام ونفيه لا يدل على نفيه،جرى القرآن الكريم ــ الا فيما خالف فيه الظاهر لداع كقوله تعالى (وما ربك بظلام للعبيد) وقوله(وما كان ربك نسيا)ــعلى نفى العام لينفى الخاص وعلى اثبات الخاص ليثبت العام.فمن الاول قوله (فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم) ولم يقل بضوئهم وان كان الظاهر أنه أنسب لقوله أضاءت لأن النور أعم من الضوء فنفيه ينفيه ولا عكس ولذلك قال (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) ومن هذه الناحية أثبت الضوء للشمس ولم يثبت للقمر سوى النور فى قوله (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا)،ومن الثانى قوله (وجنة عرضها السموات والارض) ولم يقل طولها لان هذا يثبت له أكثر مما ثبت للعرض ولا عكس

الانشاء

ومنشآت القرآن شملت كل أنواع الانشاء فى أصل استعمالها وفى خروجها عن هذا الاصل لدواع تقضى بهذا الخروج وهذه الانواع هى الامر والنهى والتمنى والنداء والاستفهام

فالامر أصله لطلب الفعل على جهة الاستعلاء والاصل فى صيغته إفادة الوجوب نحو (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى) ، (ادعونى أستجب لكم) ، (اتقوا الله حق تقاته) ، (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) ، (فليصلوا معك) وقد يرد لمعان أخر نحو (واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) للندب ، (واذا حللتم فاصطادوا) للاباحة ، (فاصبروا أو لاتصبروا) للتسوية ، (رب اغفر لى) للدعاء ، (وأشهدوا إذا تبايعتم) للارشاد ، « ادخلوها بسلام آمنين » للتكريم ، « كلوا من ثمره » للامتنان ، « كلوا مما رزقكم الله » للانعام ، « انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه » للاعتبار ، « قل تمتعوا فان مصيركم إلى النار » للانذار ، (كن فيكون) للتكوين ، (كونوا قردة خاسئين) للتسخير ،

،(اعملوا ماشئتم) للتهديد ، (ذق انك أنت العزيز الكريم) للاهانة ، (فأتوا بسورة من مثله) للتعجيز ، (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها) للتكذيب ، «فانظر ماذا ترى » للمشورة ، (انظر كيف ضربوا لك الامثال) للعجب

والنهى أصله لطلب الكف على وجه الاستعلاء والاصل فى صيغته إفادة التحريم نحو (ولا تقتلوا أولادكم) ويرد لاشياء أخر مثل (ربنا لا تزغ قلوبنا) فى الدعاء ، (اصبروا أو لاتصبروا) فى التسوية ، (ولا تمش فى الارض مرحا) للكراهية ، (اخسئوا فيها ولا تكلمون) للاهانه ، (ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم) للاحتقار ، (لاتعتذروا اليوم) لليأس ، (لاتسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم) للارشاد ، (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء) لبيان العاقبه

والتمنى توقع أمر محبوب ومثله الترجى ولكن يغلب فى الاول عدم امكان الوقوع وفى الثانى امكانه، وحرف التمنى ليت وحرف الترجى لعل وهما كثيرا الوقوع فى القرآن فمن التمنى قوله (ياليتنا نرد) ، (ياليت قومى يعلمون) ، (ياليتنى كنت معهم) ومن الترجى قوله (لعل الساعة قريب) ، (لعلى أبلغ الاسباب) وقد يجيئان بغير هذين الحرفين مثل (فلو أن لنا كرة) ، (عسى أن يكون قريبا)

والنداء طلب إقبال المدعو إلى الداعى حسا أو معنى نحو (يأيها الناس اعبدوا ربكم ، (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله)، ويغلب أن يعقب النداء فى القرآن الكريم أمر أو نهى كما فى الآيتين السالفتين وقد يتقدمه نحو (وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون) كما قد يكون التالى جملة خبرية يليها الامر فعلية كانت نحو (يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له)

أو اسمية مثل (ياقوم هذه ناقة الله لـكم آية فذروها) على أنه قد لا يليه شيء من هذا نحو « ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » إذ التالى هنا خبر ليس بعده انشاء ولكن اكتفى به لأنه فى معنى الطلب إذ المعنى لاتخافوا ولا تحزنوا ، ثم قد يكون التالى جملة إنشائية استفهامية نحو « ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا » هذا . وقد يستعمل النداء فى غير طلب الاقبال مثل « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » للاختصاص ، « ياحسرة على العباد ماياتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » للتعجب ، « ياليتنى كنت معهم » للتحسر

أما الاستفهام فأصل معناه طلب الفهم والاستخبار عما يطلب بأدواته الكثيرة كالصفة والذات والحقيقة المطلوبة بما فى أقواله تعالى « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها » ، « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى » ، « قال فرعون وما رب العالمين » إلى غير ذلك مما يطلب بسائر أدواته وهو كثير فى القرآن وأكثر منه خروج الاسفهام عن أصل وضعه الى معان أخر تفهم من سياق الكلام كالانكار فى قوله « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا » وقوله « أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » والتوبيخ نحو « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير » والتقرير نحو « هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون » والتعجب مثل « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون » والعتاب مثل « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » والتذكير فى « ألم أعهد اليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان » والافتخار نحو « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون » والتفخيم مثل « مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها » والتهويل نحو « الحاقة ما الحاقة » والتسهيل نحو

« وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر » والوعيد نحو (ألم نهلك الاولين) والتكثير مثل « وكم من قرية أهلكناها » والامر نحو (أأسلمتم) ، (فهل أنتم منتهون) والنهى نحو (أتخشونهم) والتنبيه مثل (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) والترغيب نحو (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له) والدعاء نحو (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) والاسترشاد نحو « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » والتمنى نحو (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) والاستبطاء نحو (مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) والبعد نحو «أنى لهم الذكرى» والعرض نحو (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) والتحضيض نحو (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) والتجاهل مثل (أأنزل عليه الذكر من بيننا) والاستهزاء نحو (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا) والتحقير نحو (أهذا الذى يذكر آلهتكم) والتعظيم مثل (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) وغير ذلك .

وبعد فهذه كلمة موجزة عن كل أمر من الامور السالفة المقصودة لذاتها بعد هذا التمهيد فى الخبر والانشاء

١ — الجمل فعلية واسمية ومتعلقاتها

وضعت الجملة الاسمية للثبوت والاستمرار والفعلية للتجدد والحدوث والمراد بالتجدد فى الماضى الحصول وفى المضارع التكرار فالجملة الاسمية آكد وأقوى . وقد روعى هذا فى القرآن الكريم أدق مراعاة قال تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » فأتى فى إسنادهم الايمان إلى أنفسهم بالفعلية وفى سلبه هو عنهم بالاسمية لأنهم منافقون فى قولهم ، كما أتى

بالاسمية حين يعبرون عن أنفسهم مكابرة ومجاراة إذ قرعوا بالسؤال فى قوله « وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قال انما نحن مصلحون » ولذلك رد عليهم زعمهم بجملة اسمية مؤكداتها أقوى من مؤكدات جملتهم حيث يقول (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون) . وعن هؤلاء أيضايقول سبحانه (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم انما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) فجعل قولهم للمؤمنين بالفعلية لأنه عن غير عقيدة وجعله لشياطينهم بالاسمية المؤكدة لانه يقينهم واعتقادهم وكذلك جعله فى استهزائهم بالمؤمنين لأنه كذلك ثم لم يترك الآية حتى استهزأ بهم بالاسمية كما استهزءوا ولكن أتى بها خلوا من التأكيد لأن كلامه سبحانه ليس محل تشكك وارتياب . وقال (واذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) فجعل إسنادهم الايمان إلى أنفسهم بالفعلية وكذلك نسبة الكفر اليهم وهم داخلون لأن الأول عن غير حقيقة والثانى غير مشكوك فيه من المخاطبين أما خروجهم بالكفر فقد جاء بالاسمية إذ يجوز على المخاطبين أن يتوقعوا خروجهم مؤمنين وكذلك قوله (فعميت عليهم الانباء يومئذ فهم لايتساءلون) وقوله (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . وقال عن أخوة يوسف (قالوا ياأبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإناله لحافظون) فأتى بالأسمية فيما هو محل اتهام لهم من أبيهم وبالفعلية فيما عداه

على هذا جرى القرآن ولذلك كان إذ أراد الاختصاص حول الكلام إلى الاسمية كما فى قوله (وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والانثي من نطفة اذا تمني) ولعله من المناسب لمناسبة هذه

الآية أن نقول إن من بالغ أسرار القرآن إذا كان الفعل المسند إلى الله سبحانه مظنة اشتراك ولو على سبيل المجاز أن يزيد على الجملة ضمير الفصل كما فى جملتى الاضحاك والابكاء والاماتة والاحياء وإذا لم يك مظنة اشتراك لا يأتى بهذا الضمير لعدم الحاجة اليه كما فى جملة خلق الزوجين الذكر والانثى وكذلك فعل فى تمام الآيات بعد حيث يقول (وأن عليه النشأة الاخرى وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى وأنه أهلك عادا الاولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى فبأى آلاء ربك تتمارى) .ومن هذه الناحية ناحية استخدام ضمير الفصل وعدم استخدامه وفيه فوق ذلك مراعاة استخدام الماضى لمجرد الحصول والمضارع للتكرار قوله تعالى على لسان ابراهيم (الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين) فقد أتى فى الخلق بالماضى لانه مفروغ منه وجرده من ضمير الفصل لانه ليس مظنة اشتراك ثم أتى فيما بعده من الهدية والاطعام والسقى والشفاء بالمضارع مثبتا معه الضمير لانه منكر ومحل شبهة فى الاشتراك ثم هو فوق ذلك لم يكرر الضمير مع يسقين اكتفاء بضمير يطعمنى لأن كلا الفعلين متمم للآخر كأنهما بدل يغذين كما أنه أخلى كل ما تقدم من القيود فى حين قيد الشفاء بحال المرض لأنها عادية تطلب فى كل آن وهو لا يطلب الا فى تلك الحال . وإذا كانت الجملة الاسمية غير فعلية المسند مع اشتماله على الحدث كانت أقوى مما اذا كان مسندها فعلا وهذا جانب معمول به فى القرآن ألا ترى قوله تعالى (أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون كيف أتى بأسناد الخلق اليهم فعلا واليه سبحانه اسما فى معنى الفعل وكذلك قوله (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) وقوله (أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون)وقوله(أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) وهذه آيات فيها من

الحاجة على سبيل الموازنات المعقبة كل موازنة منها بوجوه التفضيل مايدحض الخصيم ويفحم اللدود ولذلك ختمها بقوله « فسبح باسم ربك العظيم » اشارة الى أنه لايستحق التسبيح سواه فليرجع إليها من الكتاب الكريم .

هذا ومضمر الفعل فى إفادة ماتقدم كمظهره ولذلك قالوا فى قوله تعالى (هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون) إن سلام الخليل أوكد من سلام الملائكة لأنه رفع على الابتداء وسلامهم نصب على تقدير الفعل وليس معنى ذلك أنا لو رفعنا السلامين لكان أبلغ كلا فان لكل موطنه من البلاغة إذ أن ابراهيم لما كان حيث هبطوا عليه وجلا يقول قوم منكرون كان الانسب أن يستشعر الحدث فى لحظة الخوف ويطرح الدوام جانبا ولذلك أتوا بالسلام منصوبا بالفعل لأنه أدل على الحدث من الاسم أماهم فلما لم يتصور ابراهيم وهو خائف منهم خوفا عليهم أتى بسلامه مرفوعا دلالة على أن السلام ثابت لهم وليسوا فى حاجة منه إلى تجديد . ولما كان فى هذه الآية الكريمة تحية وردها وكانت التحية مندوبة والرد واجبا استنبط أن المصادر إذ أتت فى القرآن مرفوعة كانت للوجوب بخلاف ما إذا أتت منصوبة فانها تكون للندب قال تعالى ﴿ فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ﴾ وقال (فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان) وهذا للوجوب والمصادر فيه مرفوعة ثم قال (فضرب الرقاب) والمصدر منصوب وهو للندب ولهذا اختلف فى الوصية للزوجات أواجبة هى أم مندوبة لأن قوله تعالى (وصية لأزواجهم) قرىء بالرفع وبالنصب

هذا طرف يسير مما يقال عن القرآن الكريم فى مفاضلته بين الجمل فى الاستعمال من حيث الفعلية والاسمية ، والجملة تتحقق بركنيها المسند إليه والمسند أما متعلقاتها فهى ماعدا هذين الأصلين من المنصوبات والمجرورات والمرفوعات

والكلام فى المتعلقات سيتضح فى كثير من المباحث الآتية التى ستشملها مع الطرفين من مسند اليه ومسند لأن ما يعتريهما يعتريها

٢ — التنكير والتعريف

جاء التنكير فى القرآن الكريم لمقامات تتطلبه كأن يراد واحد من أفراد الجنس فيؤتى بلفظه مفردا منكرا نحو (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) فالتنكير هنا للوحدة أما إذا أريد التكثير فانه يؤتى بلفظ الجنس مجموعا كما فى قوله تعالى (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) أى كثير وقد يكون فى مثل هذه الحالة للتعظيم كهذا المثال نفسه أى عظام كما يكون فى الحال الاولى لهذين من تعظيم وتكثير وهو كثير فيهما نحو ﴿فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ أى عظيمة ونحو ﴿ أئن لنا لأجرا ﴾ أى وفيرا ، على أن التنكير يكون فى المفرد أيضا للتقليل نحو « ورضوان من الله أكبر » أى قليل رضوانه أكبر من جناته وللتحقير مثل (من أى شىء خلقه) أى من شىء حقير مهين هو ما بينه بقوله (من نطفة خلقه) ونحو (إن نظن إلا ظنا) أى حقيرا، وللنوعية كما فى قوله (هذا ذكر)أى خاص وقوله (وعلى أبصارهم غشاوة) أى معينة وقوله (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة)أى طويلة وقوله (ولكم فى القصاص حياة) أى مستقبلة ومن النوعية أيضا قوله تعالى(والله خلق كل دابة من ماء) أى كل نوع ولا يبعد أن يكون للوحدة أى كل فرد ، وقد يكون القصد من التنكير التجاهل كما فى قوله (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) ولذلك أبانها بقوله(تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم).واذا وقعت النكرة فى سياق النفى كانت لقصد العموم كما فى قوله تعالى (ذلك الكتاب لاريب فيه)وقوله(فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج)هذا ولما ذكرنا من أن التنكير يكون للتعظيم كثيرا قد جاء السلام الصادر عن الله سبحانه وتعالى فى

القرآن منكرا دائما نحو(سلام على نوح فى العالمين) ، (سلام على آل ياسين)، (سلام قولا من رب رحيم) ، (اهبط بسلام منا) أما الصادر عن غيره فانه جاء معرفا كسلام عيسى حين يحدث عن نفسه فى قوله تعالى (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) بخلاف سلام يحيى فقد جاء منكرا لأنه من الله عنه حيث يقول (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا)

هذا والتعريف تتنوع فيه الدواعى بتنوع المعارف

١ — فان جاء بالعلمية يكون المراد إحضاره فى الذهن ابتداء كقوله تعالى « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » وقوله « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » وهذا كثير جدا فى القرآن وقد يعدل عن العلمية بالاسم إليها باللقب إشعارا بما يكون فيه من مدح أو ذم كاسرائيل ليعقوب ومعناه صفوة الله ولذا كان خطاب بنيه به فطالما ناداهم القرآن(يابنى اسرائيل) تذكيرا لهم بلقب أبيهم على سبيل العظة والاعتبار وكيأجوج ومأجوج لأولئك القوم من ولد يافث فى قوله تعالى « قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض » وهما من أج الظليم إذا هرول فى مشيه وهذا يشعر بما كانوا عليه من همجية وفوضى وكذلك الحال فى الكنية نحو (ياأخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) ونحو (تبت يدا أبى لهب وتب)

٢ — وان جاء بالاشارة يكون الغرض تصويره حسا كما فى قوله (هذا خلق فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) أو بيان حاله فى القرب أو البعد مع ما قد يكون فيهما من تحقير أو تعظيم والأصل فى القرب التحقير كقوله تعالى (أهذا الذى يذكر آلهتكم)، (أهذا الذى بعث الله رسولا) وفى البعد التعظيم

كقوله (وتلك الجنة التى أورثتموها)، (فذلكن الذى لمتننى فيه) وقد يشعر السياق بالعكس نحو (فليعبدوا رب هذا البيت) ونحو «انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه» أما حال التوسط فتستعمل للأمرين سواء كما فى قوله «أولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون» وقوله (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)

٣ – وان جاء بالموصول يكون ذلك لعدم الفائدة من ذكر العلم نحو (أو كالذى مر على قرية) أو للتستر عليه نحو (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه) أو لتعظيمه بالصلة نحو (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات)؛ (والذى جاء بالصدق وصدق به أو تحقيره بها نحو (والذى قال لوالديه أف لكما) ونحو (والذين كفروا لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) أو لزيادة التقرير نحو (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه) أو للتفخيم مثل (فغشيهم من اليم ماغشيهم) أو للتعميم نحو (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا) ونحو (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أو الاختصار نحو (لا تكونوا كالذين آذوا موسى) وقد يكون الاتيان بالموصول للتمكين من الاسترسال فى استيفاء الصفات حيث لا يغنى عنه فى هذا غيره كما فى قوله تعالى (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم الخ) وقوله (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم الخ) وقوله (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى الخ) وقوله (الذى خلقنى فهو يهدين والذى الخ)

٤ - فان عرف بأل الجنسية أو العهدية؛ تكون الجنسية إما لاستغراق أفراد الجنس نحو (وخلق الانسان ضعيفا) ونحو (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما)

ونحو (ولا يفلح الساحر حيث أتى) إلى غير ذلك مما هى فيه بمعنى كل حقيقة ولذلك يستثنى منها بالا نحو (إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا) وتوصف بالجمع نحو (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) ، وإما لاستغراق خصائصه وهى التى بمعنى كل مجازا نحو (ذلك الكتاب) أى كل الكتاب فى استكمال خصائص جنسه فيه ، فان لم تخلفها كل لا حقيقة ولا مجازا فهى لحقيقة الجنس نحو (وجعلنا من الماء كل شىء حى) أى من جنسه وحقيقته .

وتكون العهدية لمعهود حضورى نحو (اليوم أكملت لكم دينكم)،(اليوم أحل لكم الطيبات) أو ذكرى نحو (كما ارسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول) ، (فيها مصباح المصباح) أو ذهنى نحو (إذ هما فى الغار) ، (إذ يبايعونك تحت الشجرة) ،ومن الذكر الضمنى أو الذهنى قوله تعالى (إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك مافى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) أى المعهود ذهنا أو المذكور ضمنا فى قولها(إنى نذرت لك مافى بطنى محرراً)لانه ماكان ينذر إلا الذكور أما أل فى الانثى فهى ذكرية صريحة .

٥ — وإن عرف بالاضافة يكون القصد تعظيم المضاف نحو (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان) أو تحقيره نحو (أولئك حزب الشيطان ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون) وقد يقصد بالأضافة التعميم نحو (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) أى كل أموره سبحانه

٦ — أما إذا قصد التعريف بالضمير فان ذلك يكون حيث المقام مقام تكلم أو خطاب أو غيبة نحو (انى انا الله) ، (هل أنتم مطلعون)،(هو الذى بعث فى الأميين

رسولا منهم) هذا إلى مافى استعمال الضمائر من الاختصار الشديد والارتباط المتين اللذين يفقدهما الكلام إذا أحللنا الظواهر فيه محل المضمرات وهذه آية تصورلك كيف يكون حالها لو فعلنا فيها ذلك قال تعالى (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن) . وهذه أمور فى الضمير نذكر

ا ــ لما كان ضمير الغيبة فى حاجة دون أخويه إلى مرجع يبينه فقد عنى القرآن الكريم بهذا المرجع عناية جعلته معينا معروفا،فهو إما مذكور صريحا مع تقدمه على الضمير ولو رتبة نحو (وعصى آدم ربه فغوى) ، (إذا أخرج يده لم يكد يراها) ، (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) أو ضمنا نحو (وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه)أى المقسوم أو التزاما نحو (فلولا إذا بلغت الحلقوم) ، (كلا إذا بلغت التراقى) فان الضمير للنفس أو الروح لزوما لكلمتى الحلقوم والتراقى وكذلك (كل من عليها فان) ،(ما ترك ، لا على ظهرها من دابة)للدنيا والارض

ب ــ والضمائر تعود فى القرآن على أقرب مذكور ولهذا أخر المفعول الاول فى قوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الأنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا).والاصل فيها اذا تعددت أن تتوافق فى مرجع جامع ولو صلح مرجع معه لبعضها ولذلك عاب بعض رجال البلاغة

كالزمخشرى إرجاع الضمير الثانى للتابوت مع أن الأول وضمائر أخرى بعد الثانى لموسى فى قوله تعالى (أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له) وحتموا أن يرجع معه إلى موسى محافظة على تمام نظم القرآن وإعجازه كما أرجعوها كلها لله فى قوله (ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزروه ويوقروه ويسبحوه) إلا إذا اقتضى المعنى تعدد الموضع نحو (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) أى فى أهل الكهف من اليهود

ج وكثيرا ما يعمد القرآن إلى المخالفه فى الضمائر إذا تعدد المرجع لسهولة التمييز كما فى قوله (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) فضمير منها وهو لاثنى عشر شهرا أتى به مفردا وضمير منهن وهو للأربعة أتى به جمعا وكلا الامرين جائز فى كليهما ولكن سنة القرآن إذا أعاد الضمير على جمع مالا يعقل إعادته مفردا إذا كان لأكثر من عشرة وجمعا إذا كان لأقل منها ولهذا سر لطيف هو مشاكلة التمييز فى الحالين

ء وللقرآن غير ذلك من محاسن استعمال الضمير أنه إذا كان مرجعه مفرد اللفظ جمع المعنى راعى حين التعدد اللفظ أولا والمعنى ثانيا لأن المعنى قوى يمكن الرجوع إليه بعد اللفظ بخلاف العكس ومن أمثلة ذلك قوله (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) ، (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) ، (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا)

هـ وللقرآن إكثار من استعمال ضميرين آخرين هما ضمير الفصل وضمير الشأن وسيأتى الكلام على أسرار استعمالهما فى القصر لأنه من أهم أغراضهما

هذا ومما يتعلق بالتعريف والتنكير على وجه عام تكرر الاسم الواحد نكرة أو معرفة وقد جرى فيه القرآن الالقرائن على سياق واحد هو أنه إذا أراد بالثانى الأول أعاده معرفة كما فى قوله (وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) ، «كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول» وإذا أراد غير الأول أتى به نكرة كما فى قوله (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا) ، (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) وقد اجتمع الامران فى قوله تعالى (فان مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) فالعسران واحد واليسران اثنان ولذلك قال ﷺ فى تأييد هذه الآية الكريمة (لن يغلب عسر يسرين)

٣ — الافراد والتذكير وفروعهما

قد كان لنا ألا نقول شيئا عن هذين الأمرين فيما تصدينا له هنا من أبحاث أو نقصر الكلام إذا قلنا على أنهما يأتيان مراعاة للمطابقات اللازمة بين المسند إليه والمسند ونحوهما ولكن لما كان فى هذه المطابقات ماهو جائز وكان للقرآن أسرار فى اختيار أحد الجائزين دون الآخر رأينا أن نذكر هنا بعض هذه الاسرار ، أولا عن الأفراد والتثنية والجمع ، وثانيا عن التذكير والتأنيث .

الافراد والتثنية والجمع — استعمل القرآن الريح مفردة ومجموعة ، وباستقصاء مواضع استعمالها فيه وجد أنه يخص حال الافراد بالشر وحال الجمع بالخير قال تعالى (إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) وقال (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) والسبب فى هذا أن رياح الرحمة تأتى متعددة المناحى والصفات والمنافع والهيئات فناسب جمعها ولكن ريح العذاب لا تأتى إلا لوجه واحد لا معارض له ولا دافع فناسب إفرادها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى

دعائه بالخير (اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا) وأما قوله تعالى فى سورة يونس (هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الارض بغير الحق) فقد جاء بافراد الريح فى الخير لتقابل نفسها فى مجيئها عقبه للشر والمقابلة يحسن فيها مالا يحسن فى غيرها ألا تراه سبحانه وتعالى يقول (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) على أنه يقال إنه حين أفردها فى موطن الخير وصفها بقوله طيبة كما يقال أيضا إن إفراد الريح مع السفن خاصة هو الرحمة بعينها لأنها إذا لم تهب عليها واحدة وجاءتها من كل مكان أغرقتها ولذلك جعل هذا تهديدا لأرباب السفن أكثر من تهديدهم بسكون الريح إذ فيه الايباق وليس فى السكون إلا الركود قال تعالى (ومن آياته الجوارى فى البحر كالاعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا) ، ولعله لهذا أو نحوه اختار الأفراد للنار وجهنم دائما لانهما عذاب وأكثر من جمع الجنة لأنها رحمة، والآيات الشاهدة على ذلك كثيرة قال تعالى « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير » وقال فى إفراد الجنة « وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون »

واستعمل القرآن الأرض مفردة فحسب فى حين استعمل السماء مجموعة ومفردة، فأما الأول فلثقل جمع الأرض وهو أرضون ولذلك لما اقتضى السياق منه الجمع أتى به من ناحيه ثانية فقال « سبع سموات ومن الأرض مثلهن » ولا يبعد أن تكون هناك حكمة ثانية لافراد الارض وجمع السماء هى أن الأرض عالم واحد

والسموات عوالم عدة ولذلك كان يأتى بهما هكذا حيث يريد السعة للدلالة على العظمة والقدرة كما فى قوله « تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن » وقوله « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » أما إذا أراد مطلق الجهة فانه كان يأتى بالسماء مفردة كالأرض كما فى قوله « وفى السماء رزقكم وما توعدون » وقوله « أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور » .هذا . وكما حاد عن جمع الأرض لثقل الجمع حاد كذلك عن بعض المفردات إلى الجمع لثقلها عنه كما فى الألباب حيث لم يستعمل مفردها وهو اللب لثقله خصوصا فى الوقف، ومثل الألباب فى ذلك، النهى جمع نهية

ومن دقائق القرآن فى هذا الباب اختياره إفراد السبيل مع الحق وجمعه مع الباطل لأن سبيل الحق واحدة وسبل الباطل متعددة قال تعالى « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ». ومن هذه الجهة بعينها مجىء النور مفردا للهدى والظلمات جمعا للضلال، وكلمة ولى بالافراد مضافة إلى المومنين وبالجمع مضافة إلى الكفار قال تعالى « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات »

ومنه أيضا إفراد السمع وجمع البصر كما فى قوله « وجعل لكم السمع والابصار » لأن متعلقات البصر، أوسع من متعلقات السمع هذا على ما بالسمع من غلبة المصدرية عليه بخلاف البصر، والمصدر يستعمل بلفظ واحد للمفرد وقسيميه

وكذا منه مجىء المشرق والمغرب مفردين للجهة كما فى قوله « ولله المشرق والمغرب » وجمعين لتعدد المشارق والمغارب بتعدد الأيام إذا قصد ذلك كما فى قوله « فلا أقسم برب المشارق والمغارب » ومثنيين تقصد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما كما فى قوله من سورة الرحمن « رب المشرقين ورب المغربين » هذا على أن تثنيتهما فى هذه السورة يقتضيها السياق تمام الاقتضاء فقد بدأت بنظام التثنية

فى أشياء عدة كالشمس والقمر للسراجين، والنجم والشجر لنوعى النبات، والسماء والارض والحب والريحان والانسان والجان ثم المشرقين والمغربين وبعدها استمر السياق على نظام التثنيه أيضا

ثم كان القرآن يراعى تناول الكلمات من حيث الكثرة والقلة فيجمع فى الاولى ويفرد فى الثانية ومن ذلك قوله « فمالنا من شافعين ولا صديق حميم » جمع الشافع لانه كثير وقد يوجد عن غير معرفة وأفرد الصديق لندرته . بل كان يراعى لطائف أدق فى اختيار صيغة جمع على أخرى كقوله البررة فى وصف الملائكة والابرار فى وصف المؤمنين لأن مفرد الاول وهو بار أكثر دلالة على معناه من البر مفرد الثانى لزيادة مبناه ومن ثم كان أشبه بالملائكة الذين لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون .

التذكير والتأنيث — لامجال للابانة عن شيء فى هذين إلا حيث لايجب أحدهما فمواطن الجواز هى المجال . ولما كان من مبيحات الجواز وجود فاصل بين الفعل والفاعل مثلا كان القرآن يتخير التأنيث على التذكير فى المؤنث الحقيقى نحو « فجاءته إحداهما » مالم يكن الفاعل جمعا فانه كان يفضل عدم التأنيث كما فى قوله « لايحل لك النساء من بعد » كما كان يفضله مع المؤنث المجازى نحو « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف » وكلما كثر الفصل ازداد عدم التأنيث حسنا كما فى قوله « وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » وأما قوله بعد هـذه الآية من السورة نفسها وهى سورة هـود « وأخذت الذين ظلموا الصيحة » فلأن تقدم ذكر الصيحة أشعر بأن الفعل كاد يسند إلى ضميرها والاسناد إلى الضمير يوجب التأنيث فاعاد الفعل مؤنثا وإن كان أظهر فاعله لأن الاظهار لم يقع إلا بعد هذا الأشعار ، وبعض العلماء يستدل من تتابع هاتين الآيتين بالتذكير فى الاولى والتأنيث فى الثانية على أن

التذكير أولى لأنه بدأ به . أما قوله تعالى « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » وقوله (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) فالسبب فى هذا التخالف أن من واقعة فى الآية الأولى على أمة وهى مؤنثة فأنث لها الفعل كأنه قال ومنهم أمة ضلت ، والضمير فى الآية الثانية جارعلى فريق وهو مذكر كأنه قال ، فريقا ضل ، على أن حروف الفاصل فى الآية الأولى أقل من حروفه فى الثانية وذلك يرجح التأنيث هناك والتذكير هنا هذا وقد كان القرآن أحيانا لا يجرى المبتدأ على خبره تذكيرا وتأنيثا إذا كان له مرجع قريب يخالفه كما فى قوله بعد عمل السد « قال هذا رحمة من ربى » أما إذا بعد المرجع فانه كان يراعى المطابقة كما فى قوله « فذانك برهانان من ربك » لأن المرجع وهو اليد والعصا بعيد

٤ — الذكر وعدم الذكر

يتعلق هذان أول مايتعلقان بطرفى الجملة من مسند اليه ومسند ، والمسند اليه المبتدأ أو الفاعل أو مايقوم مقامهما ، والمسند خبر المبتدأ أو الفعل أو مايقوم مقامهما والأصل فيهما الذكر مالم يقم دليل عليهما فاذا قام وجب الحذف أو جاز ولا علاقة لنا بحال الوجوب إذ المزايا لا تتبين فى ترجيح أحد الامرين على الآخر إلا فى حال الجواز وللقرآن الكريم فى ذلك مزايا كثيره.

منها فى المسند اليه المذكور التعظيم كما فى قوله تعالى « هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى » . وزيادة الايضاح والتقرير كقوله (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون) . وبسط الكلام تلذذا كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام وقد سأله سبحانه (وماتلك

بيمينك يا موسى قال هى عصاى) ولذلك أعقب هذا بقوله (أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى) زيادة فى البسط ورغبة فى تكرار السؤال مما لم تقتضه الاجابة عن السؤال الأول . والتنبيه على مكانة المسند اليه وفضله كقوله (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم). وزيادة التأكيد لغرابة الاسناد كقوله تعالى (وأخرجت الارض أثقالها) بعد قوله « إذا زلزلت الارض زلزالها » وأنه الاصل كقوله « والله خلق كل دابة من ماء » وقوله « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض » إلى غير ذلك

ومنها فى المسند المذكور زيادة البيان كقوله « الله لا إله الا هو الحى القيوم » . واظهار التشفى والانتقام كقوله « ولهم عذاب أليم بما كانوا يكفرون » بعد قوله (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) . وأنه الاصل كقواه تعالى (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال) وقوله (الله نور السموات والارض) وغير هذا

ومنها فى المسند اليه غير المذكور الرغبة فى الايجاز اتكالا على القرينة المذكورة كقوله تعالى (هدى للمتقين) بعد قوله (ذلك الكتاب لا ريب فيه) على أن هدى خبر لمبتدأ محذوف أى هو هدى لا مبتدأ مؤخر لكلمة فيه والجملة تكون خبرا للا . ومن ذلك أيضا قوله تعالى (مالك يوم الدين) على قراءة الرفع فى مالك أى هو مالك يوم الدين ، أو اتكالا على القرينة المفهومة كقوله تعالى (ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين) فان فاعل بدا محذوف تقديره أمر أو رأى مثلا ، ونحو ذلك

ومنها فى المسند غير المذكور وقوعه جوابا كقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) أى خلقهن الله ومثله (ولئن سألتهم

من نزل من السماء ماء فأحيا به الارض بعد موتها ليقولن الله) أى نزله الله وهو كثير . وكثرة الاستعمال كقوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم) دون ذكر المتعلق مع بقاء الحرف . ووقوعه شرطا لأداة مذكورة كقوله تعالى (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذن لامسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا) وهذا كثير . ومما يحتمل حذف أحد الطرفين دون تعيين قوله تعالى (وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) اذ التقدير يحتمل فأمرى صبر جميل ويحتمل فصبر جميل أجمل ، وتقدير حذف المسند أولى لانه أكثر جريانا فى كلام العرب

وكما تعرض هذه الامور لطرفى الجملة تعرض كذلك لمتعلقاتها ،فهى تذكر لاغراض من أجلها يؤتى بها وتحذف لاغراض ثانية حيث يقوم الدليل على تقديرها . فمثلا المفعول به يذكر لتأكيد تعدى الحدث اليه كقوله تعالى « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه »ويحذف للقرينة اللفظية التى تجعله فى حكم المذكور كقوله تعالى «فلو شاء لهداكم أجمعين » أى فلوشاء هدايتكم أو غير اللفظية كما قوله ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ كما يحذف للتعميم نحو ﴿ والله يدعو الى دار السلام ﴾ أى كل أحد وللهيبة وقيل للايجاز كقوله « أرنى أنظر اليك » أى ذاتك . ولتحقيق الفاصلة كقوله « ماودعك ربك وماقلا » أى ماقلاك . وقد ينتفى الغرض الاسامى من المجىء به حيث لا يراد تعدى الحدث اليه فلا تكون هناك فائدة فى ذكره كقوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » اذ المعنى لا يستوى العلماء والجهلاء دون تعرض لمايعلم وما لايعلم ومثل هذا قوله تعالى أيضا « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » لانه يقصد من اتصف بالاعطاء والتصديق فحسب.

وكذلك الحال فى سائر المتعلقات بالقرآن الكريم ذكرا وحذفا

٥ — التقديم والتأخير

إذا نظرنا إلى التقديم والتأخير فى القرآن الكريم فانالانقف عند المسند اليه والمسند بل نتجاوزهما إلى غيرهما من سائر ما يدخل فى بنية الكلام لأنه جاء فيه أوسع مدى وأعم أسبابا

فمن هذه الاسباب السبق وهو إما زمنى حقيقى كتقديم الليل على النهار والظلمات على النور والسنة على النوم والملائكة على الناس وعاد على ثمود ، وآدم على نوح ونوح على ابراهيم وابراهيم على موسى وموسى على عيسى ، وداود على سليمان وغيرها فيما وردت فيه من آيات . أو غير حقيقى ولكن باعتبار الانزال كقوله (وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان) وقوله (صحف ابراهيم وموسى) أوباعتبار التكليف نحو(اركعوا واسجدوا) ، (فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الخ) ، (ان الصفا والمروة من شعائر الله)ولذلك قال ﷺ (نبدأ بما بدأ الله به) وإما ذاتى كقوله(مايكون من نجوى ثلاثةإلا هو رابعهمولاخمسة إلا هو سادسهم) وقوله (مثنىوثلاث ورباع) وأما قوله (أن تقوموا لله مثنى وفرادى) فقد جاء على خلافالظاهر لان الآية مسوقة للحث على الجماعة والاجتماع على الخير

ومنها السببية ولاجلها يرد الحكيم من الحكم بعد العزيز لأن السلطان نتيجة العزة ومن الحكمة بعد العليم لان الاتقان نتيجة العلم وإنما قدم بهذا المعنى على العليم فى قوله تعالى «سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم » فى سورة الانعام على خلاف الظاهر لأن الآيات كانت لتشريع الاحكام وجاء فى آيات أخر من نفس السورة وان لم يكن فيها تشريع للمشاكلة كقوله تعالى(نرفع

درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم) ومن أجل السببية أيضا قدمت العبادة على الاستعانة فى الفاتحة والتوبة على الطهارة فى قوله (إن الله يحب التوابين منكم ويحب المتطهرين) وغض البصر على حفظ الفروج فى آية النور ، والافك على الاثم فى قوله (لكل أفاك أثيم وعلى هذا القياس سيقت الآية (ولا تطع كل حلاف مهين همار مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم)

ومنها الكثرة ولهذا قدم السارق على السارقة لأن السرقة فى الذكور أكثر والزانية على الزانى لأن الزنا فى النساء أكثر والظالم على المقتصد والمقتصد على السابق فى الآية الماضية بمهدات الفصاحة والكافر على المؤمن فى قوله (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) والازواج على الأولاد فى قوله (إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) لأن العداوة فى الازواج أكثر منها فى الاولاد ، والأموال على الاولاد من حيث الفتنة فى قوله (انما أموالكم وأولادكم فتنة) إذ الفتنة لاتكادتفارق الغنى كما قال (ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى) وكذلك قدمها فى الزينة عليهم فى قوله (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ولكنه فى الشهوة قدم النساء والبنين عليها فى قوله (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث) وعلى هذا جرت آيات كثيرة نحو (وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا) ، (عالم الغيب والشهادة) ، (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) أما قوله (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) فعلى خلاف الظاهر لأن الحديث مسوق قبلها لأهل الارض حيث يقول (وما تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه) وإن لنا لهذا السبب

أن نطمئن إلى رحمة الله من غير غرور لأنه سبحانه يقدمها دائما على العذاب في قرآنه تأييدا لقوله القدسي (إن رحمتي غلبت غضبي)

ومنها شرف المقدم لعلو رتبته عما بعده ولذلك قدم الذكر على الانثى والحر على العبد والحي على الميت والسمع على البصر والمهاجرون على الأنصار فيما وردت فيه، والانعام وهي الابل على الخيل والخيل على البغال والبغال على الحمير في قوله (والانعام خلقها الخ) ورسول الله ﷺ على نوح ومن معه في قوله « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح » الخ واسماعيل على اسحاق لان رسول الله من نسله وموسى على هرون إلا في سورة طه للفاصلة وجبريل على ميكائيل والأنس على الجن ، غير أنه أحيانا يقدم الجن لسبب كما في قوله « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » إذ المقام طلب الثقلين للعبادة والمعصية في الجن أكثر وكما في قوله « يامعشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا » لأن المطلوب إظهار عجزهما والقدرة في الجن أكثر وكذلك الحال في تقديم المؤمنين على الكافرين إذا لم يرد الكثرة كما تقدم وأصحاب اليمين على أصحاب الشمال والسماء على الأرض والغيب على الشهادة والعقلاء على غيرهم، وأما تقديم الانعام على الناس في قوله (تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) فلأن الكلام كان في النبات وقد جاء به على الاصل في قوله (متاعا لكم ولانعامكم) لان الكلام قبله في الانسان حيث يقول (فلينظر الانسان إلى طعامه الخ) . ولهذا الشرف والعلو في الرتبة قدم اسم الله سبحانه في كثير من الآيات نحو (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم) ، (واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول الخ) ، (إن الله وملائكته يصلون على النبي) ، (والله ورسوله أحق أن يرضوه) ، (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر

منكم) وهذا فضلا عما يكون من التبرك به فى أمثال هذه الامور ذات الشأن.

ومنها المناسبة وهى إما فى اللفظ ذاته حيث يشعر بالسبق كقوله (هو الأول والآخر) ، (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) ، (لله الامر من قبل ومن بعد) وإذا خالف فلسبب لا يكون أقل من مراعاة الفاصلة كقوله (جمعناكم والأولين) . وإما فى شيء سابق يناسبه المقدم كقوله تعالى عن الانعام (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) لان الجمال فى الرواح أظهر منه فى السراح إذ تكون آخر النهار بطانا وأوله خماصا وقوله (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) لأن السرف فى الانفاق، وقوله (يريكم البرق خوفا وطمعا) لأن علامة الخوف وهى الصواعق تظهر قبل علامة الطمع وهو الغيث وقوله (وكلا آتينا حكما وعلما) لسبقه بقوله (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث) ولولا ذلك لقدم العلم لانه سابق للحكم وقوله (وجعلناها وابنها آية للعالمين) لأن الكلام السابق لها حيث يقول (والتى أحصنت فرجها) ولذلك عكس فى قوله (وجعلنا ابن مريم وأمه آية حيث كان الكلام لموسى لا لها

ومنها أشياء أخر كثيرة كالحث على المقدم والحض عليه حذرا من التهاون فيه إذ ليس له رتبة المؤخر كقوله تعالى (من بعد وصية يوصى بها أو دين) وككونه أدل على القدرة كقوله (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع) وقوله (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) وكالترقى من الادنى الى الاعلى نحو (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) لان الغرض من الغاية هنا أن تكون تصاعدية وهذا هو الطبيعى وبهذه الآية فضل السمع على البصر، وكعكسه فى موضعه أيضا نحو

(لا تأخذه سنة ولا نوم) لانه أراد هنا الترتيب الوجودى وان كانت المبالغة تقتضى العكس الى غير ذلك مما لا يدع متقدما فى القرآن ليس له سبب اقتضى هذا التقديم ولو كان على خلاف الظاهر . ولا يفوتنا التنبيه هنا على أن من أهم أسباب التقديم الاختصاص كما سيأتى فى البحث التالى

٦ — الاطلاق والقصر

جرى القرآن الكريم على الاطلاق وهو الاصل فى الكلام غير عادل عنه الى القصر إلا لحال تقتضى الاختصاص والحصر وهو على سعته لم يقع فيه قصر موصوف على صفة على سبيل الحقيقة حقا لان محاولة ذلك ضرب من العبث إذ يستحيل أن يكون لشىء ما صفة واحدة يحبس عليها ولكنه جاء حقيقيا على سبيل الادعاء اعتدادا بصفة يغضى عما سواها كما فى قوله « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » وانما حسن الادعاء هنا لأن المخاطبين كانوا يستبعدون موته صلى الله عليه وسلم فناسب لذلك أن يقصره على الرسالة على معنى أنه لا يتعداها الى صفة الخلود التى هى من شأن الله وحده ايذانا لهم بأن من استبعد موت محمد استبعد رسالته لان نفى الموت ينفى البشرية ونفى البشرية لا يبقى من الرسالة شيئا ولذلك أتى سبحانه عقب هذا الحصر بما يشعر بالغرض منه اذ قال « أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » وقد اختار لهذا القصر أقوى أدواته وهى النفى والاستثناء

أما قصر الصفة على الموصوف الحقيقى حقا فكثير فى القرآن نحو « وما من آله الا الله » تقال للموحد أما اذا قيلت لغيره من الشاك والوثنى والمشرك فان القصر فيها يكون اضافيا تعيينا للشاك وقلبيا للوثنى وإفراديا للمشرك وهذا هو المراد لان غالبية العرب كانت تشرك الاصنام مع الله ، وقد أوقع القصر هنا بالنفى والاستثناء أيضا لأن الكلام فى الوحدانية التى كانت اذا وقعت

فى كلام على غير طريق القصر الاصطلاحى عوض عنه بصيغ أخرى كقوله « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » وقوله « فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص » . وكذلك كثر فيه هذا القصر على سبيل الادعاء ومنه قوله « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أودما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم » وانما جاءت هذه الآية على هذا السياق وان لم يك القصر فيها حقا لانهم كانوا يحلون هذه الاشياء من المحرمات فناسب أن يقصر التحريم فيها على مايحلون مضادة وعنادا ومبالغة فى الدحض والازهاق كأنه قال لاحرام الا ما أحللتموه ثم هو لتقويته أوقعه عن طريق النفى والاستثناء أيضا ومن هذا النوع قوله سبحانه على لسان عيسى « ماقلت لهم الا ما أمرتنى به » ولذلك قال بعده « أن اعبدوا الله ربى وربكم » وهو بالنفى والاستثناء كذلك .

وكان القرآن يجرى القصر ايضا بانما مكسورة الهمزة ومفتوحتها وقد اجتمعتا فى قوله « قل إنما يوحى الى أنما الهكم آله واحد » أى لايوحى إلى إلا ماهو مقصور على استئثار الله بالوحدانية ولكن مجيء المكسورة هو الكثير ويغلب عليها فى القرآن أن تكون بمثابة الجواب عن سؤال يقتضيه السياق قبلها صريحا أوضمنا وهذا منحى له عجيب . فمن الصريح ويكثر سبقها حينئذ بمادة القول الآية « قل انما علمها عند ربى) ، (قل انما العلم عندالله) ، (قال انما يأتيكم به الله) ومن الضمنى قوله (انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق) بعد قوله (ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ماعليهم من سبيل) ومثله (انما الصدقات للفقراء الخ) بعد قوله (ومنهم من يلمزك فى الصدقات الخ) ، (إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم

أغنياء) بعد الآيات السابقة وفيها (ماعلى المحسنين من سبيل) وكذا قوله (واذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل انما أتبع مايوحى إلى من ربى وان تولو فانما عليك البلاغ) . وكثيرا ما كان يستعمل القرآن انما فى الحصر التعريضى كقوله (انما يتذكر أولو الالباب)

هـذا ولم يقف القرآن فى طرق حصره عند ما تقدم وانما جاوزه إلى ناحيتين من الاختصاص تصرف فيهما تصرفا بديعا هاتان هما التقديم وضمير الفصل .

فأما التقديم فقد جاء به فى أشياء كثيرة منها المفعول نحو « إياك نعبد وإياك نستعين » ، « بل الله فأعبد وكن من الشاكرين » والخبر نحو « أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم » ، « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » ، « واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا » ثم الجار والمجرور وهو كثير فيه جدا نحو « لالى الله تحشرون » ، (ألا إلى الله تصير الامور) ، (ان الينا إيابهم ثم ان علينا حسابهم) ، (له الملك وله الحمد) . وقد يضم إلى الاختصاص فى التقديم تحقيق الفاصلة نحو (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة) ، (والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق) ، (إلى ربك يومئذ المستقر ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر) ، (وإلينا يرجعون) ، (عليه توكلت وإليه أنيب) ، (لافيها غول ولاهم عنها ينزفون) وهذا المثال الاخير فى النفى ، ولهذه المناسبة نقول إذا لم يحصل تقديم فى النفى لا يكون عدم الاختصاص مسكوتا عنه كما فى الاثبات بل يكون مقصودا لذاته نحو (لاريب فيه) أى ولا فى غيره وإلا كان الكلام طعنا فى الكتب قبله . وقد يكون التقديم للاختصاص مجاراة لا على سبيل الحقيقة كما فى قوله (وبالآخرة هم يوقنون) أي وبغيرها ولكن خصت هذه

لأنهم ينكرونها فهو تعريض كما يكون على سبيل المشاكلة لاختصاص، وجود معه كما فى قوله (أغير الله تدعون ان كنتم صادقين بل إياه تدعون) فالاختصاص فى الثانية دون الاولى

وليست قوة الحصر فى التقديم كقوته فى النفى والاستثناء ولا فى انما ولذلك خص باسم الاختصاص دون القصر لأنه قد يرد لغير الحصر كمراعاة الفاصلة فى قوله (فاوجس فى نفسه خيفة موسى) وقوله (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه) أو مراعاة التجانس فى بدء الجمل كقوله (والقمر قدرناه منازل) بعد قوله (وآية لهم الليل) وبعد قوله (والشمس تجرى) ومن الآيات التى جمعت بين الاختصاص وعدمه غير ما تقدم قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)

وأما ضمير الفصل فهو ضمير حرفى لا محل له من الاعراب يأتى بصيغة المرفوع مطابقا لما قبله بعد المبتدأ إشعارا بالخبر للتأكيد وقد تجاوز التأكيد إلى الاختصاص وإن شئت فقل إلى الحصر بدليل قوله تعالى (فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم) لأنه لو لم يك هنا الحصر لكان الله غير رقيب عليهم قبل توفيه عيسى وبدليل (لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) لأن عدم الاستواء لا يتأتى إلا بالحصر . وقد تقدم أنه يتصدر الأشياء التى تدعى الشركة فيها مع الله سبحانه ولا يؤتى به حيث لا تدعى هذه الشركة كقوله (وأنه هو أضحك وأبكى) مع قوله (وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى) ومن أمثلته غير تلك وهى كثيرة جدا فى القرآن قوله (فالله هو الولى)، ، (وأولئك هم المفلحون) ، (وإنا لنحن الصادقون) ، (إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى الخ) ،(وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا)

وعلى ذكر ضمير الفصل وإيفاء بوعد سابق فى الضمائر نقول إنه قد استعمل

القرآن ضميرا آخر هو ضمير الشأن أو القصة ويسمى ضمير المجهول لأنه لا مرجع له وهو اسم وفائدته الدلالة على تعظيم المخبر به عنه وتفخيمه عن طريق الابهام ثم الايضاح وأمثلته كثيرة كقوله (قل هو الله أحد) ، (فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) ، (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ، (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) .

٧ — الفصل والوصل

إذا كانوا يقولون إن من خير مسابير البلاغة الفصل والوصل لانهما من أشد المداحض أمام البلغاء فلنعلم أن القرآن الكريم له من الدقة فيهما ما ألقت اليه البلاغة بالقياد ووقف أمامه البلغاء خاشعين وإنه ليمكن أن نرجع ما ندلى به هنا إلى أمرين ، خاص تعارف الناس عليه فى أسباب الفصل والوصل وهو ما كان بالواو بين بعض الجمل وبعض ، وعام وهو ماجاوز هذا

فالخاص منشؤه فى الوصل تغاير الجملتين مع وجود المناسبة وفى الفصل عدم التغاير وعلى هذين جرى التنزيل . فمن الوصل قوله تعالى (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الارض كيف سطحت) والمناسبة فيه بارزة لان هذه الاشياء منتزعة من ميدان العربى المخاطب بالكلام فى باديته ثم تزيد على المناسبة الدقة فى معانى الافعال المسندة وفى ترتيب الجمل حيث بدئت بالابل وعليها حياة البدوى وبعدها السماء مبعث الغيث وحياة الانعام وختمت بالارض لان اليها المآب وبذلك وقعت الجبال بين السماء والارض وما أجمله موقعا . ومنه (إذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت) الى آخر ماذكر فى بدء هذه السورة ، ونحوه من

المبادىء فى السور الاخرى كثير . وكذلك (يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا) ، (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) ، (يخادعون الله وهو خادعهم) ، (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) الى غير ذلك مما هو بالقرآن شائع كثير . هذا وقد يقتضى الظاهر فى بعض الآيات الفصل لعدم ظهور المناسبة ولكن خلاف الظاهر يقتضى الوصل لوجودها مثل (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) فالمناسبة هنا راجعة الى عادة العرب فى أنهم كانوا اذا احرموا للحج لايدخلون البيوت الا من نقب فى المدر ومن خلف الخيمة فى الوبر ، أو إلى أن الآية تمثيل فى تصديهم بالسؤال عما لايفيدهم وهو الأهلة تاركين مايفيدهم وهو منافعها

ومن الفصل ومنشؤه كما تقدم عدم التغاير ، قوله تعالى (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) ، (قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون) ، (كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا) ، (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة) ونحو هذه الآيات مما تقع فيه الجملة الثانية بمثابة التأكيد للاولى . وقوله (بل قالوا مثل ماقال الأولون قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) ، (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون) ، (قال ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لايسألكم أجرا وهم مهتدون) ونحوها مما نزلت فيه الثانية من الاولى منزلة البدل . وقوله (فوسوس اليه الشيطان قال ياآدم) ، (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا) ونحوه مما فيه الثانية بمثابة البيان من الاولى .

وقوله (قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الاولين قال ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أو لو جئتك بشىء مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين) ونحوه مما تكون فيه الثانية جوابا لسؤال صريح فى الاولى أومفهوم منها. وقوله (قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم) ونحوه مما يروع فيه عدم العطف توهما فى الثانية لا يرتفع مع وجوده وهو هنا توهم كونها من مقولهم وهذا من المواطن التى يقتضى ظاهرها الوصل ولكن عدم الظاهر يدعو الى الفصل وقد جعلته نهاية شواهد الفصل كما جعلت نظيره المعاكس نهاية شواهد الوصل فيما تقدم

أما الامر العام فذو فروع كثيرة . منها استعمال باقى الحروف العاطفة ولا سيما الفاء وثم ومعها الواو فى المفردات والجمل استعمالا متناهيا فى الدقة بين معانى الكلمات ومعانى هذه الحروف قال تعالى « قتل الانسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره » وقال (الذى خلقنى فهو يهدين)إلى قوله ثم يحيين وقد تقدمت وقال (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) الى قوله(فتبارك الله أحسن الخالقين) وقد تقدمت أيضا فتأمل مطابقة المعانى بين الحروف والكلمات . ومنها أن صفاته سبحانه وتعالى اذا تتابعت غير متضادة المعانى جاءت بغير عطف كقوله تعالى فى آخر الحشر (هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم الخ) واذا كانت متضادة أتت بغير عطف كقوله فى أوائل الحديد (هو الاول والآخر والظاهر والباطن)

وكذلك الحال فى صفات غيره نحو (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله) ، (مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا) فقد اجتمع فى كلتا الآيتين الامران . ومنها أن لفظ قال اذا ورد مجردا من العاطف كان المراد اعتباره جوابا لسؤال يعرض عقب استماع ماقبله نحو (فأوجس فى نفسه خيفة موسى قالنا لاتخف) ، (فقربه اليهم قال ألا تأكلون) ، (فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم) ولكنه اذا ورد متصلا بعاطف كان الغرض ضم مابعده الى ماقبله بعيدا عن تقدير سؤال نحو (هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام) ففى هذه الآية شاهد للحالين ، ومثلها فى الجمع بينهما ولكنها أكثر وأطول ، الآيات السابقة فى المحاورة بين موسى وفرعون . ومنها عدم وقوع التعاطف الضعيف فى القرآن الا على بعض القراءات مع ثبوت القراءة القوية أو التخريج المانع له هذا على أنه قليل نادر وذلك كالعطف على الضمير المجرور من غير اعادة الجار وشاهده (واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام) ، (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام) بعطف الارحام على الضمير فى به وكذا المسجد على ضمير به ولكن الفصيح عطف الاول بالنصب على لفظ الجلاله وعطف الثانى على سبيل . وكالعطف على معمولى عاملين مثل (إن فى السموات والارض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات) على قراءة آيات بالنصب ولكن الفصيح قراءتها بالرفع على الابتداء وكذلك كلمة آيات فى الاية بعدها أيضا . وكالعطف مع الاختلاف فى الاسمية والفعلية نحو (مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق) ولكن الصحيح هنا عدم العطف وجعل الثانية حالية حتى تكون قيدا لتحريم مالم يذكر اسم الله عليه طبقا لقوله فى آية أخرى (أو فسقا

أهل لغير الله به) وكالعطف مع الاختلاف فى الخبرية والانشائية ومنه فى الظاهر (أعدت للـكافرين وبشر الذين آمنوا) ولـكن هذا ليس من عطف الجمل الجزئية بل هو خروج من جملة كلام فى الـكافرين إلى جملة أخرى فى المؤمنين .

هذا وقد ورد فى القرآن بعض آيات يفيد ظاهرها أن المعطوف ليس له فيها معطوف عليه يأخذ حكمه ولـكن التأويل يحقق المعطوف عليه المطلوب مثل (إنه من يتقى ويصبر) برفع الأول وجزم الثانى وتخريجه أن من الموصولة فى معنى الشرطية ولذلك تأخذ الفاء فى خبرها فالثانى معطوف على الأول كأنه معطوف على شرط مجزوم ومثل (لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن) بجزم أكن إذ المعنى أخرنى أصدق وأكن

٨ — الايجاز والاطناب والمساواه

إن التعبير عن المراد لايخلو أن يكون بلفظ مساو لأصل هذا المراد أو ناقص عنه واف بالمعنى أو زائد عليه لفائدة ، فالأول المساواة والثانى الايجاز والثالث الاطناب. والبلاغة كل البلاغة فى الايجاز والاطناب إذ فى الأول التعرض للاخلال وفى الثانى التعرض للحشو والتطويل ولذلك قيل إن البلاغة هى الايجاز والأطناب وسنتـكلم عنهما وبعدهما نقول كلمة موجزة عن المساواه

١ — الايجاز

تقدم تعريفه وهو نوعان لأنه إن كان بعضا من كلام أطول منه فهو ايجاز حذف وان لم يك بعضا بل جاء كلاما يعطى معنى أطول منه فهو ايجاز قصر، وكلاهما فى القرآن الـكريم دون سائر الـكلام مختلف الالوان زخار الامثلة . فايجاز الحذف جاء فى الاسماء والافعال والحروف كلمة وأكثر من كلمه.

فمنه فى الاسماء حذف المضاف نحو (ولـكن البر من اتقى) أى ذا البر أو بر من اتقى ، (الحج أشهر معلومات) أى أشهر الحج أوحج أشهر ، وفيه أكثر من ألف مثل فى القرآن وقدأفرد فيه بتا ليف خاصة لكثرته ولأنه إذا قدر كانحقيقة وإذالم يقدر كانمجازا ولاحذف . وحذف المضاف إليه ويكثر فى ياء المتكلم نحو (رب اغفرلى) وفى الغايات نحو (لله الامر من قبل ومن بعد) ومع كل وبعض مثل (وكلا آتينا حكما وعلما) ، (فضلنا بعضهم على بعض). وحذف المبتدأ فى جواب الاستفهام نحو (وما أدراك ماهية نار حامية) وبعد فاء الجواب نحو (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) وبعد القول نحو (وقالوا أساطير الأولين) وغير ذلك نحو (لم يلبثوا إلاساعة من نهار بلاغ). وحذف الخبر نحو (أكلها دائم وظلها) . وحذف الموصوف مثل (وعندهم قاصرات الطرف عين).والصفة نحو (يأخذ كل سفينة غصبا) اى صحيحة بدليل (أعيبها).والمعطوف عليه مثل (أن اضرب بعصاك البحر فانفلق)أى فضرب فانفلق.والمعطوف مع العاطف مثل (لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) أى ومن أنفق بعده والبدل مثل (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) أي تصفه.والحال القولية مثل (يدخلون عليهم من كل باب سلام) أى قائلين سلام.والمنادى نحو « ياليت قومى يعلمون ».والعائد نحو « أهذا الذى بعث الله رسولا » ، « واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا». ومخصوص نعم مثل « إنا وجدناه صابرا نعم العبد ».والموصول نحو « بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم » أى والذى أنزل اليكم لأنه غيره ولذلك أعيد فى قوله « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى ابراهيم » . ثم المفعول به وهو كثير جدا إذ يكون للبيان بعد الابهام فى فعل المشيئة الشرطى نحو « فلو شاء لهداكم »

وللتعميم نحو « والله يدعو إلى دار السلام » ولعدم تعلق الفعل به نحو (كلوا واشربوا) وللهيبة نحو (أرنى أنظر اليك) أى ذاتك ولغير ذلك نحو (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) أى عاقبة أمركم

ومنه فى الافعال ما جاء فى الفعل المفسر بنفسه نحو « وان أحد من المشركين استجارك » والواقع فى جواب الاستفهام نحو « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا » وحين التحذير أو الاغراء نحو « ناقة الله وسقياها » أى احذروها والزموا سقياها وإذا كان قولا نحو « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا » أى يقولان وغير ذلك مثل (انتهوا خيراً لكم) أى واتقوا خيراً لكم

ومنه فى الحروف ما يكون بحذف الجار ويطرد مع أنْ وأنّ نحو (يمنون عليك أن أسلموا)، (أيعدكم أنكم) ويقل مع غيرهما نحو (ولا تعزموا عقدة النكاح) أى عليها كما يقل فى الموصول الحرفى نحو (ومن آياته يريكم البرق) أى أن يريكم وفى العاطف نحو (وجوه يومئذ ناعمة) أى ووجوه بالعطف على «وجوه يومئذ خاشعة» قبلها وفى فاء الجواب نحو (إن ترك خيرا الوصية) أى فالوصية وهو كثير فى ياء النداء نحو « يوسف أعرض عن هذا » وفى لا النافية مع المضارع الواقع جوابا لقسم نحو « تالله تفتؤ تذكر يوسف » وفى قد مع الماضى الواقع حالا نحو (أنؤمن لك واتبعك الارذلون)

ومنه فى أكثر من كلمة مما ليس جملة حذف المتضايفين نحو (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أى من أثر حافر فرس الرسول ومفعولى باب ظن نحو « أين شركائى الذين كنتم تزعمون » وأداة الشرط وفعلها نحو « فاتبعونى يحببكم الله » أى إن تتبعونى، ومما هو جملة حذف الجواب نحو (وإذا قيل لهم اتقوا) إلى آخر الآية أى أعرضوا، ويكثر هذا حين قصد الابهام لتذهب النفس

فى تصور الجواب كل مذهب كقوله تعالى فى أهل الجنة (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) وفى أهل النار « ولو ترى إذ وقفوا على النار)،وقد يكون فى جمل لاجملة كقوله تعالى (فارسلون يوسف أيهاالصديق) إذالتقدير فارسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا فأرسلوه فأتاه فقال له يايوسف

وكل هذه الانواع من الحذف تسمى اختزالا.ثم يسمى الحذف اقتطاعا اذا وقع فى بعض حروف الكلمة تخفيفا اعتمادا على الشهرة وكثرة الدوران كحذف نون تكن فى قوله «ولم تك شيئا » وهمزة أنا فى قوله « لكناهو الله ربى ».وهناك نوعان آخران من الحذف البديع جاءا فى القرآن الكريم هما الاكتفاء والاحتباك فالاول أن يكتفى بذكر أحد المتلازمين عن الآخر مثل « سرابيل تقيكم الحر » أىوالبرد وآثر الحر بالذكر لأنه أنسب لبلاد العرب فضلا على تقدم مايتعلق بالبرد دونه فى قوله « والانعام خلقها لكم فيهادفء » ومنه (بيدك الخير) أى والشر ، « والذين يؤمنون بالغيب »أىوالشهادة، « رب المشارق » أى والمغارب ، « إن امرؤ هلك ليس له ولد » أىولا والد بدليل أن للاخت النصف ولايكون لها إلا مع فقد الاب وكل مذكورله فضل على المتروك . والثانى وهو الاحتباك أن يكون فى أصل الكلام متقابلان فيحذف من كليهما مقابل اعتمادا على نظيره كقوله تعالى « وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » إذ المعنى وأدخل يدك فى جيبك غير بيضاء وأخرجها تخرج بيضاء من غير سوء ومثله (قل ان افتريته فعلىّ إجرامى وأنا برىء مما تجرمون) فالمحذوف وأنتم برءاء وعليكم إجرامكم وكذا (ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) أى ان شاءفلا يتوب عليهم أويتوب عليهم فلا يعذبهم ، « فلا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن » أى حتى يطهرن من الدم فاذا تطهرن بالماء ، « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا » أى

عملا صالحا بسيء وآخر سيئا بصالح ، « فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة »
أى فئة مؤمنة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة تقاتل فى سبيل الطاغوت
وهو على دقته كثير جدا فى القرآن

أما إيجاز القصر وهو أصعب محاولة من ايجاز الحذف فقد أفاض فيه القرآن الكريم حتى جاء السلك الناظم لجوامع الكلم والحكم والامثال كقوله تعالى (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين) ، (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف) ، (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) ، (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ، (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) ، (أخرج منها ماءها ومرعاها) ، (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) ، (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) ، (يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) ، (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت علية فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) ، (وفيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون)، (ومن يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) ، (فمن يعمل مثال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره).
وقد أفردت بعض آيات الكتاب الموجزة بالتأليف كسورة الاخلاص التى نزهت الله سبحانه وتعالى أتم تنزيه وكقوله (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين) لما تضمنت من قصص طويل وكذا قوله(ولكم فى القصاص حياة) فى بيان معنى أن القصاص حياة وموازنته بابلغ وأوجز ماقالت العرب فى هذا المعنى وهو (القتل أنفى للقتل) موازنة خرجت بها الآية متميزة بأنها أقل

حروفا وأنص على المطلوب وأكثر اطرادا وخالية من التكرار ومن الحذف ومن لفظ القتل ومما ظاهره التناقض ثم هى مبنية على الاثبات وحروفها أكثر خفة وأظهر ملاءمة إلى غير ذلك من ميزات جاوزت العشرين

وعلى ذكر إيجاز القرآن نرى أن ندلى هنا بكلمة عن أمثاله وقد أكثر الله من ضربها فيه لأن لها كما قال الأصبهانى (شأنا ليس بالخفى فى إبراز خفيات الدقائق ورفع الاستار عن الحقائق تريك المتخيل فى صورة المتحقق والمتوهم فى معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد وفيها تبكيت للخصم الشديد الخصومة وقمع لضرره الجامح الابى فهى تؤثر فى القلوب مالا يؤثر وصف الشىء فى نفسه). وهى فيه نوعان نوع مصرح به هو التمثيل وقد تقدم منه شطر صالح فى التشبيه وليس له مدخل عام فى الايجاز ونوع كامن هو محل الشاهد فى هذا الباب واليك منه شطرا

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . ليس لها من دون الله كاشفه . الآن حصحص الحق . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . ذلك بما قدمت يداك . قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . أليس الصبح بقريب. وحيل بينهم وبين مايشتهون لكل نبأ مستقر . ولا يحيق المكر السيىء الا باهله. قل كل يعمل على شاكلته . وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . كل نفس بما كسبت رهينه . ما على الرسول إلا البلاغ . ماعلى المحسنين من سبيل . هل جزاء الاحسان إلا الاحسان كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة . الآن وقد عصيت قبل . تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى . ولاينبئك مثل خبير . كل حزب بما لديهم فرحون . ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم . وقليل من عبادى الشكور. لايكلف الله نفسا إلا وسعها . لايستوى الخبيث والطيب. ظهر الفساد فى البر والبحر . ضعف الطالب والمطلوب. لمثل هذا فليعمل العاملون . وقليل ماهم . فاعتبروا ياأولي الأبصار .

وقلما يوجد مثل عربي فى معنى نبيل إلا وفى القرآن له نظير يفضله ويعلو عليه

حدث مضارب بن ابراهيم قال سألت الحسن بن الفضل فقلت إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن فهل تجد فيه . خير الامور أوساطها. قال نعم فى أربعة مواضع قوله تعالى (لافارض ولا بكر عوان بين ذلك) وقوله (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) وقوله (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) وقوله (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) قلت فهل تجد . من جهل شيئا عاداه . قال نعم فى موضعين قوله (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) وقوله (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) قلت فهل تجد . احذر شر من أحسنت اليه. قال نعم (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) . قلت فهل تجد . ليس الخبر كالعيان. قال فى قوله (أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) قلت فهل تجد . فى الحركات البركات. قال فى قوله (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما كثيرا وسعه) قلت فهل تجد . كما تدين تدان قال فى قوله (من يعمل سوءا يجز به) قلت فهل تجد ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين قال (هل آمنكم عليه الا كما أمنتم على أخيه من قبل) قلت فهل تجد . من أعان ظالما سلط عليه قال (كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) قلت فهل تجد . لا تلد الحية الا حية. قال (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) قلت فهل تجد . للحيطان آذن قال (وفيكم سماعون لهم) قلت فهل تجد . الجاهل مرزوق والعالم محروم. قال (من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) قلت فهل تجد . الحلال لا يأتيك الا قوتا والحرام يأتيك جزافا قال (إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم).

فهذه الاجابات وهى فى أمثال دقيقة تدل على ما بالقرآن الكريم من فيض فى باب الإيجاز عميم .

ب — الاطناب

قلنا إن الأطناب هو التعبير عن المراد بلفظ زائد عليه لفائدة، وقد افتن القرآن الكريم فى هذه الزيادة افتنانا كبيرا وسع من دائرتها وكثر من أنواعها .

فمن الزيادة ماتكون أداة من أدوات التأكيد المعروفة فى مقام التردد أو الانكار وقد تقدمت ومعها أمثلتها حيث الكلام على الخبر، ويلحق بهذه الأدوات المصطلح على أنها ألفاظ التوكيد ما يفيده من الحروف الزائدة كالباء فى خبر ليس من قوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) ونحوها من سائر حروف الزيادة على أن الزيادة قد تتعدى الحرف إلى الفعل مثل كان فى قوله(كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) والى الاسم كمثل فى قوله (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) وكلها للتقوية والتوكيد

ومنها مايكون تابعا إما على سبيل التأكيد بالفاظه الخاصة لرفع توهم المجاز أو عدم الشمول نحو (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) والحكمة فى تتابع لفظين منها فى هذه الآية أن كلا أفادت الشمول وأجمعين أفادت أنهم سجدوا مجتمعين لا متفرقين أو باعادة اللفظ للتقوية ويكون بالمرادف نحو (يجعل صدره ضيقا حرجا) ، نحو(غرابيب سود) وبنفس اللفظ فى الاسم نحو (قوارير قوارير) ، (دكا دكا) وفى الفعل نحو (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) ومثله اسمه نحو (هيهات هيهات لما توعدون) وفى الحرف نحو (ففى رحمة الله هم فيها خالدون) ،(أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) وفى الجملة نحو (إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) ،(وما أدراك ما يوم الدين ثم ماإدراك مايوم الدين) ، (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون)

وفى الضمير المتصل بالمنفصل نحو (اذهب أنت وربك فقاتلا) والمنفصل بمثله نحو (وهم بالآخرة هم كافرون) وفى الفعل بمصدره لرفع توهم التجوز نحو (وكلم الله موسى تكليما)،(ويسلموا تسليما) ، (ويوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا) أو بمرادف مصدره نحو (وتبتل اليه تبتيلا) ، (أنبتكم من الارض نباتا) أوبالحال منه نحو « أبعث حيا » ، « ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » ، « وأرسلناك للناس رسولا »،« ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون » ، (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) .وإما على سبيل البدل للبيان والتأكيد كقوله تعالى فى المطابق (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) وفى بدل البعض من الكل (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) وفى الاشتمال (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره)،(ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) ، (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود) . وإما على سبيل عطف البيان لزيادة الايضاح كقوله (فيه آيات بينات مقام ابراهيم) وقوله (من شجرة مباركة زيتونة) أو لمجرد المدح نحو (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) . وإما على سبيل عطف النسق بشرط أن يكون فى المترادفين للتأكيد نحو « انما أشكو بثى وحزنى إلى الله » ، « فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا » ، « فلايخاف ظلما ولا هضما » ، (لاتخاف دركا ولا تخشى) ، « لا ترى فيها عوجا ولا أمتا » وغيره كثير ، أو فى الخاص بعد العام للتنبيه على فضل الخاص نحو (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » ، (قل من كان عدوا لله وملائكته وجبريل وميكال) ،(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) ، (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح اليه شىء) ونحوه . أو فى العام بعد الخاص للتعميم بعد إفراد الخاص بالذكر لأهميته

نحو « إن صلاتى ونسكى » ،« ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم » ،«رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناوللمؤمنين والمؤمنات » ، « فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير» . وإما على سبيل النعت للتخصيص فى النكرة نحو (فتحرير رقبة مؤمنة) وللتوضيح فى المعرفة نحو « النبي الأمى »والمدح نحو «بسم الله الرحمن الرحيم »وللذم نحو (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) وللتأكيد الرافع للابهام نحو (لاتتخذوا الهين اثنين) ونحو (ولاطائر يطير بجناحيه)

ومنها مايكون ظاهرا يحل محل مضمر لزيادة التقرير والتمكين نحو (قل هو الله أحد الله الصمد) ،« وبالحق أنزلناه وبالحق نزل» ،(ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ، (لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) ، (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) أو للتعظيم نحو (واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم) ، (أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون) ، (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) أو للتحقير نحو (أولئك حزب الشيطان ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون) أو لازالة اللبس الذى يوهمه مجىء الضمير نحو (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء) ، (يظنون بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء) ، (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه) أو لقصد العموم نحو (وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء) ، (أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا أليما) أو للخصوص نحو (وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي) فى خطاب النبي ولم يقل لك مخافة أن يظن فيه التشريع العام أو لاخراج الجملة الثانية من حكم الأولى نحو (فان يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل) أو لمراعاة الجناس نحو (قل أعوذ برب الناس ملك

الناس اله الناس) أو غير ذلك مما يتعلق بهذه الناحية

ومنها أن تأتى الزيادة مفسرة لما قبلها نحو « إن الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا » ، « الحى القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم » ، « يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » ، « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » ، لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة » ، « الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ».وشبيه بهذا أو هو منه الايضاح بعد الابهام والتفصيل بعد الاجمال وكلاهما لتمكين المعنى فى النفس إذ يأتى بعد تشويق اليه فالاول نحو (وقضينا اليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) والثانى نحو (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين)

ومنها الاعتراض والتتميم والتكميل.وذلك أن يؤتى بجملة أو أكثر معترضة فى أثناء كلام أو بين كلامين متصلين لفائدة غير رفع الابهام نحو « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » ، « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » ، « وقيل ياأرض ابلعى ماءك » إلى الظالمين وفيها ثلاث جمل وهذا هو الاعتراض،وقد يأتى فى خلاله اعتراض آخر نحو (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) . فان كان المأتى به مفردا لا جملة ولفائدة غير الابهام أيضا فهو التتميم نحو (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) وكذا (وآتى المال حبه ذوى القربى) . أما إذا كان الغرض رفع

الابهام فانه يسمى التكميل كما يسمى الاحتراس أيضا جملة كان أم مفردا فى ثنايا الكلام أم فى غير ثناياه نحو «أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ، « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ، « تخرج بيضاء من غير سوء » ، « لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون» ، «فتصيبكم منهم معرة بغير علم» ، « قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقون لكاذبون »

ومنها الايغال والتذييل. فالايغال أن يختم الكلام بزيادة يتم المعنى بدونها ولا تشتمل على معناه ولكنها لا تخلو من فائدة تزيده تأكيدا نحو « اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون» ، « ولا يسمع الصم الدعاء إذا ولو مدبرين » ،«ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » ، « إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون»، فان ختم الكلام بجملة تشتمل على معناه وتكون بمثابة حكم عام يؤيده فهو التذييل نحو (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازى إلا الكفور) ، (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) ،(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفائن مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت) ، (ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير)

ومنها الطرد والعكس وهو أن يؤتى بالمعنى فى تعبيرين يقرر منطوق أحدهما مفهوم الآخر والعكس نحو (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) ونحو (يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) إلى قوله(ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم)

ومنها التكرير وهو من محاسن الاطناب ويكون فى جملته للتأكيد لأن الكلام كما يقولون إذا تكرر تقرر ثم هو فى مفرداته للتنبيه نحو (ياقوم اتبعونى

أهدكم سبيل الرشاد ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع) وللتهويل نحو (الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة) وللتجديد إذا طال الكلام تذكيرا به مثل (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) ولتغير النسبة نحو « الله نور السموات والأرض مثل نوره » ويسمى الترديد ومنه ترديد قوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فى سورة الرحمن عقب كل نعمة ذكرها فيها ليخص كل نعمة بتذكير فمعناها يعتبر متنوعا بتنوع كل نعمة ولذلك خص باسم الترديد لا التكرير ونحوها كثير، ومن التكرير أيضا تكرار الامثال نحو (ومايستوى الاعمى والبصير ولاالظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ومايستوى الاحياء ولا الأموات) وكذا تكرار القصص بأساليب مختلفة فى مواطن متعددة على اختلاف بينها فى عدد المرات لماعليه كل قصة من درجة فى العظة والاعتبار .

هذا وقد يظن من المكرر ماليس منه كقوله تعالى (وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب، لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب)فان الكتاب الأول لما كتبوه بأيديهم مما هو مراد فى قوله (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله وماهو من عند الله) والثانى للتوراة والثالث لجنس الكتاب، ومنه سورة الكافرين فان قوله (لا أعبد ما تعبدون) معناه لاأعبد فى المستقبل ماتعبدون فى الحال وقوله (ولاأنتم عابدون ماأعبد) مثله وقوله (ولا أنا عابد ماعبدتم) أى عابد فى الحال ماعبدتم فى الماضى وقوله (ولا أنتم عابدون ماأعبد) تأكيد للثانية لأنه لم يك يعبد الاصنام حتى يأتى بالماضى فالغرض نفى العبادة فى الازمان الثلاثة .

هذا بعض ماورد من الاطناب فى القرآن عن طريق الزيادة فهو المقابل لايجاز الحذف ويسمي إطناب الزيادة. وهناك إطناب يقابل ايجاز القصر يسمي

إطناب البسط ويكون بتكثير الجمل واستقصاء عوارض المعنى ولوازمه بعد جوهره وعناصره كقوله تعالى « أيود أحدكم أن تكون له جنة ـ إلى قوله ـ فاحترقت » وقد مضت فى التشبيه وكقوله (إن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » وأمثاته فى القرآن تجل عن الحصر

ج — المساواه

لسنا فى حاجة بعد الذى قدمنا عن ألوان المجاز والأطناب بنوعيهما فى القرآن الكريم أن نكشف عما فيه من مساواة لأن كل ماعدا ماذكرنا وأمثال ماذكرنا هو المساواة. ومن أمثلته قوله تعالى « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » ولعل ما تكون فيه المساواه آيات التشريع والأحكام لأنها لاتتلاءم مع الايجاز ولايحسن فيها الأطناب

٩ — خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

كان لنا أن نغفل إفراد هذا المبحث بعنوان لأنه داخل فى كل مامضى من قول، فما من مبحث تقدم الاجاء فيه خروج عن مقتضى الظاهر لما تقرر فيه، ولكن انفراده بأنواع لم تضمها تلك المباحث وحاجة مامضى إلى بعض استكمال جعلنا نضعه تحت هذا العنوان تحقيقا لهذين الأمرين

كان أول كلام لنا فى بلاغه القرآن على الخبر من حيث تركه بدون تأكيد للخالى وتأكيده بمؤكد للمتردد وبأكثر من مؤكد للمنكر ولكن من

الأخبار مايؤكد والمخاطب غير منكر إذا لم يعمل بمقتضى اقراره، ومنها مايترك توكيده مع المنكر لأن معه من الأدلة الظاهرة مالو تأمله لرجع عن انكاره . فمن الأول قوله تعالى « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » بالتأكيد مع أنه لاانكار للموت من أحد ولكن تمادى المخاطبين فى الغفلة جعلهم بمثابة المنكرين ومن الثانى قوله « ذلك الكتاب لاريب فيه » من غير تأكيد لنفى الريب مع أن هناك منكرين لان أمامهم من الادلة ماليس الخبر معها فى حاجة إلى تأكيد، وقد مثلنا هناك لاشياء خرج فيها الخبر عن أصله وضعه من الفائدة أو لازمها مع بقائه خبرا ومع تحوله إنشاء وأبنا الأغراض التى من أجلها كان هذا الخروج، وكذلك فعلنا بعده فى الانشاء وأنواعه مما يعد تجوزا إرساليا فى التركيب . كما تقدمت فى المجاز الارسالى المفرد أمثلة أخرى كاقامة صيغة مقام غيرها وكالقلب والتغليب والتضمين وكذا فى الاستعارى المركب مما جاء على سبيل ضرب المثل والتمثيل مما يعد كله خروجا عن مقتضى الظاهر ثم تتابعت فى الفصول الثمانية التى أعقبت كلتى الخبر والانشاء أمثلة لهذا الخروج أيضا مع ذكر الاسباب التى اقتضته ومن ثم ليس من داع لاعادة هذا المذكور وليكن كلامنا الآن مقصورا على ماجاء غير مندرج فى تلك الفصول وأهمه أسلوب الحكيم والالتفات

فأسلوب الحكيم هو العدول فى الجواب عما يقتضيه السؤال زيادة أو نقصا، فمن الزيادة قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام « هى عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى » إجابة للسؤال « وماتلك بيمينك ياموسى » والداعى إلى هذا العدول الرغبة فى إطالة المخاطبة مع الله سبحانه والتلذذ بها، وقوله (الله ينجيكم منها ومن كل كرب) فى جواب (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) وداعيه تعميم التنجية من كل الشدائد إزاء قدرة الله،

وقوله على لسان قوم ابراهيم (نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) فى جواب (ماتعبدون) اظهارا لابتهاجهم بعبارتها وعكوفهم عليها . ومن النقص قوله تعالى (قل ما يكون لى أن أبدله) فى جواب (إيت بقرآن غير هذا أوبدله) بترك الاجابة عن الاتيان إشارة إلى أنه محال وإلى أن من عجزعن التبديل كان عجزه عن الاختراع أبدى . وقد يعدل فى الاجابة عن السؤال الملقى إلى سؤال آخر كان أولى منه بالالقاء كقوله تعالى (قل هى مواقيت للناس والحج) فى جواب (يسألونك عن الاهلة) لأن السؤال لم يك عن فائدتها بل عن حقيقتها واختلاف صورها فعدل فى الجواب عنه إلى حكمتها لانها أنفع لهم وأولى بهم ولذلك قال على سبيل التمثيل فى خروجهم عما ينبغى إلى مالاينبغى عقب الاجابة (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) على أحد وجهى التفسير وقد تقدم معه وجه آخر هو أن ذلك كان حقا لا تمثيلا إذ كانوا لا يدخلون البيوت إلا من خلف حين يحرمون وعليه لايكون فى الآية خروج عن مقتضى الظاهر فلنمثل له بأجمع الآيات فيه وهى الخاصة بمحاورة موسى وفرعون من سورة الشعراء وقد سلفت فليرجع إليها . بل قد يعدل عن الاجابة أصلا إذا كان قصد السائل مجرد التعنت لا الرغبة فى الاستفهام كقوله تعالى (قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فى جواب (ويسألونك عن الروح) لأن السائلين كانوا اليهود وكان سؤالهم على سبيل التعجيز إذ ليس فى مقدور العقل الانسانى أن يحيط بكنه الروح، هذا على أن لفظ الروح نفسه مشترك بين روح الانسان وجبريل وعيسى والقرآن وغير هذه مما لو وقعت الاجابة على أحدها قالوا ليس لنا بمراد فاجمال الاجابة هكذا جاء مبكتا لهم رادا لكيدهم فى نحورهم ،

كما جاء اختتام الآية بهذه الفاصلة مفيدا أن عدم الاجابة انما هو لنقص استعدادهم عن فهمها ،

وعلى ذكر السؤال والجواب نذكر أمرين لا بأس من ذكرهما أحدهما أن القرآن كان من دأبه أن يعيد فى الجواب نفس السؤال كقوله تعالى (قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف) وقوله (أقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا)، والثانى أنه كان يأتى بالجواب مطابقا للسؤال فى الفعلية والاسمية كما فى قوله (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) إذ التقدير أنزل خيرا ولولا ذلك لما نصب خيرا

غير أنه قد يوجد ما يدعو إلى الخروج على هذين الأمرين فمن الأول قوله (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) لأن الجواب فى الحقيقة ليس جاريا على هذا السؤال بل على سؤال متوقع منهم حين استماعهم للسؤال فى الآية هو قولهم مثلا فمن يبدأ الخلق ثم يعيده فالخروج ظاهرى ومثله فى الأمر الثانى قوله تعالى (قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) لأن الغرابة فى المسند وهو الاحياء فناسب أن يصدر به الجواب ومثله (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم)

وقد يكون الخروج واجبا لا مستحسنا فحسب كقوله (ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) برفع أساطير خروجا على المطابقة لأنه لو طابق بنصبها لكانوا مقرين بالانزال وليس كذلك .

والالتفات بمعناه الخاص نقل الكلام من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى غيره منها، فمن التكلم إلى الخطاب قوله (ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون) بدلا من أرجع وانما التفت لتحقيق التعريض كما تقدم فى الكناية،

ومنه إلى الغيبة قوله (إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر) بدلاً من فصل لنا إشارة إلى فضل آخر غير الاعطاء هو فضل الربوبية، ومن الخطاب إلى الغيبة قوله (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم) بدلا من بكم اخراجا للقصة من أن تكون خطابا خاصا بهم إلى أن تكون حديثا عنهم عظة لغيرهم، ومن الغيبة إلى التكلم قوله (الله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه) بدلا من فساقه اظهارا لنسبة الفعل إليه على سبيل التكلم ليكون أدل على القدرة والعظمة، ومنها إلى الخطاب قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) بدلا من اياه خروجا على الصفات المذكورة قبله اشارة إلى أن تلك الصفات من شأنها إذا وعاها القارىء أن تشعره بالوقوف بين يدى الله موقفا يستدعى الخطاب له لا التحدث عنه، أما من الخطاب إلى التكلم فلم نظفر له بمثال فى القرآن كما لم نجد فى موسوعات البلاغة أى مثل له فى باب الالتفات مع حرصها على جعل أمثلته من القرآن ولذلك نقول إنه لم يرد به لما فيه من التكلف بتجريد الشخص من نفسه شخصا يخاطبه ثم عودته الى التحدث عنه بالتكلم

ومما تقدم يتضح أن الاسم الظاهر من الغيبة لأنه مرجعها وعلى ذلك يكون من الالتفات وضعه موضع الضمير وقد تقدم مبسوط الأمثلة واضح الاغراض فى أنواع الأطناب لأنه منه كما أن عكسه من الالتفات أيضا وقد تقدم كذلك فى التعريف بالضمير حيث الكلام على مراجع ضمير الغيبة وفى القصر حيث الكلام على ضمير القصة والشأن مع ضمير الفصل

أما الالتفات بمعناه العام فيشمل أسلوب الحكيم بل يشمل كل خروج عن مقتضى الظاهر لان ترك الظاهر إلى غيره التفات ولهذا يدخل فيه ماذكرناه وما أشرنا إليه وغيرهما مما لم نذكره ولم نشر إليه كتجاهل العارف مثلا فى قوله تعالى

على لسان نبيه لمن يستميلهم الى جدله (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) إذ لاشك عنده فى هداه وضلالهم ولكنه خرج على هذه الحقيقة للاستدراج

١٠ — الدقة فى استعمال الالفاظ والتراكيب من حيث المناسبة للمعانى

لقد وضحت هذه الدقة بالقرآن الكريم فى المفردات من حروف وأفعال وأسماء كما وضحت فى التراكيب من أخبار ومنشآت اذجاءت لكل قسم بأنواعه فى آيه شديدة المناسبة كثيرة الأمثال .

ا — فى المفردات

من دقة القرآن فى استعمال الحروف مخالفته بين (فى) و(على) من ذلك قوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) إذ اختار على للهدى لأن صاحب الحق مستعل لمزيد قوته واختار «فى» للضلال لأن الضال لفشله وضعفه كأنه منغمس فى حيرته متردد فى هوته ولذلك قال فى آية أخرى (تالله انك لفى ضلالك القديم) ومن أدق ما يلاحظ فى استعمال (على) أن العلو فيها قد يكون فى حال الضلال كما يكون فى حال الهداية ولكن على شرط أن يكون مضعفا لا مقويا كما فى قوله (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم) لأن من ركب وجهه يزداد ضلالا كمن يركب رأسه فهو لا يبصر وإذن لايعقل ولذلك أتى فى الآية بكلمة مكب لتزيد الاضعاف بيانا. ولم تعدم « فى » أن يكون لها استعمال مناظر لهذا الاستعمال فى « على » من حيث المعاكسة للاصل الذى قررناه لها كما فى قوله (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم

فى البر والبحر) فالظاهر كان أن يقال على البر والبحر ولـكن لما كانت الآية للمنة وكان الحمل أظهر لها فى مظان الهلاك كانت «فى» أدل على ذلك من «على» فأتى بها وهذا على أن الحمل الحق ليس على البر والبحر بل على حاملات فيهما كالأبل فى البر والسفن فى البحر . وانظر مخالفته بين « فى » و « اللام » فى الدخول على مستحقى الزكاة من الآية (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل) كيف أدخل على الأربعة الاوائل اللام وخالف فخص الأربعة الأخيرين بفى ليشعر بتلك المخالفة أن الاستحقاق فى هؤلاء أقوى وهم بالزكاة أولى لانها معهم لنفع عام فى حين لا تعدو مع الاولين النفع الخاص، وهنا دقيقة أخرى هى أنه كرر فى ثانية تـكريرا قرن بين الرقاب والغارمين كما قرن بين سبيل الله وابن السبيل زيادة فى التوصية وجمعا بين النظائر ثم اللام على ضعفها عن فى لم تـكرر .

ومنها قوله تعالى (الذين هم عن صلاتهم ساهون) بعن بدلا من فى وهى رحمة كبيرة بنا لأنه لا يخلو مصل فينا من سهو فى صلاته فلو قال « فى » لما بقى لمصل صلاة ولحق عليه العقاب المذكور فى هذه الآية فالحيدة عن فى إلى عن قصرت هذا العقاب على تاركى الصلاة دون الساهين فيها ومن هنا نفهم الحـكمة فى قول ابن عباس رضى الله عنهما « الحمد لله الذى قال عن صلاتهم ساهون ولم يقل فى صلاتهم » .

ومنها قوله (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرون بكم أحدا) إذ حول العطف من الفاء إلى الواو فى قوله وليتلطف لانقطاع الترتيب

ومن دقته فى الاسماء العدول عن صيغة إلى غيرها لحاجة المعنى إلى هذا العدول كقوله تعالى (الحى القيوم) ، (علام الغيوب) ، (إن الله يحب التوابين

منكم ويحب المتطهرين) ، (عزيز حكيم) إلى غير ذلك وهو كثير جدا وليس في حاجة الى مزيد استشهاد

ومنها السبيل للخير والطريق للشر كقوله (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة) وقوله (الا طريق جهنم خالدين فيها أبدا) فاذا استعمل الطريق في الخير قرنه بما يفهم ذلك كقوله (يهدى الى الحق والى طريق مستقيم) واذا استعمل السبيل للشر لايكون الا على سبيل التناظر كقوله (ولا تتبعو السبل فتفرق بكم عن سبيله) وهنا دقيقة خارجة هى إفراد سبيل الحق وجمع سبل الباطل لان الحق واحد والباطل متعدد

ومنها السنة للشدة والجدب والعام للرخاء والخصب قال تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) وقال (ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون)

ومن دقته فى الافعال التفرقة بين الماضى والمضاوع فى بناء الجمل وبين كليهما نفسه مجردا من الادوات التى تدخل عليه أو متلبسا بها وقد تقدمت لهذا أمثلة فى الكلام على فعلية الجمل واسميتها ، على أن هناك أفعالا ناقصة أو جامدة ذات استعمال دقيق لاختلافها باختلاف التراكيب .

ومنها فى الفعل وحدثه التفرقة بين المترادفين وتخصيص كل واحد منهما بموضوع دون نظيره كالخشية والخوف فقد خصت الخشية بالخوف الشديد الذى ينشأ من عظمة المخوف وجعل الخوف للناشىء من ضعف الخائف ولذلك يعبر عن الخوف من الله بالخشية كما قال سبحانه (يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) وهو شاهد للاثنين ، وإذا استعمل الخوف مع الله مكانها تجد فى التركيب مايكمل فيه هذا النقص كقوله (يخافون ربهم من فوقهم). ومن هذه المترادفات فيه البخل والشح والثانى أشد قال تعالى (الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله)

وقال (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) ومنها جاء وأتى فالاول في الذوات والثانى فى الاحداث والازمان قال تعالى (ولمن جاء به حمل بعير) ، (وجاءوا على قميصه بدم كذب) ، (وجيء يومئذ بجهنم يومئذ) وقال (أتى أمر الله) ، (أتاها أمرنا) ومنها مد فى المكروه وأمد فى الخير قال (ونمد له من العذاب مدا) وقال (وأمددناهم بفاكهة) ومنها سقى لما لا كلفة فيه وأسقى لما فيه كلفه ولذا خصت الاولى بشراب الجنة والثانية بشراب الدنيا قال (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) وقال (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) ومنها عمل لما فيه امتداد وفعل لما فيه سرعة نحو (يعملون له مايشاء) ونحو (كيف فعل ربك بعاد)ومنها القعود والجلوس الاول لما فيه لبث والثانى بخلافه قال (مقعد صدق) وقال (تفسحوا فى المجالس) ومنها التمام لازالة نقص فى الأصل والكمال لازالة نقص فى العوارض وقد اجتمعا فى قوله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) ومنها الاعطاء والايتاء والثانى أقوى من الأول إذ فعله ليس له مطاوع بخلاف الأول فانه ضعيف ولفعله مطاوع قال تعالى (تؤتى الملك من تشاء) وقال (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ولذلك خص الايتاء بالزكاة والاعطاء بالصدقة لوجوب الأولى دون الثانية قال تعالى (وآتوا الزكاة) وقال (فأما من أعطى واتقى)

هذا وإحصاء الدقة فى الحروف والأفعال والأسماء فوق المجهود لأن لكل حرف ولكل اسم ولكل فعل مواضع يختلف باختلافها تداوله ويتعدد بمناسباتها استعماله وهى مفصلة المعانى موضحة الاستعمال فى كتب العربية ثم هي مرفوزة الشواهد بينة الدقة فى القرآن

ب — فى التراكيب

لايمتنع كل ماتقدم من آيات أن يكون فوق التمثيل به فى مواضعه الخاصة أمثلة هنا من ناحية الدقة فى تكوين التراكيب ولكن الذى نريد أن ننبه عليه الآن انما هو مجىء التركيب جزلا حيث يكون المعنى جزلا، وعذبا حيث يكون المعنى عذبا . فمن مواطن الأول مقامات القرع بالأوامر والنواهى والتذكير بالمعاد والقيامة وضرب المثلات للعظة بمن خالف وعصى . ومن مواطن الثانى مقامات الملاطفة والاستعطاف والترغيب والتبشير إلى غير ذلك

وهذه بعض آيات من النوعين

قال تعالى فى موطن الجزالة (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما كسبت وهو أعلم بما يفعلون) وقال (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) وقال (ففتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون) وقال (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) ونحو هذا كثير . ومن السور الجزلة الشديدة الوقع سورة اللهب .

وقال مما هو عذب (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) وقال (إن الذين قالوا

ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) وقال (إن المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين) وقال (ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا).ومن السور التى تذوب رقة وسلالة سورتا الضحى والشرح وهما متعاقبتان وفى موضوع واحد

١١ — تنوع القسم فى القرآن وحكمته

الغرض من القسم تحقيق الخبر وتوكيده وقد كان الظاهر ألا تكون بالقرآن أقسام لأنه لا حاجة لهذا التوكيد من قبل الله ولكن لما نزل بلغة العرب وكان من عادتها التوكيد بالقسم لما تقدم جرى على عرفها لتأكيد الحجة وكمالها ثم لما كان الحكم يفصل عندها بالشهادة أو القسم خاطبها بالنوعين حتى لا تكون لها بعد حجة فقال عن طريق الاثبات بالشهادة « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » وقال عن طريق القسم (وفى السماء رزقكم وماتوعدون فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون)وقد روى أن بعض الأعراب حين سمع هذا القسم صرخ وقال من ذا الذى أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين وهذا يدل على مبلغ تأثير القسم فى نفوس السامعين.والقسم فى الآية بما أقسم الله سبحانه وتعالى فيه بنفسه وهو لم يقسم بها فى القرآن إلا فى سبع آيات هذه احداها

والست الباقيات هن (ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق) ، (قل اى وربى لتبعثن) ، (فوربك لنحشرنهم والشياطين) ، (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) ، (فلا وربك لا يؤمنون) ، (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) وكلها بلفظ الرب

والأصل فى القسم ألا يكون إلا بما يعظمه المقسم ويجله مما هو فوقه ولكن لما لم يك فوق الله جل وعلا شيء لم يجد أمامه إلا أن يقسم بنفسه كما تقدم أو بكل ما هو عظيم فى ذاته بقصد الابانة عن فضله أو لفت النظر إلى بارئه ومن ثم أقسم برسوله صلى الله عليه وسلم ليعرف الناس قيمته عنده ومكانته لديه ولم يقسم بأحد غيره قال ابن عباس (ماخلق الله ولا ذرأ ولا برأ نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) ثم أقسم بمصنوعاته لأنها تدل على عظمته وقدرته كالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض وغيرها كالنفس التى سواها ، وهو حين يقسم بهذه الأشياء وأمثالها يلفت النظر غالبا إلى وجه العظمة فيها قال (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) . على أنه سبحانه قد يتجاوز فيما يقسم به هذه الأشياء العظيمة إلى غيرها مما هو ذو منفعة أو فضيلة وقد اجتمعا فى قوله (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم) أو مما هو زمن يتضمن أفعالا معظمة كالآية (والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر هل فى ذلك قسم لذى حجر) فانها تشير إلى كثير من المناسك والشعائر التى هى تعبدية محضة يتجسم فيها ذل العبد وخشوعه أمام ربه ، ومن هنا ندرك أن الله لم يقسم بهذه الأشياء من مصنوعات

وغيرها لذاتها بل لما تستلزمه من تعظيمه والاقرار بقدرته لأن ذكر المخلوق يستلزم ذكر الخالق ولهذا قال كثير إن القسم بهذه الأشياء على تقدير مضاف هو كلمة رب فاذا قال (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) كان معناه ورب الليل فى غشيته والنهار فى جلوته وبذلك يسقط قول من قال كيف أقسم الله بالخلق وقد ورد النهى عن القسم بغيره وهذا فضلا على مافى النهى من تقييده بأنه بالنسبة إلينا لا إليه سبحانه إذ له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لأنها الدلائل البينة على عظيم آياته .

ذلك بعض مايقال عن المقسم به فى القرآن الكريم أما المقسم عليه فغالبه راجع إلى أصول الايمان التى يجب على الخلق معرفتها كالتوحيد والقرآن والرسول واليوم الآخر نحو (والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا إن إلهكم لواحد رب السموات والأرض ومابينهما ورب المشارق) ، (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لايمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين) ، (والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو الاوحى يوحى) ، (والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا إنماتوعدون لصادق وإن الدين لواقع) والدين هنا الجزاء الذى يقع فى ذلك اليوم الصادق وهو يوم القيامة. وكثيرا ماأقسم القرآن على أحوال الانسان قال (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى) وقال (لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الانسان فى كبد) وقال (والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا إن الانسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد وانه لحب الخير الشديد).

وقد يتكرر الشىء الواحد مقسما عليه وبه فى آن واحد ومن أجمع الآيات

لذلك قوله تعالى (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم) ففيها الرسول والقرآن مقسما بهما وعليهما ، كما قد يكون الشيء مقسما به ومقسما عليه فيكتفي بذكره مقسما به اذا كان فيه دلالة على المقسم عليه كقوله تعالى (ص والقرآن ذى الذكر) فالمقسم عليه محذوف تقديره إنه لحق مثلا اعتمادا على قوله فى المقسم به ذى الذكر لان ما كان ذا ذكر فهو حق أو العكس كقوله (لا أقسم بيوم القيامة) بحذف المقسم عليه وهو مثل ماذكرنا مع القرآن اتكالا على لفظ القيامة فى المقسم به لأنه يشعر بقيامه

ومما هو من دقائق القسم فى القرآن أن يأتى المقسم به شديد المطابقة للمقسم عليه ومن ذلك قوله (والضحى والليل إذا سجى ماودعك ربك وماقلا) فان هذه الآية نزلت إذ احتبس الوحى عنه صلى الله عليه وسلم وقال أعداؤه لقد ودع محمدا ربه وقد اختارت الضحى التى توافى بعد ظلام الليل كى تناظر الوحى الذى يأتى بعد احتباس .

هذا وقد يأتى القسم بصيغ غير الاصطلاحية التى هى الباء مع الفعل أو الواو النائبة عنها بدونه كما تقدم أو التاء مع لفظ الجلالة خاصة نحو « وتالله لأكيدن أصنامكم » فيكون على نوعين نوع مضمر تدل عليه اللام فى الجواب كقوله تعالى (لتبلون فى أموالكم وأنفسكم) ونوع يجرى مجرى الأخبار بدون جواب كقوله (وقد أخذ الله ميثاقكم إن كنتم مؤمنين)أو مع جواب كقوله (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس) .

١٢ — الجدل فى القرآن

لقد جاء القرآن الكريم مليئاً بالجدل المشتمل على أنواع الأدلة والبراهين ذات النتائج الصحيحة المبنية على المعلومات العقلية والسمعية مع بعده عن طرائق

المتكلمين ذات الغموض الذى لايفهمه إلا الأقلون فوقعت حججه فى صورة واضحة يفهم العوام من جليها مايقنعهم ويدرك الخواص من دقائقها ما يفحمهم وما كان له فى جدله سوى هذه السبيل جريا على عادة العرب فى تبسطها وتحقيقا لميثاق الله سبحانه فى قوله (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم). ومع تبسط القرآن فى جدله لما تقدم تحققت فى آيه معظم أنواع القسم .

١ — فجاء فيه القول بالموجب وهو رد كلام الخصم من فحوى كلامه بأن تقع فى كلامه صفة الشىء كناية عن إثبات حكم له فتأخذ أنت تلك الصفه مسلماً بها ولكن على أن تثبت ذلك الحكم لغير هذا الشىء ، أو بأن ترد فيه لفظة يريد ناحية معينة من نواحيها فتريد أنت ناحية أخرى لها فهو نوعان مثال أولهما قوله تعالى عن المنافقين (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) فهم أثبتوا أن الاخراج للعزيز يرفعه على الذليل وأنهم لذلك سيخرجون المؤمنين والآية سلمت لهم بصحة هذه القضية فى ذاتها ولكنها أثبتت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ليفهموا أنهم لذلك سيكونون الخارجين . ومثال الثانى قوله تعالى عنهم أيضا (ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن ، قل أذن خير لكم) يريدون أنه صلى الله عليه وسلم سماع لكل شىء مصدق لكل قول ولكن الآية لم تترك الاذن مطلقة كما ذكروها بل نسبتها إلى الخير لينتفى ما يريدون ولهذا كان تمام الآية (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم) أى أنه يصدق بالله ويسلم للمؤمنين لا لكم لعدم تصديقه إياكم ثم هو مع ذلك رحمة للذين أظهروا الايمان منكم حيث قبلهم ولم يكشف حقيقتهم ، والحوار فى تمام الآية والآيات قبلها وبعدها متناه فى الدقة مفرط فى الطول فليرجع اليه من سورة التوبه .

٢ — وجاءت فيه مجاراة الخصم بأن تسلم له ببعض مقدماته إشارة الى أنها لا تنتج مايريد وأنها تساعد على ماتريد أنت كقوله تعالى (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين، قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم) فقد سلمت لهم الرسل بالبشرية لانها لا تنتج عدم الرساله بل هى على العكس شرط فيها لأن من أنكرها على نبي أنكر رسالته لأن الله لم يرسل رسله إلا من البشر ولذلك قال (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون) إجابة لهم حيث قالوا (لولا أنزل عليه ملك) لانه لامفر من أن يكون الرسول بشرا .

٣ — وجاء فيه الاسجال وهو أن تثبت على لسان خصمك ألفاظا فى سياق آخر تسجل عليه ماكان عنده محل شبهة وإنكار كقوله تعالى (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ماوعد ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون) وانظر التفاته إلى المضارع فى قوله (يصدون) وما فيه من توجيه أنظارهم الى أن يقلعوا عما هم فيه من باطل الى ماهو حق .

٤ — وجاء فيه التسليم وهو أن تفرض لخصمك ما يقوله من المحال حقا ثم تريه أن ذلك على فرضه لاينتج إلا محالا يسقط هذا الفرض وهو إما مشروط بحرف امتناع ليكون ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه كقوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وإما منفى نفيا صريحا كقوله (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض).

٥ — وجاءت فيه المناقضة وهي تعليق ما تريد نفيه على مستحيل حتى

يكون مستحيلا مثله كقوله تعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط)

٦ — وجاء فيه الانتقال وهو أن تنتقل بالخصم الى استدلال غير الذى كنت معه فيه لعدم فهمه وجه الدلالة منه كقوله تعالى (ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين) فانه حين سمع قول ابراهيم ربى الذى يحى ويميت قال أنا أحيي وأميت ودعا بشخص مقضى عليه بالقتل فعفا عنه وبآخر برىء فقتله فعلم ابراهيم أنه لم يفهم حقيقة الاحياء والأمانة أو علمها وغالط بهذا الذى عمل فانتقل منها الى استدلال آخر لا سبيل له فيه الى انكار ولا مغالطة هو أن الله يأتى بالشمس من المشرق فليأت بها هو من المغرب فبهت ولم يجد من السكوت محيصا .

٧ — وجاء فيه نوع غير ماتقدم دقيق هو التقسيم والسبر وذلك أن تقسم ماهو محل جدل إلى منتهى أقسامه وتسبر كل قسم بما ينفى عنه ما يريد الخصم كقوله تعالى يرد على المشركين تحريمهم ذكور الانعام تارة وإناثها أخرى لأسباب معروفة عنهم يزعمونها (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أم مااشتملت عليه أرحام الانثيين نبئونى بعلم إن كنتم صادقين ، ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الانثيين أم مااشتملت عليه أرحام الانثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا) فهذه الآية تنفى إرجاع التحريم الى أى سبب فلا هو راجع الى الذكورة ولا الى الأنوثة ولا إليهما معاً لانهم أدالوا التحريم بينهما ولا هو راجع الى أخذ عن الله تعالى لأنه إما بواسطة عن وحى وإرسال رسول وإما بغيرها عن

مشاهدة واستماع كلام والأول باطل لأنهم لم يأتهم رسول قبل النبي صلى الله عليه وسلم وإلا فلينبئوا بعلم عنه إن كانوا صادقين . والثانى كذلك لأنهم لم يدعوا أنهم كانوا شهداء إذ وصاهم الله بهذا ، فالآية اشتملت على الاقسام الممكنة ونفت إرجاع الأسباب اليها .

هذا ومما عنى القرآن الكريم بالجدل فيه نوعان : التوحيد ومايتعلق به ، والبعث ومايتعلق به . فأما الاول فقد تقدم عنه وعن الشرك ونحوه مما هو ذو صلة بهما كثير من أمثلة الجدل فى مواطن كثيرة أخصها التشبيه، وقد تقدم له هنا مثال آخر من نوع التسليم . وأما البعث فلم تقل عناية القرآن به عن عنايته بالتوحيد وذلك لانه الركن الذى تبنى عليه الحياة الثانية . ومن أجمع الآيات فى الجدل عنه قوله تعالى (ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وتري الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور). فقد استدل الله بها على البعث من طريقين أولهما خلق الناس ابتداء لأن من قدر على الابتداء كان على الاعادة أقدر ولذلك قال (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وقال (أفعيينا بالخلق الاول بل هم فى لبس من خلق جديد) وقال (كما بدأنا أول خلق نعيده) وقال (كما بدأكم تعودون) . وروى أن أبى بن خلف جاء بعظم ففته ثم قال أيحيى الله هذا بعد مابلى ورم فنزلت الآية (أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه

قال من يحيى العظام وهى رميم ، قال يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ، انما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون) وثانيهما إحياء الأرض بعد موتها لأن من يوجد الأرض بعد العدم ثم لا يزال يحييها بالخصب ويميتها بالمحل كما هو مشاهد محسوس ـ لأن ذلك فيه أظهر منه فى خلق الناس ـ قدير على أن يعيد هذا الخلق بالبعث ، ولذلك جعل هذا فى كثير من آيه مقدمة لبيان ذلك قال تعالى (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) وقال (وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه إلى بلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) .

هذا ومن الآيات السابقة فى إفحام أبى بن خلف ترى أن الله قد ذكر فى الاستدلال على البعث طريقين آخرين أحدهما إخراج النار من الشجر الأخضر وهو غاية فى البيان من حيث رد الشىء إلى نظيره والجمع بينهما لما فيهما من تبدل الاعراض عليهما كما قال فى آية أخرى (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) والآخر قياس الأعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى فان خلقهما أعظم وأجل كما قال فى آية أخرى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . وهناك طريق خامس للاستدلال على البعث يسوقه الله سبحانه وتعالى فى أمثال قوله (وأقسموا بالله جهد

أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا « ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » ، ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ، إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وذلك هو ضرورة أن يركب سبحانه وتعالى الناس تركيبا آخر يتحقق معه هذا البيان المعلل به البعث فى الآية لأن اختلافهم فى أمره مركز فى فطرهم تركيزا لا يمكن ارتفاعه عنهم جميعاً إلا بازالة هذه الجبلة وإعادة الخلق على صورة أخرى تـكون فى حياة ثانية يرتفع فيها هذا الخلاف وتلك الحياة الثانية لا تـكون إلا عن بعث، فالخلاف القائم على البعث دليل على ضرورته حتى يتبين للناس الذى يختلفون فيه ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

١٣ — بدائع القرآن

لسنا نقصد من كلمة بدائع معناها على إطلاقه انما نقصد وقد ذكرنا ماذكرنا عن فصاحة القرآن وبلاغته مما هو ذو علاقة بعلمى البيان والمعانى معناها الخاص فى علم البديع وهو المحسنات لفظية ومعنوية حتى نودع تحت كلتيهما طرفا فنكون قد وفينا القرآن بعض حقه من علوم البلاغة الثلاثة ، على أنا سنكف عن إعادة ماقد مر آنفا لمناسبات من محسنات معنوية مع البلاغة وهى الاكتفاء والاحتباك فى الايجاز، والترقى والتدلى بالتقديم والتأخير، والتفسير والايضاح بعد الابهام، والتفصيل بعد الاجمال، والاعتراض والتميم والتكميل والاحتراس والايغال والتذييل والطرد مع العكس والتكرير والترديد فى الاطناب، وأسلوب الحـكيم والالتفات وتجاهل العارف فى الخروج عن مقتضى الظاهر، وائتلاف اللفظ مع المعنى ومع اللفظ حيث الـكلام على الدقة، ثم القول بالموجب ومجاراة الخصم والاسجال والتسليم والمناقضة والانتقال والسبر مع التقسيم فى الجدل

وكذلك سنترك مامر من محسنات لفظية بالفصاحة وممهداتها وهى حسن الابتداء وحسن التخلص وحسن الانتهاء .أما ماجاءت أمثلته فى الفاصلة كرد العجز على الصدر والموازنة والمماثلة والتطريف والتوازى والترصيع ولزوم مالا يلزم فانا سنعيد ذكره مع السجع حيث لم نذكر ألقابه هناك، وعلى ذلك لم يبق من المحسنات اللفظية الهامة بعد السجع سوى الجناس وهما ما سنقصر القول عليهما

١ — المحسنات اللفظيه

منها السجع وقد ورد فى القرآن الكريم قصير الفواصل ومتوسطها وطويلها فمن القصير (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة) وأقصر منه (يأأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولاتمنن تستكثر ولربك فاصبر)ومن الطويل (ولئن أذقنا الانسان منارحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعدضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور) وأطول منه(إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولوأراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور ،وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراكان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور) ومن المتوسط (اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) ، (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا) وأحسن السجع ما تساوت فيه الفاصلتان فى عدد الكلمات ثم ماتفاوتتا فيه تفاوتا قليلا ثم ماكان التفاوت فيه متوسطا على أن يكون الطول فى الثانية، أما التفاوت المتوسط مع كون الطول فى الأولى والتفاوت الكثير مطلقا فليس

بمحمود ولذلك لم يرد من هذه الأنواع الثلاثة الأخيرة شيء في القرآن.
هذا وقد ذكرنا ونحن نتكلم على الفواصل أن منها ما تتفق فيه الفاصلتان وزنا لا تقفية مع عدم تمام المقابلة بين الكلمات نحو (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش) أو مع تمامها نحو (وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم) وهذه هي الموازنة ويختص الثاني منها باسم المماثلة ، وأن منها ما تتفقان فيه تقفية لا وزنا مع عدم تمام المقابلة نحو (إلا حميما وغساقا جزاء وفاقا) أو مع تمامها نحو (والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس) وهذا هو التطريف ، وأن منها ما تتفقان فيه وزنا وتقفية مع عدم تمام المقابلة نحو (فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة) أو مع تمامها نحو (إن الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم) والأول هو التوازي والثاني هو الترصيع كما ذكرنا هناك أمثلة أخرى يلتزم فيها حرف أو حرفان أو ثلاثة قبل حرف السجع وهذا يسمى لزوم مالا يلزم . وكما ذكرنا فيها أيضاً أن بعض التمهيد لها يكون راجعاً الى أول كلمة في الآيه وهذا يسمى رد العجز على الصدر .

ومنه الجناس وهو التشابه في اللفظ وقد يصل إلى درجة الاتحاد فتكون الكلمتان من المشترك كقوله (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) وهذا هو الجناس التام وهو قليل . وغير التام هو الكثير وله صور متعددة تختلف باختلافها الأسماء، فنه المحرف الذي لا يختلف إلا في الحركات نحو (ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين» ومنه الناقص أو المذيل وهو ما جاء الاختلاف فيه مع اتفاق الحركات أو اختلافها بنقص أو زيادة في بعض الحروف نحو « والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق » ، « ولكنا كنا مرسلين »

،« إن ربهم بهم » ، « وانظر إلى الهك » وهذا الذى جاءت زيادته فى الآخر يسمى المتوج،ومنه المصحف وهو المختلف فى النقط نحو (والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين) والمضارع وهو ما كان اختلافه فى حرفين متقاربى المخرج نحو (وهم ينهون عنه وينأون عنه) فان لم يكونا متقاربى المخرج وكانا مع ذلك غير متشابهى الخط فهذا هو اللاحق نحو (ويل لكل همزة لمزة) ، (وانه على ذلك لشهيد وانه لحب الخير لشديد) ، (ذلكم بما كنتم تفرحون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) فاذا لم يتقاربا مخرجا ولكنهما تشابها كتابة فانه يسمى اللفظى كقوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) لما بين الصاد والظاء من التشابه الكتابى.وهناك أنواع أخرى للجناس منها التجنيس القلبى وهو المختلف فى ترتيب الحروف نحو (فرقت بين بنى إسرائيل) والاشتقاقى وهو المتحد فى أصل المآخذ نحو (فروح وريحان) ، (فأقم وجهك للدين القيم) ، (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا) والاطلاقى وهو ما جاء لمطلق التشابه نحو (وجنى الجنتين دان) ، (ليريه كيف يوارى سوأة أخيه) ، (وإن يردك بخير فلا راد لفضله) ، (قال إنى لعملكم من القالين) وقد يتكون الجناس من كلمة وبعض أخرى كقوله تعالى (على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم) فالكلمة هار والجزء الفاء من جرف .

هذا ومع ما للجناس من حلية لفظية كان القرآن يتركه إذا كان فى عدمه قوة للمعنى وذلك كقوله (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) وقوله (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين) فانه لم يقل بمصدق ولا وتدعون مع ما فيهما من تحقيق الجناس لأن فى مؤمن وتذر من قوة المعنى ما ليس فى مصدق وتدع .

ب ـ المحسنات المعنوية

١ ـ منها التورية وتسمى الأيهام وهى أن يذكر لفظ له معنيان قريب وبعيد على أن يورى عن الثانى بالأول الذى يتوهمه السامع لأول وهلة مثل « قالوا إنك لفى ضلالك القديم » اذ الضلال يحتمل الحب وهو بعيد وعدم الهداية وهو قريب وقد ورى به عن الحب، ونحو (والنجم والشجر يسجدان) فان النجم يطلق على الكوكب وهو قريب وعلى ما لاساق له من النبات وهو البعيد المراد. والتورية ذات عون على تأويل المتشابهات ولذلك قال الزمخشرى «لا ترى بابا فى البيان أدق ولا ألطف من التورية ولا أنفع ولا أعون على تعاطى تأويل المتشابهات فى كلام الله ورسوله منها ـ ثم قال ـ ومن أمثلتها (الرحمن على العرش استوى) فان الاستواء على معنيين، الاستقرار فى المكان وهو القريب المورى به الذى هو غير مقصود لتنزيهه تعالى عنه والثانى الاستيلاء والملك وهو البعيد المقصود الذى ورى عنه بالقريب المذكور » هذا وللتورية ترشيح بذكر ما يلائم البعيد وتجريد بذكر ما يلائم القريب وإطلاق بدونهما أو بهما على التساوى كما هى الحال فى الاستعارة

٢ ـ ومنها الاستخدام وهو أن يؤتى بلفظ له معنيان يراد به أحدهما ثم يؤتى بضميره مرادا به الثانى كقوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) إذ المراد بالانسان آدم وبالضمير فى جعلناه نسله وكقوله (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) فان المراد بالامر بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وبالضمير فى تستعجلوه قيام الساعة. أو هو الاتيان بلفظ مشترك بين معنيين ثم بلفظين معه يراد من أحدهما أحد المعنيين ومن الثانى المعنى الآخر كقوله تعالى (لكل أجل كتاب يمحو الله مايشاء ويثبت) فان

الكتاب يحتمل الأمد المحتوم والكتاب المكتوب ثم إن لفظ الأجل للاول ولفظ يمحو للثانى . وللاستخدام مكانة فى البيان لا تقل عن مكانة التورية ان لم تفضلها .

٣ـ ومنها المشاكلة وهى ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته لفظا أو تقديرا ، فالاول كقوله تعالى (تعلم مافى نفسى ولا اعلم مافى نفسك) وقوله (ومكروا ومكر الله) ، (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ، (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ، (فاليوم ننسا كم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) ، (ويسخرون منهم سخر الله منهم) ، (انما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم) وهذا كثير جدا والثانى كقوله (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) يريدون تطهير الله بالايمان مشاكلة لمعمودية النصارى التى يغمسون فيها الاولاد . وهى وان لم تذكر هنا لفظا ملحوظة تقديرا . وللمشاكلة دخل فى التأويل كالتورية والاستخدام

٤، ٥، ٦ ومنها المطابقة والمقابلة ومراعاة النظير . فالمطابقة هى الجمع بين متضادين فى الجملة لفظا أو معنى حقيقة أو مجازا إيجابا أو سلبا كقوله (وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا) ، (لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) ، (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود) وهذه للحقيقى والايجابى واللفظى ، ومن المجازى قوله (أو من كان ميتا فأحييناه) أى ضالا فهديناه ومن السلبى (تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك) ، (فلا تخشوا الناس واخشونى) ومن المعنوى (إن أنتم الا تكذبون قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون) أى إنا لصادقون ، (الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء) لأن فى البناء رفعة ، (ولكم فى القصاص حياة) وقد تكون أخفى من ذلك كقوله (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) لأن الغرق من مستلزماته الماء الذي يقابل النار .

والمقابلة هى أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم بما يقابل ذلك على الترتيب وإذا شرط فى الاول امر شرط فى الثانى ضده، ففى الاثنين نحو (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا)، وفى الثلاثة نحو (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر)، (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث)، (واشكروا لى ولا تكفرون)، وفى الاربعة نحو (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)، وقد تكون فى أكثر من ذلك والفرق بينها وبين الطباق أنها لاتكون فى أقل من أربعة كل اثنين فى طرف كالمثال الاول والطباق لايكون الا فى اثنين ، وأنها تكون بالاضداد وبغيرها على رأى والطباق لايكون إلا بالاضداد. أما مراعاة النظير فهو جمع أمر وما يناسبه بغير بالتضاد نحو « الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان» ومن دقيقه قوله تعالى « ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى » فقد أخذ العرى مع الجوع وأخذ الضحاء مع الظمأ وان كان الظاهر ضم الظمأ الى الجوع والضحاء الى العرى ، لان فى كل من الجوع والعرى خلوا وفى كل من الظمأ والضحاء التهابا .

٩،٨،٧ ومنها التقسيم والتفريق ثم الجمع وحده ومع أحدهما ومعهما. فالتقسيم استيفاء جميع أقسام الشيء الموجودة فعلا لا الممكنة عقلا نحو « يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما »، (هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا)، (له ما بين ايدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك) ، (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم). والتفريق إيقاع تباين بين أمرين أو أكثر من جنس كقوله (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم يمشى على أربع » . والجمع

أن يجمع بين شيئين أو أكثر فى حكم كقوله (الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان). والجمع مع التفريق أن تدخل شيئين فى معنى وتفرق بين جهتى الادخال نحو (الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى). والجمع مع التقسيم أن تجمع بين متعدد فى حكم ثم تقسمه نحو (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات). والجمع معهما كقوله « يوم يأتى لا تكلم نفس إلا باذنه فمنهم شقى وسعيد فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والارض إلا ماشاء ربك ان ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ » . وليس بين الجمع مع التفريق والجمع مع التقسيم كبير فرق .

١٠ـ ومنها اللف والنشر وهو أن تذكر شيئاً أو أكثر اجمالا أو تفصيلا ثم تذكر أشياء تقابلها كذلك، فالاجمال كقوله تعالى عن اليهود والنصارى « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى » أى قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى والذى سوغ هذا الاجمال العناد القائم بينهما، والاجمال هنا فى اللف وقد يكون فى النشر كقوله تعالى (فكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر) على أن المراد بالخيط الاسود الفجر الكاذب لا الليل. والتفصيل قسمان مرتب كقوله (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) ومعكوس كقوله « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون »

١١، ١٢ ومنها الاستدراك والاستثناء وشرط كونهما من البديع أن يتضمنا ضربا من المحاسن زائدا على معناهما اللغوى ، فالاستدراك نحو « قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » فانه لو اقتصر على قوله لم تؤمنوا لكان منفرا لهم وهم يظنون مجرد الاقرار بالشهادتين إيمانا، فالاستدراك دنا مع كونه لم ينفرهم فرق لهم بين الايمان والاسلام ولذلك جاء بعده « ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » . والاستثناء نحو (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) . فان ذكر الالف ثم الاستثناء منه ذو روعة لا يدانيها ذكر العدد المراد مباشرة وفيه من التهويل بهذه الصفة مايمهد العذر لنوح فى الدعاء على قومه بما أهلكهم . هذا ومن ملاحظة ماتقدم من استخدام القرآن السنة فى الشدة والعام فى الرخاء نفهم وجه التفرقة هنا كما نفهم أنه عانى مدة الدعوة من قومه شدائد جعلتها سنين لا أعواما

١٣ـ ومنها تأكيد المدح بما يشبه الذم ومعناه ظاهر من اسمه ومثاله قوله تعالى « قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله » الخ، (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) ، « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما) وكذا « ومانقموا منهم إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله »

١٤ـ ومنها الارداف وهو أن يعبر المتكلم عن المعنى الذى يريده لا بلفظه الموضوع له ولا باشارته بل بلفظ يرادفه كقوله « وقضى الأمر » أى هلك من قضى الله هلاكه ونجا من قضى الله نجاته وكذلك « واستوت على الجودى » بدلا من جلست لأن فى الاستواء تمكنا لا يفهم من مطلق الجلوس ، « فيهن قاصرات الطرف عين » بدلا من عفيفات إذ فى قاصرات فوق العفة غض بصر

، « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » فقوله بما عملوا أى بالسوء ولكنه ترك التصريح به مع مافيه من المطابقة كيلا يضاف إلى الله سبحانه . والارداف شبيه بالكناية ولكن الانتقال فيه من مذكور إلى متروك وفى الكناية من لازم إلى ملزوم

١٥ـ ومنها التجريد وهو أن تنزع من أمر ذى صفة أمرا آخر مثله مبالغة فى كمال اتصافه بها نحو « لهم فيها دار الخلد » فدار الخلد ليست مكانا دون غيره فى الجنة بل هى الجنة بعينها لانها كلها دار خلد وكذلك « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » على أن المراد بالميت النطفة . والتجريد ليس باستعارة لوجود الطرفين ولا بتشبيه لانه لا يمكن فيه حمل المشبه به على المشبه كما هى الحال فى التشبيه

١٦ـ ومنها المبالغة وهى أن تذكر وصفا فتزيد فيه حتى يكون أبلغ فى المعنى الذى تريده ، وهى إما بالوصف كقوله « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار » و إما بالصيغة مثل « الرحمن الرحيم » ونحوها . و إذا قيل كيف أتى الله سبحانه وتعالى لنفسه بصيغ المبالغة مع أنها مبنية على الزيادة وصفاته لاتقبل زيادة ولا نقصا قلنا انما بالغ بحسب تعدد المتعلقات لا بحسب الصيغة فى ذاتها فالتواب مثلا جاءتها المبالغة من كثرة من يتوب الله عليهم وهكذا

١٧ـ ومنها العكس وهو أن يؤتى بكلام يقدم فيه جزء ويؤخر جزء ثم يعكس بعد فيقدم المؤخر ويؤخر المقدم وذلك كقوله « ماعليك من حسابهم من شىء ومامن حسابك عليهم من شىء) ، « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » ، « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » ، « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » . ومن دقيقه قوله « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو

أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) فان الآية الثانية معاكسة للاولى حيث أخر العمل فيها عن الايمان فى حين أنه مقدم عليه فى الاولى وقد يكون العكس فى حروف الكلمات لا الكلمات نفسها ويسمى القلب كما يسمى المقلوب المستوى أو مالا يستحيل بالانعكاس نحو « كل فى فلك » ، « ربك فكبر »

هذا ومحسنات القرآن بين لفظية ومعنوية تزيد على المائة وفى هذا القدر الذى أوردنا ما يرينا شيئا من درجة هذه المحسنات فيه

١٤ — مزايا القرآن بوجه عام

لعلى حين وضعت هذا العنوان أول ما بدأت الكلام فى البلاغة كنت مسرفا فى اعتقادى إمكان الالمام به طامعا فيما لا مطمع فيه مهما عظم المجهود لانى حين انتهيت اليه وهو الاخير لم أكد أنظر فيه حتى وجدته كثير الشعاب مليئا على المحاول بالصعاب فعشى بصرى وضاق ذرعى ووددت لو أنى فطنت إلى هذا من قبل حتى كنت أغفله فى العناوين ولكن الأمر غير مرجوع فيه فقولى الآن قول من يبدو عليه التقصير ولا يلم إلا بالقليل من الكثير

ولعل من أهم هذه المزايا بعد الذى تقدم فى فصاحة القرآن وبلاغته الانسجام البالغ فيه حتى لترى الحروف فى الكلمات والكلمات فى الجمل والجمل فى الآيات آيات بينات على قوة هذا الانسجام، فهى حين النطق بها يتحدر بعضها وراء بعض تحدر الماء المنهمر من الحزون إلى السهول، وها هى ذى أنواع من الانسجام مشفوعة بآيات كريمة تنطق بها وتشهد لها .

من ذلك مجيء كثير من آياته على موازين الشعر مع أن الشعر غير مقصود فيه إنما جاء ذلك من قوة انسجامه وشدة تعاشقه كألحان الموسيقى يوازن بعضها بعضا حتى تكون كلا منسجم الوقع حسن الرنين وبهذا تسنى لكثير

من العروضين أى يودعوا ضوابط البحور أبياتامن الشعر فى كل بيت شطر من آى القرآن الكريم على تفاعيل البحر الذى من أجله سيق،على اختلافهم فى اختيار الآيات لكثرتها فى القرآن . فمن الطويل (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ومن المديد (تلك آيات الكتاب الحكيم)ومن البسيط «فأصبحوا لاترى الا مسا كنهم » ومن الوافر « إذا مروا بهم يتغامرون » ومن الكامل « إن الذين يبايعونك انما » ومن الهزج « وقالوا حسبنا الله » ومن الرجز « اذهب الى فرعون انه طغى »ومن الرمل « ولقد راودته عن نفسه »ومن السريع « يأأيها الناس اتقوا ربكم » ومن المنسرح (هو الذى أنزل السكينة فى) ومن الخفيف (ربنا اصرف عنا عذاب جهنم) ومن المضارع (ألم يأتكم نذير) ومن المقتضب (كلما أضاء لهم) ومن المجتث (وهو العلى العظيم) ومن المتقارب(وإن يستغيثوا يغاثوا بماء) ومن المتدارك (إنا أعطيناك الكوثر) ومن مخلع البسيط (وقودها الناس والحجارة).وليس اقتصار هؤلاء على الأشطار لعدم وجود وزن البيت كاملا فى القرآن بل لأن حاجتهم فى الضبط تقضى بمجىء العجز وحده لأن الصدر تفاعيل البيت ففيه من الابيات الكاملة كثير كقوله تعالى من الوافر (ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) ومن الرمل (وجفان كالجواب وقدور راسيات) الى غير ذلك

ومن آيات الانسجام أيضا ائتلاف اللفظ مع اللفظ وقد تقدم ما يشعر به حيث الكلام على الدقة فى مناسبة الالفاظ والتراكيب للمعانى أى فى ائتلاف اللفظ مع المعنى فان الائتلاف لم يقف عند حدود المعانى بل تعداها إلى الالفاظ فكان يقرن الغريب بالغريب والمتداول بالمتداول رعاية لحسن الجوار والمناسبة، انظر قوله تعالى (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) فانه حين أتى بالتاء الغريبة فى القسم بالنظر الى الباء والواو،أتى

بالفعل تفتأ وهو أغرب إخوته وأتى بكلمة الحرض كذلك ليتم الائتلاف اللفظى، وكان إذا خرج على هذا التآلف يكون خروجه للاتيان بلفظة بارزة تنزل من كلمات التركيب منزلة الواسطة الفريدة من حبات العقد دلالة على عظم فصاحته وقوة عارضته وشدة جزالته وأصالة عربيته، مثال ذلك كلمة حصحص فى قوله (الآن حصحص الحق) والرفث فى قوله (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وفزع بالتشديد والبناء للمجهول فى قوله « حتى إذا فزع عن قلوبهم » وكبكبوا فى قوله (فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون) وخائنة فى قوله « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » واستيأسوا ونجيا فى قوله « فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا » وساء فى قوله (فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين » إلى غير ذلك. أما ائتلاف السهل مع السهل فهو الأصل فى القرآن وكله أمثلة بينة فيه

ومن محاسنه فى هذه الناحية أيضا أنه إذا أراد أن يذم فيوجع لم يحتج إلى ما كانت تحتاج إليه العرب من فاحش اللفظ وبذىء الكلم الذى يتطلبه هذا الذم وإنما يصل إلى ما يريد دون تلوثه بشىء من ذلك الذى طالما حط من شأن الكلام قال تعالى (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون) فان هذه الكلمات على نزاهتها من الدنس قد ذمت من نزلت فيهم أبلغ الذم وقد تقدمت لها مثيلات كآيات المدثر فى الوليد بن المغيرة وكسورة اللهب فى أبى لهب وامرأته حمالة الحطب .

ومن المزايا القرآنية أيضا إبرازه المعنى الواحد فى عدة صور اقتدارا منه على التنويع فى نظم الكلام وعلى صياغة القوالب المتعددة للمعانى والاغراض،

ومن الامثلة البارزة فى ذلك قصصه ذو الفنون والالوان فكم قصة تكررت فيه مرارا وما من مرة إلا فيها خلاف لأخواتها يناسب موقعها فى مكانها والغرض الذى تطلبها وساقها، ولم يقف الاختلاف فيها عند طريقة الأداء من حقيقة وكناية ومجاز بل تعداها إلى الكم من إطناب ومساواه وإيجاز ثم لم يك هذا فى القصص وحده بل جاوزه إلى غيره، وقد تقدم منه مثل الحياة فى التشبيه.

ومما ينبغى أن يسلك مع هذه المزية مزية تقابلها وهى جمعة بين المعنين المختلفين فى القليل من الالفاظ كقوله تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) فانه فى هذه الآية القصيرة قد عزى هذا الوجود عن فنائه جميعه بمدح نفسه بالتفرد بالبقاء بعده مدحا اشتمل فوق ذلك على وصف ذاته سبحانه بالجلال والاكرام، ومثل هذه الآية فى الجمع ذى التقابل قوله (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) ومثلهما فى القرآن كثير .

ومما ينحاز إلى هذه الناحية أيضا المراجعة القولية وهى التعبير عن المحاورة فى أوجز عبارة وأوفى أداء كقوله تعالى لأبراهيم (قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين) فقد اشتمل على ثلاث مراجعات مختلفة المعانى والاغراض . وشبيه بهذا فى الاحاطة بفنون من المعانى أن يأتى بجمل متلاحقة تكون متساوية فى الزنة ومشتملة كل منها على معنى ذى صلة بمعانى نظرائه مع قبولها الانفصال والاستقلال وذلك كقوله تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) وهذا فى جمل طويلة، ومثاله فى الجمل القصيرة قوله (الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين). وللقرآن فى هذا الوصف

المتزن باع طويل يظهر فى الجمل كما ذكر ويظهر فى المفردات يعددها على سياق واحد كقوله (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله) وقوله (مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا) وقد تقدمت هى وسابقتها فى الاستشهاد بها على أشياء أخر من البلاغة التى تتزاحم على الآية الواحدة من عدة وجوه.

ومن المزايا الهامة أيضا ارتباط القرآن جميعه ارتباطا تنزه عن المخالفة كما قال جل شأنه (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وعلى هذا الأساس بنى بعضه على بعض وكمل بعضه من بعض فصار يرى فيه كلام فى موضع مقتصا من كلام فى آخر قال تعالى (وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) قاصدا بقوله لمن الصالحين أنه من ذوى الدرجات العلا لأن الآخرة دار إثابة لادار عمل حتى يؤخذ الصلاح فيها على أصل معناه وهذا المعنى الذى أردناه مقتص من قوله فى موضع آخر (ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا). وقوله (ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) أخذ من قوله (فأولئك فى العذاب محضرون) وقوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن) على رأى بعض المفسرين فى تفسير الظلم بالشرك أخذ من قوله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) وقوله (ويوم التناد) بتخفيف الدال على معنى التنادى أخذ من قوله (ونادى أصحاب الجنه أصحاب النار) وبتشديدها على معنى الفرار أخذ من قوله (يوم يفر المرء من أخيه). وقد يكون الاخذ من أكثر من موضع كقوله تعالى (ويوم يقوم الأشهاد) فأن الأشهاد أربعة الملائكة من قوله (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) ، والانبياء من قوله (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) ، وأمة محمد

صلى الله عليه وسلم التى كرمت بالشهادة على الامم كما كرم بالشهادة على الانبياء وبالشهادة على أمته من قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)، والجوارح والأعضاء من قوله (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) فهذه آيات يشير بعضها الى بعض .

وهناك آيات لا تكون الاشارة فيها على آيات بل على أنواع من المعارف تعتبر مفاتيح للعلوم ولفتا إلى دراستها كقوله تعالى يخاطب أهل النار (انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب لاظليل ولا يغنى من اللهب) فانها ترمى إلى نظرية هندسية هى عدم صلاحية الشكل الهندسى الأول وهو المثلث لأن يمد ظلا فأمر الله أهل جهنم بالانطلاق اليه تهكم بهم وسخرية منهم. وكقوله (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) يشير إلى نظرية التصوير الشمسى فما هو إلا ثبوت الظل، والشمس هى الدليل عليه ولولاها لم يكن .وقوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء) يشير إلى نظرية طبيعية عظيمة هى نقص صلاحية طبقات الأجواء للتنفس كلما صعد الانسان فيها. وقوله (فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض) يشير إلى نظرية كيمائية كذلك ولاسيما إذ جاء قبله (ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) إلى ماقبل هذا من بدء الآية عن زبد الأودية. وقوله (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) إلى آخر الآيات التى تعتبر عنوانا لعلم الكلام والجدول والهيئة فى آن.

وليست هذه الاشارات ومثيلاتها وهى كثيرة جدا مقصورة على العلوم بل منها ما يشير إلى قصص تاريخى ملىء بالعظة والاعتبار كقوله (واتل عليهم

ابنى آدم بالحق).وغيره فى القرآن كثير جدا

وقد تكون الاشارة مأخوذة من كلمة واحدة كقوله (وأنه هو رب الشعرى) إذ تخصيص الشعرى بالذكر دون سائر النجوم مع أنه تعالى رب كل شىء إشارة الى ماكان لبعض العرب من عبادتها كأنه يقول رب الكواكب حتى الشعرى التى زعمتم ألوهيتها وعبدتموها.كما قد يكون الكلام كله من باب التورية والكناية فيقصد منه غير ما فى ألفاظه كقوله تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) فان بعض المفسرين يترك هذا الظاهر على جوازه واحتماله ودلالته على تنويع مخلوقات الله حتى فى الجماد إلى بيان أنواع الطرق التى يسلكها الناس فالجادة هى البيضاء وهى أوضح الطرق والمضلة هى السوداء وهي أخفاها والمتشابهة هى الحمراء المختلطة حمرتها بالسواد وهى لا إلى هذه ولا إلى تلك

هذه لمعة من مزايا القرآن عامة لم تسبق وعسير على المستقصى إتمام باقيها فلنجعل خاتمها قولنا بالاجمال إنه قد اجتمع لآى القرآن الكريم من المزايا فى المعانى والألفاظ ماعلت به سائر الكلام هذا على تعدده فيها إلى درجة لا تكاد تخطر على بال. وإليك طائفة من الآيات يكفينا مجرد إثباتها مع ذكر موضوعاتها وهى بعد ذلك الكفيلة بالاعراب عن نفسها .

قال تعالى مجملا انتهاء الطوفان(وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) . وقال جامعا أصول التشريع(ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى). وقال موعدا من افترى عليه الكذب(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح اليه شىء ومن قال سأنزل مثل

ما أنزل الله ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وبما كنتم تستكبرون ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) . وقال مهددا (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به) . وقال فى تحسير الظالمين) ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) . وقال فى تسامحه لعباده (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) . ومثلها فى مد الرجاء لأهل التوحيد وقطع الامل عن أهل الشرك (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) . وقال فى الحض على التصدق والعفو (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) . وقال فى أثر التوبة (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) وقال فى أثر الاستغفار (والذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله) ومثلها فى ذلك « وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون » وقال فى عدل الجزاء (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وقال فيه أيضا وهى أشد (ومن يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) روى أن عمر قال لبثنا حين نزلت ما ينفعنا طعام ولاشراب حتى أنزل الله بعد ذلك (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد له غفورا رحيما) . ومن الآيات المخيفة (وتخفى فى

نفسك ما الله مبديه) ومنها (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واليه ترجعون) ومنها أيضا أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون) ومن أضرعها قول يونس فى بطن الحوت (فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين).وقال مشددا التنبيه (أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين) وقال موازنا بين المطيع والعاصى ومهددا (أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ماشئتم انه بما تعملون بصير) وقال فى ذلك أيضا (وأسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وقال فى المبادرة بالاستجابة (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير) وقال على لسان الكافرين فى تمنيهم العودة (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) وقال فى انطباعهم على الشر (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) وقال فى تضرعهم لأهل الجنة (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون) وقال فى وصف المتقين ونعيمهم بدار النعيم وهو ما جعلناه آخر هذه الآيات راجين منه ماأكرمه أن يجعلنا فى زمرتهم (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون)

النثر فى صدر الاسلام

عرفت أن نثر الجاهلية كان يظهر فى صورة الخطبة والوصية أو المفاخرة والمنافرة أو المثل والحكمة، وعرفت الاسباب التى أنتجت فى ذاك العهد كل نوع من هذه الأنواع، والأغراض التى كان يقال فيها، كما عرفت الميزات التى كانت له بصفة عامة من حيث الألفاظ والاساليب ثم المعانى والأخيلة، وكما عرفت أيضا أن الكلام عنه لم يتناول الكتابة لانعدامها لا لأن العرب كانوا أميين لايقرءون ولا يكتبون بل لأنهم كانوا يعيشون عيشة بداوة لا أثر للحضارة فيها، والكتابة خطية كانت أو انشائية أثر من آثار الحضارة لايمكن أن توجد بدونها كما أن الحضارة ليست بحال فى غنى عنها. ولكن الاسلام وقد عرفت فيما سبق من أدب هذا العام مدى تأثيره فى العرب حسا ومعنى غير من أوضاع هذا النثر تغييرا كبيرا فأوجد الكتابة لحاجة الملك والسلطان اليها، وأبقى على الخطابة ورقى منها لهذه الحاجة عينها ولحاجة الدين نفسه اليها، ثم أعدم المنافرة والمفاخرة لقضائه على عصبية الجاهلية ونعرتها، أما المثل فقد انعدم تقريبا لأنه كان قائما قبل الاسلام على ضعف الرابطة الاجتماعية ونمو الشخصية الفردية وفراغ الانسان لنفسه يرقب أطوارها ويعنى بشئونها ولم يك هذا متوافر فى صدر الاسلام إذ انساقت الأمة بمجموعها الى الغزو والجهاد ونشر معالم الشريعة والدين غير شاعرة أفرادها الا أنها لبنات فى بناء تفنى شخصياتها فى مجموعه وتبقى متماسكة به لاقامة أركانه فهذا هو وجه انعدام المثل مع ماراعهم من أمثال القرآن وأمثال الرسول، أما قلة الحكمة على ألسنة السواد فمنشؤها أيضا البهر الذى نالهم من حكم القرآن ومواعظه وحديث

الرسول وجوامع كلمه ، فقد ملك ذلك عليهم نفوسهم وشغل منهم حواسهم وأفكارهم فلم يدعهم ينصرفون الى قول سواها،واذا هموا لم يلبثوا أن يرتدوا فرارا من نقص يخشونه أو عيب لايرضونه.وعلى هذا كانت صور النثر فى صدر الاسلام متجلية بكثرة فى الخطابة والكتابة وهما ماسنعقد لهما وبعدئذ نذكر مميزاته بوجه عام من حيث الألفاظ والمعانى

أولا – الخطابه

١ – نماذجها

أول موقف للخطابة وقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم موقفه يوم نزلت الآية (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فانه دعا قومه وهو على الصفا ثم قال :

«أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى قالوا نعم ماجربنا عليك كذبا قال فانى نذير لكم بين يد عذاب شديد »

فلما نزلت الآية(وأنذر عشيرتك الاقربين)جمعهم عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال «ان الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله اليكم حقا والى الناس كافة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالاحسان احسانا وبالسوء سوءا وانها للجنة أبدا أو النار أبدا وانكم لأول من أنذر بين يدى عذاب شديد»

ولما تم له صلى الله عليه وسلم فتح مكة دخلها فطاف بالبيت سبعا على راحلته وأخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة فوقف على بابها فقال :

لا إله إلا الله وحده لاشريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى به فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج - ثم قال - يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » - ثم قال - يا أهل مكة ما تظنون أنى فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء، ثم رد مفتاح الكعبة إلى سادنها فهى فى عقبه إلى اليوم

فالخطبة الأولى فى نشر الدعوة والثانية فى أساس العقيدة وتعميم المساواه.

ومن خطبه عليه السلام خطبته فى التدارك قبل الفوت. حمد الله وأثنى عليه ثم قال. يا أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ان المؤمن بين مخافتين بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين آجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فو الذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار الى الجنة أو النار.

وهذه خطبته الجامعة فى حجة الوداع قال. الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتحكم بالذى هو خير أما بعد اسمعوا منى أبين لكم فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام

عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم اشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب وإن دماء الجاهلية موضوعة وان أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب، وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . والعمد قود وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله وان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ألاهل بلغت اللهم أشهد . أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم الاباذنكم ولا يأتين بفاحشة فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عوان لايملكن لأنفسهن شيئا أخذتموهن بامانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا ألا هل بلغت اللهم أشهد، أيها الناس انما المؤمنون إخوة ولايحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس منه ألاهل بلغت اللهم أشهد فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فانى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعدى كتاب الله ألا هل

بلغت اللهم أشهد . أيها الناس ان ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أ كرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم اشهد قالوانعم قال فليبلغ الشاهدمنكم الغائب . أيها الناس ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولايجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية فى أ كثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لايقبل منه صرف ولاعدل والسلام عليكم ورحمة الله

وخطب أبو بكر رحمه الله يوم السقفية فحمد الله وأثنى عليه ثم قال

أيها الناس نحن المهاجرون وأول الناس اسلاما وأ كرمهم أحسابا وأوسطهم دارا وأحسنهم وجوها وأ كثر الناس ولادة فى العرب وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم أسلمنا قبلكم وقدمنا فى القرآن عليكم قال تبارك وتعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان) فنحن المهاجرون وأنتم الانصار إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفىء وأنصارنا على العدو آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيرا فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لاتدين العرب الا لهذا الحى من قريش فلا تنفسوا على اخوانكم ما منحهم الله من فضله .

وخطب يوم بويع فحمدالله وأثنى عليه ثم قال . أما بعد فانى وليت عليكم ولست بخيركم ولكن نزل القرآن وسن النبي صلى الله عليه وسلم وعلمنا فعلمنا واعلموا أن أكيس الكيس التقى وأن أحمق الحمق الفجور وأن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له الحق وان أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق . ايها الناس انما انا متبع ولست بمبتدع فاذا رأيتمونى على حق فاعينونى وان رأيتمونى على باطل فردونى اطيعونى ما اطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولـكم

وآخر خطبة له رحمه الله تلك التى كانت فى ترشيحه عمر رضى الله عنه للخلافة فقد جمع الناس وهو مريض وأمر بمن يحمله على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس احذروا الدنيا ولا تثقوا بها فانها غدارة وآثروا الآخرة على الدنيا وأحبوها فبحب كل واحدة منهما تبغض الاخرى. وان هذا الأمر الذى هو أملك بنا لا يصلح آخره الا بما صلح به أوله ولا يتحمله الا أفضلـكم مقدرة وأملكـكم لنفسه وأشدكم فى حال الشدة وأسلسكم فى حال اللين وأعلمـكم برأى ذوى الرأى لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ولا يستحى من التعلم ولا يتحير عند البديهة ، قوى على الامور لا يجوز بشىء منها حده بعدوان ولا تقصير يرصد لما هو آت عتاده من الحذر والطاعة وهو عمر بن الخطاب

ومن كلامه فى ذلك حين عهد بالخلافه الى عمر ماحدث به عبد الرحمن بن عوف قال دخلت يوما على أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فى علته التى مات فيها فقلت له أراك بارئا ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما إنى على ذلك لشديد الوجع ولما لقيت منكم يامعشر المهاجرين أشد على من وجعى انى وليت أموركم خيركم فى نفسى فكلـكم ورم أنفه أن يكون له الأمر من دونه والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير ولتألمن النوم على الصوف الأذربى كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان والذى نفسى بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخض غمرات الدنيا ياهادى الطريق جرت انما هو والله الفجر أو البجر. فقلت خفض عليك ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فان هذا يهيضك الى مابك فو الله مازلت صالحا مصلحا لا تأسى على شيء فاتك من أمر الدنيا ولقد تخليت بالأمر وحدك فما رأيت إلا خيرا .

ومن خطبه رحمه الله ماذكره عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو خليفة فى خطبة له وقد بلغه أن قوما يفضلونه على أبى بكر فوثب مغضبا حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ ثم قال

أيها الناس إنى سأخبركم عنى وعن أبى بكر إنه لما توفى رسول الله ﷺ ارتدت العرب ومنعت شاتها وبعيرها فأجمع رأينا كلنا أصحاب محمد ﷺ أن قلنا له ياخليفة رسول الله ان رسول الله ﷺ كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة يمده الله بهم وقد انقطع ذلك اليوم فالزم بيتك ومسجدك فانه لا طاقة لك بقتال العرب فقال أبو بكر أوكلكم رأيه على هذا قلنا نعم فقال والله لأن أخر من السماء فتخطفنى الطير أحب الى من أن يكون رأيى هذا ثم صعد المنبر فحمد الله وكبره وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على الناس فقال (أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت أيها الناس أأن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب والله ليظهرن الله هذا الدين على الاديان كلها ولو كره المشركون قوله الحق ووعده الصدق بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين والله أيها الناس لو أفردت من جميعكم لجاهدتهم فى الله حق جهاده حتى أبلى بنفس عذرا أو أقتل قتلا . والله أيها الناس لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت عليهم الله وهو خير معين) ثم نزل فجاهد فى الله حق جهاده حتى أذعنت العرب بالحق

وخطب عمر إذ ولى الخلافة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال . يأيها الناس انى داع فأمنوا . اللهم إنى غليظ فلينى لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق

من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم.اللهم انى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف قصدا من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة . اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين . اللهم انى كثير الغفلة والنسيان فألهمنى ذكرك على كل حال وذكر الموت فى كل حين . اللهم انى ضعيف عن العمل بطاعتك فارزقنى النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التى لاتكون إلا بعزتك وتوفيقك . اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك والحياء منك وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى والمحاسبة لنفسى وإصلاح الساعات والحذر من الشبهات . اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك والفهم له والمعرفة بمعانيه والنظر فى عجائبه والعمل بذلك ما بقيت انك على كل شىء قدير

ومن خطبه رحمه الله قوله . أيها الناس اتقوا الله فى سريرتكم وعلانيتكم وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ولا تكونوا مثل قوم كانوا فى سفينة فأقبل أحدهم على موضعه يخرقه فنظر اليه أصحابه فمنعوه فقال هو موضعى ولى أن أحكم فيه فان أخذوا على يده سلم وسلموا وإن تركوه هلك وهلكوا معه وهذا مثل ضربته لكم رحمنا الله وإياكم

وخطب عثمان بن عفان عقب أن بويع فحمد الله وأثنى عليه ثم قال. أما بعد فانى قد حملت وقد قبلت.ألا وانى متبع ولست بمبتدع ألا وان لكم على بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثا . اتباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتم . وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ . والكف الا فيما استوجبتم. ألا وان الدنيا خضرة قد شهيت الى الناس ومال اليها كثير منهم فلا تركنوا اليها ولا تثقوا بها فانها ليست بثقة واعلموا أنها غير تاركة الا من تركها

ومن خطبه فى الوعظ قوله . أما بعد فان الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا

لتطلبوا بها الآخرة ولم يمطكموها لتركنوا اليها إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى فلا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية فآثروا مايبقى على مايفنى إن الدنيا منقطعة وان المصير إلى الله، اتقوا الله عزوجل فان تقواه جنة من بأسه ووسيلة عنده واحذروا من الله الغير والزموا جماعتكم ألا تصير أحزابا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا

وخطب وقد نقم الناس عليه فقال إن لكل شيء آفة وان لكل نعمة عاهة وان آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون ظنانون يظهرون لكم ماتحبون ويسرون ماتكرهون يقولون لكم وتقولون طغام مثل النعام يتبعون أول ناعق أحب مواردهم اليهم النازح، لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم على ولكن وقمكم وقمعكم وزجركم زجر النعام المخزمة والله إنى لأقرب ناصرا وأعز نفرا وأقمن اذا قلت هلم أن تجاب دعوتى من عمر هل تفقدون من حقوقكم شيئا فمالى لا أفعل فى الحق ماأشاء إذن فلم كنت اماما

وخطب على بن أبى طالب لما أريد على البيعة بعد قتل عثمان رحمه الله فقال:ــ

دعونى والتمسوا غيرى فانا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان لاتقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول وان الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ماأعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيرا خير لكم منى اميرا

ومن خطبة له أول خلافته . إن الله تعالى أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير

والشر فخذوا نهج الخير تهتدوا واصدفوا عن سمت الشر تقصدوا . الفرائض الفرائض أدوها إلى الله تؤدكم إلى الجنة إن الله حرم حراما غير مجهول وأحل حلالا غير مدخول وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فى معاقدها فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم وهو الموت فان الناس أمامكم وإن الساعة تحدوكم من خلفكم تخففوا تلحقوا فانما ينتظر بأولكم آخركم اتقوا الله فى عباده وبلاده فانكم مسئولون عن البقاع والبهائم وأطيعوا الله ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه

ومن خطبه فى التزهيد فى الدنيا والتحذير منها . أما بعد فانى أحذركم الدنيا فانها حلوة خضرة حفت بالشهوات وتحببت بالعاجلة وراقت بالقليل وتحلت بالآمال وتزينت بالغرور لاتدوم حبرتها ولا تؤمن فجعتها غرارة ضرارة حائلة زائلة نافدة بائدة أكالة غوالة لاتعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال تعالى سبحانه (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا) لم يكن امرؤ منها فى حبرة إلا أعقبتها عبرة ولم يلق من سرائها بطنا إلا منحته من ضرائها ظهرا ولم تطله فيها ديمة رخاء إلا هتنت عليه مزنة بلاء وحرى إذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له متنكرة وإن جانب منها اعذ وذب واحلولى أمر منها جانب وأوبا لاينال امرؤ من غضارتها رغبا إلا أرهقته من نوائبها تعبا ولا يمسى منها فى جناح أمن الا أصبح على قوادم خوف غرارة غرور مافيها فانية فان ما عليها لاخير فى شيء من أزوادها الا التقوى

من أقل منها استكثر مما يؤمنه ومن استكثر منها استكثر ممايوبقه

وخطب عليه السلام بعد التحكيم فقال . الحمدلله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ليس معه إله غيره وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وآله أما بعد فان معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحيرة وتعقب الندامة وقدكنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ونخلت لكم مخزون رأيى لوكان يطاع لقصير أمر فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة والمنابذين العصاة حتى ارتاب الناصح بنصحه وضن الزند بقدحه فكنت وإياكم كما قال أخو هوزان

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح الاضحى الغد

هذا ومن خطب الحث على الجهاد خطبته عليه السلام وقد انتهى اليه أن خيلا لمعاوية وردت الأنبار فقتلوا عامله حسان بن حسان فخرج مغضبا يجر ثوبه حتى أتى النخيلة واتبعه الناس فرقى رباوة من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال

أما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل وسيمى الخسف وديث بالصغار وقد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلا ونهارا وسرا واعلانا وقلت لكم اغزوهم من قبل أن يغزوكم فوالذى نفسى بيده ما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا فتخاذلتم وتواكلتم وثقل عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظهريا حتى شنت عليكم الغارات هذا أخو غامد قد وردت خيله الانبار وقتلوا حسان بن حسان ورجالا منهم كثيرا ونساء والذى نفسى بيده لقد بلغنى أنه كان يدخل على المرأة المسلمة والمعاهدة فتنزع أحجالها ورعثهما ثم انصرفوا موفورين لم يكلم منهم أحد كلما فلو أن امرأ مسلما

مات من دون هذا أسفا ما كان عندى فيه ملوما بل كان به عندى جديرا ياعجبا كل العجب عجب يميت القلب ويشغل الفهم ويكثر الأحزان من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم وفشلكم عن حقكم حتى أصبحتم غرضا ترمون ولا ترمون ويغار عليكم ولا تغيرون ويعصى الله عز وجل فيكم وترضون إذا قلت لكم اغزوهم فى الشتاء قلتم هذا أوان قر وصر وإن قلت لكم اغزوهم فى الصيف قلتم هذه حمارة القيظ أنظرنا ينصرم الحر عنا فاذا كنتم من الحر والبرد تفرون فأنتم والله من السيف أفر ياأشباه الرجال ولا رجال وياطغام الاحلام وياعقول ربات الحجال والله لقد أفسدتم على رأيى بالعصيان ولقد ملأتم جوفى غيظا حتى قالت قريش ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا رأى له فى الحرب لله درهم ومن ذا يكون أعلم بها منى أو أشد لها مراسا فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ولقد نيفت اليوم على الستين ولكن لا رأى لمن يطاع « يقولها ثلاثا » فقام اليه رجل يعرف بابن عفيف من الانصار ومعه أخوه فقال يا أمير المؤمنين أنا وأخى هذا كما قال تعالى (رب انى لا أملك إلا نفسى وأخى) فمرنا بأمرك فوالله لننتهين اليه ولو حال بيننا وبينه جمر الغضى وشوك القتاد فدعا لهما بخير ثم قال لهما وأين تقعان مما أريد ثم نزل

٢ — حالها

إذا علمت أن العرب فى جاهليتها كانوا خطباء لدواع اقتضت منهم ذلك وجعلت الخطابة تطغى إذ ذاك على سائر أنواع النثر حتى لقد قيل كان الكلام الجاهلى خطابة وشعرا فقو بل الشعر على تعدد فنونه بالخطابة وحدها دون سائر المنثور، فاعلم أن الاسلام إذ جاء زاد من دواعى الخطابة فجعلها أضعافا مضاعفة وجعل رجال الصدر الأول خطباء لسنا ومتكلمين مفوهين ، ذلك لأنه دين لم يقف

عند المطالب الاخروية كما كان الدين المسيحى بل جاوزها الى أمور الدنيا السياسية فعنى بها أشدعناية ورفع أمور الاجتماع درجات باسقة حتى فى عباداته من صلاة وحج وزكاة وصوم فلم يدع مجتمعا إلا حض عليه أو أوجبه وطلب فيه من القول ماهو ضرورى له كخطبة الجمعة والعيدين والموقف من عرفات وغيرها ، ثم لم يدع الصلة بين الحاكم والمحكوم فوضى فجعل لكل حقوقا وعلى كل واجبات ووطد دعائم الشورى بين الطرفين فلريك هناك غنى عن أن يخطب الحاكم المحكوم ويستمع المحكوم للحاكم فى حدود الشريعة والدين غير خائف أن يرد عليه قولا خارجا أو ينقض له حكما جائرا لما ضمن له من حرية واسعة النطاق وارفة الظلال ، فهذا الى ماكان للقوم فى ذلك الصدر من فصاحة منطق وبلاغة قول تحملهم اذا تكلموا أن يطيلوا وإذا سمعوا أن يستزيدوا والى ماكان للاسلام من حاجة إلى القول فى نشر تعاليمه والرد على خصومه الذين كانوا لازالوا ينقدونه ويحاجون رجاله فى قوة منطق وشدة لدد ، كل أولئك جعل هذا العهد عهد خطابة صرفة لا مزاج لها من شعر الا ما كان على عهد النبي فى الرد على شعراء المشركين

ثم زاد عظمة الخطابة أن جاء القرآن نثرا لاشعرا ، وأن بلغ بنثره من التأثير فى النفوس والوصول الى مواطن الحجة والاقناع مالم يبلغه الشعر من قبل ، وأن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم غير شاعر ، وأن تصرف بخطابته تصرفا تناول شتى الأمور من دعوة الى الدين تثبت كلمة التوحيد الى بيان لأحكامه يضع أسس التشريع الى ما يحتاج اليه ذلك من وعظ وتذكير ووعيد وتهديد فالى غير هذا من جلائل الأمور التى كان يقصد قصدها وينحو نحوها فى فصاحة لسان ليست لغيره وذرابة منطق اختص بها دون سواه وتصرف

بالقول بعيد المدى فى خطاب العرب على تنائى الديار واختلاف اللهجات .
ثم اقتدى به خلفاؤه من بعده فحادوا عن الشعر الذى فتر ماكان منه فى حياته
كما حاد وتصدوا بخطبهم إلى مثل ما كان يتصدى ثم اقتحموا أبوابا جديدة
لم تك مفتوحة على أيامه عليه صلوات الله من خلاف بين المهاجرين والأنصار
على الخلافة حين قبض،ومن ردة العرب أول خلافة أبى بكر، ومن اتساع
الفتوح وامتداد رواق الاسلام مدة خلافة عمر وصدرا من خلافة عثمان ، ومن
تطلع الأمويين وعثمان منهم الى التملك وسعة النفوذ وإعادة مجد كان لهم فى
الجاهلية فأضاعه تأخرهم عن الاسلام فقد جر هذا التطلع الى تسييرهم أمور
الدولة على مالا تحب الامة ومالا ترضى الجماعة فبدأ بغض الناس لعثمان الذى
مكنهم من هذا يدب فى النفوس ، حتى اذا ما فاض فائضها تحركوا الى سبيل
الخلاص منه فكان أن هجموا عليه فى بيته وقتلوه. ولكن هيهات أن يكون
فى ذلك للأمة خلاص انما هو باب فتنة أى فتنة انفتح على مصراعيه فدخلت
الأمة منه الى فرقة لاجمع لها والى خلاف لم يأت بعده اتفاق والتاريخ خير
محدث عما كان بين العلويين والأمويين وبينهما والزبيريين وبين هؤلاء جميعا
والخوارج الناقمين مما أدي الى حرب الجمل وحروب صفين وأنهى عهد الخلفاء
بقتل على رحمه الله سنة أربعين ولكنه لم ينته هو كما سيأتى فى اتمام القول على
الخطابة مدة الامويين. فالخطابة فى صدر الاسلام كان عليها أن تتناول هذ
فوق أنها شعيرة من شعائر الدين، ورسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها فيما
تتطلبه هذه الشعائر وفيما تدعو اليه نظم الاجتماع ولكن خلفاءه من بعده
تولوها فى هذه الشعائر وفيما جد من أوجه خلاف بدأت يوم السقيفة كما تقدم
ثم توارت وشغل الناس الغزو والجهاد واقرار الدين فيما كان يفتح من بلاد

حتى كان ما كان من خلاف ذكرناه فاتسع أفقها وتعدد غرضها وعظم شأنها وتولاها كل ذى مكانة مواليا أو معاديا حتى صعب على المحصين حصر أغراضها وعد رجالها وإذا ذكروا أغراضا أو عدوا رجالا كان ذلك منهم على سبيل التمثيل لا بقصد التعيين .

ولقد أمد القرآن الكريم والحديث الشريف الخطابة فى هذا العصر بالماعون القوى والمدد الفياض فقلدهما الخطباء أيما تقليد واقتبسوا منهما الالفاظ والاساليب ووافقوها فى المعانى والاغراض وتأثروهما فى سوق الادلة والبراهين وأكثروا الاستشهاد بهما كما كان رسول الله يستشهد بالقرآن، وهذه ظواهر تراها فيما أسلفنا من نماذج له صلى الله عليه وسلم ولخلفائه الاخيار قد ميزت خطابة هذا العهد عن خطابة الجاهليين،هذا إلى ما بينهما غير ذلك من تباين فى الاغراض تراه فى إعدام قديم كخطب المفاخرات والمنافرات ، وفى إيجاد جديد كخطب الدعوة إلى العقيدة الحقة وسن شرائع الدين وتنظيم الملك الشاسع وتثبيت قواعده على الاساس المتين ، وفى تحوير نوع كان كخطب الغزو والجهاد التى حلت محل خطب التحريض على الغارة والقتال،إلى غير ذلك مما لم يبق معه من الخطب على حاله إلا خطب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وخطب العظة والعبرة والذكرى والانابة،على أن هذه أيضا أخذت فى صدر الاسلام طريقا دينيا وكثرت كثرة شاملة وأوجبت فى بعض الفرائض كالصلاة .

وللخطابة الاسلامية فوق هذا ميزات أخر . منها تدولها بين طرفى الايجاز والاطناب،ففيها الايجاز المومى والاطناب المطيل على عكس العهد الجاهلى الذى لا يكاد يجاوز المساواة وإذا أطنب أو أوجز كان غير بالغ الطوفين .ومنها اتخاذها فى المبدأ طريقا واحدا هو حمد الله وتوحيده والثناء عليه وتعظيمه

وقد تضم اليه الصلاة على خاتم أنبيائه وصفوته من خلقة . والبدء بالحمد والثناء شيء عام حرص عليه جميع الخطباء ولذلك لما خلت منه خطبة زياد بعد سميت بالبتراء. أما ختامها بشيء من غيرها فلم يك متبعا عند جميع الناس كما لم يك واحدا عند من سلكوا مسلك هذا الختام، إنما كان كذلك بالنظر الى كل خطيب فقد كان آخر كلام أبي بكر الذي ينهي به خطبته (اللهم اجعل خير زماني آخره وخير عملي خواتمه وخير أيامي يوم لقائك) وكان آخر كلام عمر (اللهم لاتدعني في غمرة ولا تأخذني على غرة ولاتجعلني من الغافلين)

ومنها الاستشهاد فيها بالشعر وان كان ذلك على قلة وندرة لاعلى كثرة وشيوع كما تقدم في الاستشهاد بالقرآن والحديث، وقد سبق استشهاد على في احدى خطبه ببيت منه على أن هذا الاستشهاد كان قد يزيد عن البيت حتى يكاد يساوي الخطبة كلها كما حدث من أبي بكر وقد عتب عليه الانصار في أمر فرقي المنبر وحمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال : يامعشر الانصار لو شئتم أن تقولوا إنا آويناكم في ظلالنا وشاطرناكم في أموالنا ونصرناكم بأنفسنا لقلتم ، وإن لكم من الفضل مالا يحصيه العدد وان طال به الأمد فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوي .

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا تلاقي الذي يلقون منا لملت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ظلال بيوت أدفأت وأظلت

وإنما عددنا هذه ميزة على قلتها لخلو خطب الجاهلية منها

هذا ولقد بقي للخطابة في هذا العهد كثير من عادتها الجاهلية القديمة فقد كان الخطباء لايخطبون الا قائمين وعلى نشز من الأرض يشرفون منه على السامعين

ومن ثم سنت المنابر فى بيوت الله . وكانوا إذا قاموا اعتمدوا على شىء فى أيديهم وقد يجمع الخطب بين سيف أو قوس فى يساره وعصا فى يمينه ، هذا إلى ما يعنون به أيضا من اعتجار العمامة والاشتمال بالرداء وحسن الزى وإصابة الاشارة وجهارة الصوت وإجادة الايقاع مع جمال الموقف وتمام الوقار إلى غير ذلك مما إذا صحب فصاحة الخطيب وبلاغته وصل ببيانه الغاية المنشودة من نفوس السامعين وحقق الغرض المطلوب فى قلوب الشاهدين .

هذا وخطباء صدر الاسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحصون كثرة وأعظمهم الخلفاء الراشدون والقواد المحنكون وكثير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين غير أنه من المجمع عليه أن أخطب خطبائه غير مدافع ولا منازع بعد رسول الله هو ابن عمه وزوج ابنته على بن أبى طالب رحمه الله .

ثانيا - الكتابة

١ — نماذجها

كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك الفرس . بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وأدعوك بدعاية الله عز وجل فانى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين أسلم تسلم فان توليت فان اثم المجوس عليك .

وكتب إلى ملك الروم بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى أما بعد فانى أدعوك بدعاية

الاسلام أسلم تسلم . أسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك إثم الأريسيين ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضنا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .

وكتب إلى المقوقس عظيم القبط. بسم الله الرحمن الرحيم .من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فعليك إثم القبط ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .

وكتب إلى النجاشى ملك الحبشة. بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة . إنى أحمد الله اليك الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم البتول الطيبة الحصينة حملته من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فانى رسول الله وانى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى وقد بعثت إليكم ابن عمى جعفرا ومعه نفر من المسلمين والسلام على من اتبع الهدى .

وكتب إلى أكثم بن صيفى التميمى. بسم الله الرحمن الرحيم :من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفى ، أحمد الله إليك إن الله أمرنى أن أقول لا إله الا الله أقولها وآمر الناس بها والخلق خلق الله والأمر أمر الله خلقهم وأماتهم وهو ينشرهم ولتعلمن نبأه بعد حين .

ولما ادعى مسيلمة النبوة وكتب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام (من مسليمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك . أما بعد فانى قد أشركت فى الامر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون)

كتب اليه صلى الله عليه وسلم . بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب السلام على من اتبع الهدى أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين

وعهد أبو بكر الصديق إلى عمر بالخلافة عند موته فقال

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويتقى فيها الفاجر . انى استعملت عليكم عمر بن الخطاب فان بر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب والخير أردت ولكل أمرىء ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون

وهذه وصاته له بعد العهد

انى مستخلفك من بعدى وموصيك بتقوى الله . إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار وعملا بالنهار لا يقبله بالليل وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة فانما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا . إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فاذا ذكرتهم قلت إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم فاذا ذكرتهم

قلت إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء . وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغبا راهبا ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقى بيده إلى التهلكة . فاذا حفظت وصيتى هذه فلا يكن غائب أحب اليك من الموت وهو آتيك وإن ضيعت وصيتى فلا يكن غائب أبغض اليك من الموت ولست بمعجز الله

ولما استخلف عمر رضى الله عنه كان أول كتاب كتبه موجها إلى أبى عبيدة رحمه الله وهو . أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ماسواه الذى هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذى يحق عليك . لاتقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس واياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة وقد أبلاك الله بى وأبلانى بك فغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها واياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم

ولما صالح أهل إيلياء «هى بيت المقدس» كتب لهم هذا العهد

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيلياء من الامان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لاتسكن كنائسهم ولاتهدم ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن ايلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم فمن خرج منهم فأنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعلية مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن أحب من أهل

ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبانهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبنانهم حتى يبلغوا مأمنهم.

وهذه رسالته إلى أبي موسى الأشعرى فى القضاء قد جمع فيها كما قال المبرد جمل الاحكام واختصرها بأجود الكلام وجعل الناس بعده يتخذونها إماما ولا يجد محق عنها معدلا ولا ظالم عن حدودها محيصا وهى

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلى اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا . لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم اعرف الأشباه والامثال فقس الامور عند ذلك واعمد الى أقربها الى الله وأشبهها بالحق . واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى اليه فان أحضر بينته أخذت له بحقه والا استحللت عليه القضية فانه أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا فى حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا فى ولاء أو نسب فان الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والايمان . وإياك والغلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فان الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين

الناس ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام .

ولما سن للناس أمر الشورى فى انتخاب الخليفة دفع الى ابنه كتابا وقال اذا اجتمع الناس بعدى على رجل فادفع اليه هذا الكتاب وأقرئه منى السلام وهو :ــ

أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله ، وأوصيه بالمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله،أن يعرف حقهم ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالانصار خيرا الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وأن يشركوا فى الامر . وأوصيه بذمة الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم .

ولما ولى عثمان الخلافة كتب الى أمراء الامصار

أما بعد فان الله أمر الائمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جباة ، وان صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يصيروا رعاة فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والامانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتاخذوهم بالذى عليهم ثم العدو الذى تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء

وكتب إلى أمراء الاجناد .

أما بعد فانكم حماة المسلمين وذادتهم وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنا بل

كان عن ملأ منا ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما لكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فانى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه

وكان كتابه إلى العامة،أما بعد فانكم انما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم فان أمر هذه الامة صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم . تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الاعراب والأعاجم القرآن،فان رسول الله ﷺ قال « الكفر فى العجمة » فاذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا .

وكتب رحمه الله حين أحيط به إلى على بن أبي طالب يقول

أما بعد فانه قد جاوز الماء الزبى وبلغ الحزام الطبيين وتجاوز الامر بى قدره وطمع فى من لا يدفع عن نفسه

فان كنت مأكولا فكن أنت آكلى وإلا فادركنى ولما أمزق

وكتب على رحمه الله إلى معاوية بعد وقعة الجمل

سلام عليك أما بعد فان بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار فاذا اجتمعوا على رجل وسموه اماما كان ذلك لله رضا،وان خرج عن أمرهم خارج ردوه إلى ما خرج عنه فان أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا . وان طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما وكان نقضهما كردهما فجاهدتهما بعد ما أعذرت اليهما حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون فادخل فيما دخل فيه المسلمون فان أحب الأمور إلي قبولك العافية،

وقد أكثرت فى قتلة عثمان فان أنت رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ثم حاكمت القوم إلى حملتك وإياهم على كتاب الله وأما تلك التى تريدها فهى خدعة الصبى عن اللبن . ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان . واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون فى الشورى وقد بعثت اليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله وهو من أهل الايمان والهجرة فبايعه ولا قوة إلا بالله

فلم يبايع معاوية وكتب اليه . من معاوية بن صخر إلى على بن أبى طالب . أما بعد فلعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ولكن أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الانصار فاطاعك الجاهل وقوى به الضعيف وقد أبى أهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان فان فعلت كانت شورى بين المسلمين ولعمرى ما حجتك على كحجتك على طلحة والزبير لانهما بايعاك ولم أبايعك وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل العراق لان أهل العراق أطاعوك ولم يطعك أهل الشام وأما شرفك فى الاسلام وقرابتك من رسول الله ﷺ وموضعك من قريش فلست أدفعه .

فكان جواب على هذه الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم من على بن أبى طالب الى معاوية بن صخر أما بعد فانه أتانى منك كتاب امرىء ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده دعاه الهوى فأجابه وقاده فاتبعه . زعمت أنك انما أفسد عليك بيعتى خطيئتى فى عثمان ولعمرى ما كنت الا رجلا من المهاجرين أوردت كما أوردوا وأصدرت كما

أصدروا وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالعمى وبعد فما أنت وعثمان إنما أنت رجل من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه فان زعمت أنك أقوى على ذلك فادخل فيما دخل فيه المسلمون ثم حاكم القوم إلىّ . وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزبير، وأهل الشام وأهل العراق،فلعمرى ما الأمر فيما هنالك إلا سواء لأنها بيعة شاملة لايستثنى فيها الخيار ولا يستأنف فيها النظر .وأما شرفى فى الاسلام وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعى من قريش فلعمرى لواستطعت دفعه لدفعته

على أن المكاتبات قد دامت بينهما طويلا حتى قامت الحرب فلنقف عند هذا القدر منها ولنجعله آخر ماتخيرناه من نماذج الكتابة فى عهد الراشدين الحافل بها وبالخطب لهم ولغيرهم وان كنا اقتصرنا فى النماذج على كلامهم رحمهم الله لضيق المقام

٢ — حالها

قلنا إن العهد الجاهلى لم يكن عهد كتابة لأن العيش فيه كان عيش بداوة، والكتابة بنوعيها أثر من آثار الحضارة وكلتاهما لا توجد بدون الأخرى، فكان من الطبيعى وقد جاء الاسلام بنظام غير بدوى وأوجد ملكا وسلطانا خلف عليه دولتى العالم العظيمتين إذ ذاك أن توجد الكتابة بوجود هذا السلطان الجديد وهذا ما كان ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم راسل الملوك وذوى النفوذ يعلمهم برسالته ويدعوهم إلى دينه برسائل شتى ذكرنا منها طرفا ، واستخدم فى قيدها ذلك النفر الذى كان يعرف القراءة والكتابة والذى كان يتولى له كتابة وحيه ، ثم كان منه أول بعثته أن جعل فداء القارىء الكاتب

من الامرى تعليم القراءة والكتابة عشرة من أولاد الصحابه . وبهذه السنة التى جرى عليها عرف فضل الكتابة إنشائية وخطية وأنه لاغنى للمسلمين فى ملكهم الجديد وسلطانهم العتيد عن استخدامها فسار على ذلك خلفاؤه من بعده سيرة ابتدءوها كما ابتدأ ولكنها لم تزل تنمو بنمو الفتوحات وتتسع باتساع النفوذ حتى انتشرت الكتابة انتشارا عظيما فتحقق لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يرغب فيه وتولد فى كتابة الترسل ضرب من الانشاء تملك زمام الفصاحة والبلاغة فى سداد قصد ونبل غرض وقوة أداء وتمام إيجاز مع احتذائه القرآن فى الجزالة من دون غرابة وامتداد الجمل فى غير تعقيد حتى نعت عن جدارة واستحقاق بانه السهل الممتنع حقا . وهذا واضح فيما أسلفنا من نماذج فى العهود والعقود والوصايا والعظات والمخابرات السياسية والأوامر الرسمية الى آخر ماذكرناه :

استمرت الكتابة طوال صدر الاسلام شركة بين رجاله لايختص بها فريق دون فريق فالنبي وأصحابه من بعده كانوا كلهم كتابا ينشئون بملكتهم ويكتبون بأيديهم أو يملون غيرهم إن لم يكونوا كاتبين وقل أن يكلف أحدهم غيره الكتابة عنه واذا كان لم يك إلا كما يفعل الأخ للأخ والصديق للصديق وبهذا لم توجد طائفة خاصة تدعى طائفة الكتاب كما صارت اليه الحال بعد . غير أنه لما اتسعت الفتوح على عهد عمر رحمه الله فكثرت موارد الدولة ووفرت الغنائم احتاجت الدولة الى إنشاء ديوان يضبط هذا الوارد ويحصى الصادر وبخاصة أعطيات الجنود فأنشأه رضى الله عنه لذلك ولكنه لم يزل على أيامه وأيام الخليفتين بعده مقصورا على الضرورى من هذه الناحية فقط أما سائر فروع الكتابة الديوانية من خراج وغيره وما أكثر تشعبها وامتداد أغصانها فكانت تؤدى بلغات الأمم المفتوحة وهي الفارسية فى فارس والعراق واليونانية

والرومانية بالشام ، واليونانية والقبطية بمصر ، إلى أن كان تعريب الدواوين على عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، ولم يك بد لدولة العرب الناشئة من هذه الاستعانة لقرب عهدهم بالبداوة ولاستحالة التعريب عليهم فى هذه الدواوين ذات الأمور الاصطلاحية المختلفة الألوان قبل أن ينشأ جيل عربى يعرف لغات الامم المفتوحة وآخر من أبناء هذه الأمم يجيد لغة العرب وأنى لذلك أن يتم الا بعد فترة من الزمن لم تنقض كما تقدم إلا فى أيام عبد الملك وابنه الوليد

وللكتابة فى هذا العهد مميزات لم تجتمع كلها معا فى غيره من العهود

منها ما يتعلق ببدء الرسالة وختمها، فقد كان صلى الله عليه وسلم يفتتح كتبه بالبسملة ويكتب بعدها من محمد رسول الله إلى فلان وبعدها السلام عليكم للمسلم والسلام على من اتبع الهدى لغيره ثم يعقب السلام بالتحميد فيقول إنى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو أو نحو ذلك ومن التحميد ينتقل إلى الغرض المقصود بعد قوله أما بعد أو بدونها. وكان يختمها غالبا باحدى صيغتى السلام السابقتين وليس معنى ذلك أن كل كتاب له صلى الله عليه وسلم كان يشتمل على كل هذه الأشياء فان بعضها جاء خلوا من بعضها كما هو واضح فيما تقدم ومن أجمعها لها كتابه عليه الصلاة والسلام إلى خالد بن الوليد وكان قد بعثه إلى بنى الحارث فأجابوه إلى الاسلام وهو « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد . سلام عليك فانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد فان كتابك جاءنى مع رسولك يخبرنى أن بنى الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم وأجابوا إلى ما دعوتهم اليه من الاسلام وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن قد هداهم الله بهديه فبشرهم وأنذرهم وأقبل

وليقبل معك وفدهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » . وقداقتدى به فى ذلك خلفاؤه من بعده وكان أبو بكر يكتب من أبى بكر خليفة رسول الله ثم كان عمر يكتب من عمر خليفة خليفة رسول الله ، ولما كان فى تكرار كلمة الخليفة ثقل وكانت الاقامة على استمرار تكرارها بتكرار الخلفاء مما لا سبيل اليه اقترح عليه أن يلقب نفسه بأمير المؤمنين ففعل وصار يكتب من عبد الله عمر أمير المؤمنين وصارت هذه سنة الخلفاء من بعده

ومنها خلوها من ألفاظ التعظيم والتفخيم . وكما يتضح هذا فى مبادئها التى قدمنا من ذكر اسمى الكاتب والمكتوب اليه مجردين الا من الزم الصفات التى لا بد منها كالرساله مع النبي والخلافة أو الامرة مع الخلفاء والأمراء ، يتضح كذلك فى استخدامهم الضمائر على حقائقها المفرد للمفرد والمثنى للمثنى والجمع ليس الا للجمع ،فيقول الكاتب عن نفسه أناوبى وجاءنى ، وعمن يخاطبه أنت وبك وجاءك وقد استمر هذا التبسط طابعها حتى انسلخ هذا العهد وشطر من العهد الأموى .

ومنها ما تقدم ذكره من احتذائها حذو القرآن فى الجزالةمن دون غرابه وامتداد الجمل فى غير تعقيد وذلك لمكانة الكاتب والمكتوب إليه فى العربية ورسوخ قدمهما فى الفصاحة. هكذا كان طابعها لا يخرجون بها عنه إلا لسبب يدعو إلى تسهيل أو تصعيب مراعاة لحال المكتوب إليه. ولذلك تجد السهولة بادية فى كتبه صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الأعاجم وحكامها وتجد الغرابة أبدى منها إذا كان معدن المقصود يستدعيها كما فعل عليه الصلاة والسلام فى كتابه إلى وائل بن حجر الكندى وأهل حضرموت إذ يقول (إلى الاقيال العباهلة والارواع المشابيب . وفى التيعة شاة لا مقورة الألياط ولا

ضناك وأنطوا الثبجة. وفى السيوب الخمس . ومن زنى من بكر فاصفعوه مائة واستوفضوه عاما ومن زنى من ثيب فضرجوه بالاضاميم. ولا توصيم فى الدين ولا غمة فى فرائض الله تعالى . وكل مسكر حرام . ووائل بن حجر يترفل على الاقيال) . وعلى هذا النحو قال فى كتابه لهمدان وكتابه لبنى نهد، وهذه كانت سنته فى خطاب كل قوم بما هو من صميم لغتهم فى الترسل والوفادات هذه وقبل أن ننتقل من هذه الميزة نفسر كلمات هذا الخطاب. فالاقيال جمع قيل كالمقول وهو الملك أو من هو دونه والعباهلة جمع عبهل وهو الذى يقر على ملكه لا يزال عنه والارواع جمع رائع المعجب بمنظره أو شجاعته والمشابيب جمع مشبوب وهو الذكى الفؤاد والتيعة الاربعون والمقورة المسترخية والالياط جمع ليط وهو الجلد والضناك الكثيرة اللحم وأنطوا الثبجة أعطوا الوسط والسيوب الركاز واستوفضوه غربوه وضرجوه بالاضاميم أموه بالحجارة واحدها إضامة والتوصيم التوانى والغمة الستر ويترفل يترأس

ومنها ماتقدمت الاشارة اليه من الرمى الى الغرض دون اطالة ولا تكلف، فالمعانى يقتصر فيها على الحقائق دون مبالغة ولا تهويل والأغراض يقصد مالى الضرورى منها بلا زيادة ولا تطويل ولذلك كانت رسائلهم على طول جملها وامتداد عباراتها تضرب فى كمها الى الايجاز فلا تكاد تجد طولا الا حيث يستدعيه المقام فيكون لهذا الاستدعاء من الأيجاز ، وفيما تقدم من النماذج ولا سيما كتب رسول الله أكبر مؤيد لما نقول. وكذلك كان صحبه يوجزون كما ترى فى بعض ماتقدم وكما فعل عمر اذ كتب الى عمرو بن العاص بمصر يستنجده فى مجاعة فقال (من عبدالله عمر أمير المؤمنين الى العاصى ابن العاص سلام . أما بعد فلعمرى ياعمرو ماتبالى اذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن

معى فياغوثاه ثم ياغوثاه) وانظر رد عمرو عليه حيث يقول (الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص أما بعد فيالبيك ثم يالبيك قد بعثت اليك بعير أولها عندي وآخرها عندك والسلام) بل لقد بلغ الايجاز ببعضهم أن يجعل رسالته جملة واحدة كما فعل خالد بن الوليد مع عياض بن غنم وقد استنجده وهو محاصر بدومة الجندل فكتب اليه (من خالد الى عياض إياك أريد) ولعل هذا أوجز كتاب عرف فى الادب العربى

ومنها كثرة الاستشهاد فيها بالقرآن وهو واضح فيما ذكرناه لرسول الله وخلفائه الابرار.

أما الاستشهاد فيها بالشعر فكان كما كان فى الخطب قليلا وقد سبق بيت منه فى كتاب عثمان الى على وربما ذيل بعضهم كتابه بأبيات قصيرة أو طويلة فى معناه كما حدث فى رسالة معاوية لعلى وإجابة على له وقد تقدمتا ولكن بدون هذا التذييل فلنذكره هنا وهو قول كعب بن جعيل شاعر الشام فى آخر كتاب معاوية

أرى الشام تكره ملك العراق وأهل العراق لهم كارهينا
وكلا لصاحبه مبغضا يرى كل ما كان من ذاك دينا
اذا ما رمونا رميناهم ودناهم مثل ما يقرضونا
فقالوا على إمام لنا فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لنا فقلنا ألا لا نرى أن ندينا
ومن دون ذلك خرط القتاد وضرب وطعن يفض الشئونا

وقول النجاشى أحد بنى الحارث بن كعب شاعر أهل العراق فى آخر كتاب على

دعن يامعاوى ما لن يكونا فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا

روى الشعرين المبرد فى كامله وقال عقب كل «وبعد هذا من الذم ما نمسك عنه» يريد فى على وفى معاوية على التوالى .

هذا مايتعلق بالكتابة على عهد الخلفاء الراشدين بوجه الاجمال ومنه يعلم أن الكتابة كانت فيه كتابة رسائل فحسب ومع ذلك لم تصطبغ بصبغة فنية ذات صناعة لأن العهد كان قريبا من البداوة ، والتدوين فى كل بلد كان بلغة أهله ومافعله عمر رحمه الله خاصا بالأعطيات لا يعد تدوينا بالمعنى المعروف. نريد بهذا أن نقول إن الكتابة الديوانية بالمعنى الاصطلاحى كانت معدومة لما تقدم وإن الكتابة العلمية التى عرفت بعد فى التأليف والتصنيف كانت معدومة أيضا لأن العهد كله انقضى دون أن يدون كتاب الا ماكان من أمر القرآن فى اثباته على الرقاع ونحوها مدة أبى بكر وفى المصاحف على عهد عثمان . وكان اعتماد القوم فى دينهم ودنياهم على كتاب الله وسنة رسوله وحين الاشتباه يكون مرجعهم إلى الخلفاء والفقهاء والاجتهاد حتى أقوال النبى ﷺ وفتاوى صحابته لم يدونوها مخافة أن ينتهى بهم التدوين إلى اهمال الحفظ والاعتماد على الكتاب المعرض للضياع والتصحيف والتحريف وفى كل ذلك من الاضرار ماكانوا يحذرون ولولا اشتداد الخلاف بين القراء فى الأمصار ما أقدم عثمان على نسخ القرآن ولذلك لا نستغرب ماروى لنا من أنه حين هم بعمله هذا اصطدم قبل التنفيذ بكثير من المخالفة والنقاش :

بقى أن نذكر كلمة عن المدى الذى وصلت اليه الكتابة الخطية فى هذا العهد وقد عرفت فى الأدب الجاهلى أن الخط الذى عرف بالحجاز قبيل الاسلام كان الحيرى الانبارى وأن الذى نقله الى مكة حرب بن أمية فتعلمه عدد من أهلها كان منهم كتاب الوحى على عهد رسول الله وقد عرفت هنا أنه عمل على نشر الكتابة بما

كان منه فى أمر الفداء فأخذت تنتشر حتى جاوز كتابه الاربعين كلهم من كبار الصحابة المقربين الذين عملوا بغير ملل على تحقيق أمنيته فعلموا غيرهم حتى كثر عدد الكاتبين وعرف خط هؤلاء لما دخله مما لم يكن بأصله بالخط الحجازى. وقد استمر واحدا حتى فتحت الممالك ومصرت الامصار ونزلت جمهرة الكاتبين الكوفة فعنوا بتجويد الخط وتحسين أشكاله حتى تميز خطهم عن الحجازى شكلا وكبرا وعرف بالخط الكوفى وبذلك صار لدى العرب على عهد الخلفاء وعان من الخطوط، الحجازى ويكاد يكون أصلا للنسخ ويستعمل فى المكاتبات العادية ثم الكوفى ويكاد يكون أصلا للثلث وكان قاصرا على المصاحف وسكك النقود وحلى المساجد والقصور .

هذا ولايفوتنا أن نذكر هنا خلو الكتابة طول عهد الراشدين من الشكل الواقى من التحريف ومن الاعجام العاصم من التصحيف ثقة من القوم بأنفسهم واعتمادا على مقدرتهم واكتفاء منهم فى صحة القراءة بالرمز القليل .

مميزات النثر فى صدر الاسلام

وأثر الكتاب والسنة فيه

قبل أن نتكلم عن تلك المميزات وهذا الاثر ينبغى أن نسوق بعض نماذج لما لم نمثل له سابقا من أنواع النثر وهو المثل الذى قلنا إنه انعدم تقريبا والحكمة التى ذكرنا أنها قلت وليكن التمثيل بكثرة من كلام رسول الله الذى تناول كل أنواع المنثور بسعة وشمول وكان الثانى بعد الكتاب فى هذا التأثير .

فمن أمثالة صلى الله عليه وسلم (إن من البيان لسحرا) ويضرب فى استحسان المنطق وقوة الحجة، (ان المنبت لاأرضا قطع ولاظهرا أبقى) ويضرب لمن

يفرط فى طلب الشيء ويبالغ فيفوته على نفسه وقد يفوت معه غيره والمنبت هو المنقطع عن أصحابه فى السير وهذه التسمية واقعة عليه باعتبار ماسيكون وإن كان فى المبدأ سابقا والظهر الدابة ، (إن مما ينبت الربيع مايقتل حبطا أو يلم) ويضرب فى النهى عن الافراط والحبط انتفاخ يعترى الابل من كثرة الأكل فيميتها أو يلم أى يقارب ، (إياكم وخضراء الدمن) وهى المرأةالحسناء فى منبت السوء ويضرب فى التحذير من الحسن الظاهر الخبيث الباطن .

ومن نصائحه صلى الله عليه وسلم فى ثوب الحكمة والكلمةالجامعة قوله(رب مبلغ أوعى من سامع ، التمسوا الرزق فى خبايا الارض ، المسلمون تتكافأدماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم والمرء كثير باخوانه ، المرء مع من أحب ولاخير فى صحبة من لايرى لك ماترى له ، اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن ، إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى ، المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، الرغبةفى الدنيا تكثر الهم والحزن والبطالة تقسى القلب ، اليد العليا خير من اليدالسفلى، الصبر عند الصدمه الأولى ، ترك الشر صدقة ، حبك الشيء يعمي ويصم ، ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ألا أخبركم بأبغضكم إلى وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون ، ألا أخبركم بشراركم من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده ألا أخبركم بشر من ذلكم من لايقيل عثرة ولايقبل معذرة ولايغفر ذنبا ألا أخبركم بشر من ذلكم من يبغض الناس ويبغضونه ، أمرنى ربى بتسع الاخلاص فى السر والعلانية والعدل فى الغضب والرضا والقصد فى

الفقر والغنى وأن أعفو عمن ظلمنى وأصل من قطعنى وأعطى من حرمنى وأن يكون نطقى ذكرا وصمتى فكرا ونظرى عبرة ، المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، يد الله مع الجماعة ، الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ، كفى بالسلامة داء ، دع مايريبك إلى مالا يريبك ، احترس من الناس بسوء الظن ، الدال على الخير كفاعله ، جبلت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها ، إن ذا الوجهين لايكون عند الله وجيها ، زرغبا تزدد حبا ، ماعال من اقتصد ، الحياء شعبة من الايمان ، خير الامور أوسطها ، إياك وما يعتذر منه ، الوحدة خير من جليس السوء ، البركة فى البكور ، المرء على دين خليله ، كاد الفقر أن يكون كفرا ، من أصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ، رحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم ، ليس لك من مالك إلا ماأكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت ، الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله ، ما أملق تاجر صدوق ، التاجر الجبان محروم ، العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، لاتزال أمتى صالحا أمرها مالم تر الفيء مغنما والصدقة مغرما ، لايراح القتات رائحة الجنة (والقتات النمام) وفى الحديث أنه قال (لعن الله المثلث) فقيل ومن المثلث يارسول الله قال الذى يسعى بصاحبه إلى سلطانه فيهلك نفسه وصاحبه وسلطانه وقال لو تكاشفتم ماتدافنتم يريد لو علم بعضكم سريرة بعض لامتنع عن تشييعه ودفنه وقال للانصار فى حديث جرى إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع .

ومن أمثال غيره صلى الله عليه وسلم قول أبى بكر إن البلاد موكل بالمنطق يضرب فى الاحتراس من عثرات اللسان ، قول على إنما أكلت يوم أكل الثور الابيض يضرب للرجل يرزأ برزء أخيه ، قول معاوية وقد علم موت الاشتر

النخعى من ميم فى عسل إن لله جنودا منها العسل يضرب عند الشماتة بما يصيب العـدو ؛ قول عمر بن العاص حرك لها حوارها تحن يضرب فى تذكير المرء بما يشجيه ؛ قول خالد بن الوليد عند الصباح يحمد القوم السرى يضرب فى احتمال المشقة رجاء الراحة ، قول الحباب بن المنـذر الأنصارى يوم السقيفة أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب يضرب للرجل يشتفى برأيه وعقله والجذيل تصغير جذل وهو أصل الشجرة تتحكك فيه الابل الجربى ليخف ألمها والعذيق تصغير العذق وهو النخلة وترجيبه جعل رجبة حوله من الحجارة تكون دعامة له كيلا يقع ولا ترجب النخلة إلا إذا كانت كريمة

ومن حكم غيره صلى الله عليه وسلم وجوامع كلمه قول أبى بكر الصديق ليست مع العزاء مصيبة ، الموت أهون مما بعده وأشدما قبله ، أصلح نفسك يصلح لك الناس ، إن فاتك خير فأدركه و إن أدركك شر فاسبقه. وقول عمر من كتم سره كان الخيار فى يده ، أعقل الناس أعذرهم للناس ، لا تؤخر عمل يومك لغدك ؛ لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، كفى المرء غيا أن تكون فيه خلة من ثلاث أن يعيب شيئا ثم يأتى مثله أو يبدو له من أخيه ما يخفى عليه من نفسه أو يؤذى جليسه فيما لا يعنيه ، ثلاث يثبتن لك الود فى صدر أخيك أن تبدأه بالسلام وتوسع له فى المجلس وتدعوه باحب الاسماء اليه . وقول عثمان إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، إن الله أمر الأئمـة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم أن يكونوا جباة ، إن لكل شىء آفة وإن لكل نعمة عاهة ، إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، بادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، آثروا ما يبقى على ما يفنى ، طغام مثل النعام يتبعون أول ناعق أحب مواردهم اليهم النازح. وقول على لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهـل ولا مـيراث

كالادب ولا ظهير كالمشاورة ، من لانت كلمته وجبت محبته ، قيمة كل امرى ما يحسن ، من أبطأ به نسبه لم يسرع به حسبه ، ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاث لا يعرف الشجاع إلا فى الحرب ولا الحليم إلا عند الغضب ولا الصديق إلا عند الحاجة،يأتى على الناس زمان لا يقرب فيه الا الماحل ولا يظرف فيه إلا الفاجر ولا يضعف فيه إلا المنصف يتخذون الفىء مغنما والصدقة مغرما وصلة الرحم منا والعبادة استطالة على الناس فعند ذلك يكون سلطان النساء ومشاورة الاماء وامارة الصبيان ، القلب إذا أكره عمى. وقول ابن عباس العلم أكثر من أن يؤتى على آخره فخذوا من كل شىء أحسنه ، الحرمان خير من الامتنان، صاحب المعروف لا يقع فان وقع وجد متكأ ، لجليسى على ثلاث أن أرميه بطرفى إذا أقبل وأوسع له إذا جلس وأصغى اليه إذا حدث. وقول ابن مسعود القلوب تمل كما تمل الابدان فابتغوا لها طرائف الحكمة. وقول معاوية وقد قيل له ما المروءة فقال احتمال الجريرة وإصلاح أمر العشيرة فقيل له وما النبل فقال الحلم عند الغضب والعفو عند القدرة وكذا قوله انى لا أحمل السيف على من لا سيف له وان لم تكن الا كلمة يشتفى بها مشتف جعلتها تحت قدمى ودبر أذنى

هذه نبذة من الامثال والحكم أطلنا فيها وبخاصة من كلام رسول الله ليكون مع ماقدمنا من آى القرآن فى نواحى اعجازه وفصاحته وبلاغته تكأة لما نريد الان من بيان تأثيرهما فى نثر صدر الاسلام ومميزات هذا النثر وهو :—

١ — فى القرآن الكريم

لقد تأثر النثر بالقرآن الكريم تأثرا عميقا ظهر واضحا فى المقاصد والاغراض وفى المعانى والاخيلة وفى الالفاظ والاساليب

فاما من حيث الاغراض والمقاصد فالاثر واضح فيما تقدم من ظهور نوع

جديد لم يك فى الحياة الجاهلية وهو الكتابة التى اقتضاها الانتقال من عيش البداوة إلى عيش الحضارة ومن حكم القبيلة الى حكم الدولة وقد استعملت فى أغراض شتى تراها واضحة فيما أسلفنا من نماذج لها كالدعوة إلى الاسلام وتبيين عقائد الدين ووصايا الخلفاء والقادة والامراء واثبات العهود والمصالحات ونشر الاوامر العامة وتداول الحوار السياسى إلى غير ذلك مما لم يوجد قبل الاسلام. وهو واضح أيضا فيما أجرينا فى الخطابة من الموازنة بين أغراضها جاهلية واسلاما بحال أرث ماجد وما مات وما حدث فيه شىء من التبديل والتحوير وان فيما تقدم من أمثال وحكم لمسحه ترى أن نزعه الامثال فى صدر الاسلام أصبحت اجتماعية تشاكل الحياة الجديدة وأن مرمى الحكم الاسلامية أصبح موجها الى ما يحض عليه الدين ويقتضيه نظام التشريع

وأما من حيث المعانى والأخيلة فقد اتسعت آفاقها حسا ومعنى باتساع مادة المشاهدات والمعقولات وتم اتساقها وتنظيمها بما كان من ارتقاء الفكر بقواعد الدين ونظم الاجتماع. فبعد أن كانت فى الجاهلية لا تجاوز ذكر معيشتهم البدوية ومرافقها من حل وترحال واستدرار غيث وانتجاع كلأ واستنبات نبت ونتج حيوان ، وأمورهم الاجتماعية من إثارة المنازعات والمشاحنات وما تجر اليه من حض على ادراك ثأر وتفاخر بمال وولد إلى ما يتبع هذين الامرين من وصف ما بجزيرتهم وتناول شىء من عاداتهم وعقائدهم ، أصبحت تتناول فى ميدان الحس وفى ميدان المعنى ما فصلناه وشرحناه فى أول موضوع ذكرناه وهو (أثر الاسلام فى العرب وفى لغة العرب) فقد بينا ما أحدثه تأثيره فيهم حسا ومعنى معددين فى ذلك من النواحى ومكثرين له من الامثال ثم أتبعنا هذا البيان بالاثر الواضح للقرآن الكريم فى هذا الانقلاب والفضل البين له

على اللغة فى كل ما نالها من تقدم وارتقاء فليرجع اليه هناك .

أما من حيث الالفاظ والاساليب فلم يك الاثر فيها باقل منه فى الأغراض والمعانى ذلك لما رسخ فى نفوس القوم من الولع بتقليد القرآن الذى أعجزهم وكان من أهم نواحى اعجازه، الفاظه وأساليبه فان هذا التقليد قد أنتج فى الفاظ اللغة وأساليبها أمورا ذات بال .

١ ـ منها تهذيب الالفاظ بالعدول عن الحوشى الغريب وغير المستحسن من اللهجات مما أتم على اللغة توحيدها وأوصلها النهاية فى تنقيتها وتهذيبها لأن القرآن استمد الفاظه من السهل النطق على اللسان، الحسن الوقع فى الآذان، القريب المعنى من الافهام، والقوم حيث قلدوه كانوا يغترفون مما اغترف ويأخذون مما أخذ فنشأ باللغة ماذكرناه من هذا التهذيب وهجر كثير كان مستعملا من حوشى وثقيل نتيجة لهذا التقليد لا عملا بنهى من الدين ومما يلحق بهذه الناحية موت كثير من المترادفات المعروفة فى غير قريش وان لم تك بها حوشية ولا ثقل لأن القرآن الذى قلد نزل بالقرشية فى غالبه إذ كانت أعرف اللغات لدى عامة العرب والقرآن إنما يريد أن يكون مفهوما لدى جميع القبائل لا عند قبيل دون قبيل

٢ ـ ومنها موت كثير من الالفاظ لا لهذا التقليد بل لمجىء الاسلام ببديل منها أو للنهى عن استعمال مدلولاتها من طريق الدين كقولهم فى التحية عم صباحا وعم ظلاما فقد حل محله السلام وكالالفاظ الواردة فى قول الجاهلى مادحا

لك المرباع فينا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

فقد كان من عادتهم اذا غنموا أن يعطوا ربع الغنيمة وهو المرباع لقائد

الغارة وفارسها كما كانوا يعطونه الصفايا وهى كل مايستصفيه لنفسه ويختاره . والنشيطة وهى ماكانوا يغنمونه عفوا فى طريقهم الى غارة مقصودة. والفضول وهى مافضل مما لاتمكن قسمته على الغزاة كفرس مثلا ثم حكمه وهو ماكان يحكم به لنفسه فوق ذلك كله، فهذه المعانى أماتها الاسلام بما شرع من نظام الفيء وتقسيمه فماتت ألفاظها . ومثلها كثير كان مستعملا وبطل فيما حرمه الشرع من عقائد الجاهلية وأوابدها وهى مبينة تفصيلا فى باب عقد لها من الأدب الجاهلى فليرجع اليها .

٣ — ومنها التوسع فى مدلولات الالفاظ باخراجها عن معانيها اللغوية الى معان شرعية وهذا باب حافل تناول ألفاظ العقائد كالمسلم والمؤمن وأسماء الله وصفاته والرسل وصفاتها واليوم الآخر وسمعياته وأضداد كل هذه الصفات ، وتناول ألفاظ العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج ومالها من تفاصيل وماتستلزمه الصلاة من الطهارة وتوابعها ، كما تنال ألفاظ التشريع الشخصى من زواج وطلاق وتوريث والتشريع المدنى من بيع وشراء وسلم واجارة وشفعة ونحوها وغير هذين من ألفاظ أخر فى الأيمان والنذور والعتق والرق الى آخر ماهو مفصل بكتب الفقه والتشريع .

٤ — ومنها على ماتقدم فى الخطابة والكتابة من ميزات ترجع الى اللفظ والأسلوب، حسن التصرف فى صوغ العبارات والجرى على أساليب القرآن والحديث مع الاقتباس منهما والاستشهاد بهما مما جعل رجال هذا الصدر لايقفون عند الجمل القصيرة ولايلتزمون السجع بل يطيلون الجمل كثيرا عامدين الى الترسل المطلق أحيانا والى الازدواج أو السجع حينا ولذلك تنوع أسلوبهم وانبعث فيه روح القرآن والحديث انبعاثا وفيما فصلناه من وجوه إعجاز القرآن مايبين مدى هذا التأثير فى كل نواحي الفصاحة والبلاغة على تعدد فصولها

وتفرع أبحاثها فلا حاجة فيما يتعلق بالقرآن الى إعاده شيء منه .

٢ — في حديث رسول الله

أما حديث رسول الله ﷺ فقد كان له بعد القرآن التأثير البين في اللغة من جميع الوجوه التي بيناه، مقصدا وغرضا معنى وخيالا لفظا وأسلوبا ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان أفصح العرب منطقا وأبلغهم قولا نشأ في بني سعد ابن بكر وهم على ما هم عليه من الفصاحة رضيعا فارتضع منهم أفاويق الفصاحة البدوية ثم ربي في قريش يافعا فطبع على رقة الحضر وسلاسته ثم علمه الله لغات العرب جميعا دون أن يتنقل في قبائلهم أو يخالط في العشرة بطونهم وأفخاذهم فكان لذلك كله محل العجب والدهش عند مخالطيه ومعاشريه حتى لقد قال له أبو بكر رضى الله عنه لقد طفت العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك يارسول الله فمن أدبك « يريد علمك » فقال له عليه الصلاة والسلام (أدبني ربي فأحسن تأديبي) وقال له علي رحمه الله وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد بمثل ما كتب به إلى وائل بن حجر فيما تقدم، يارسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهمه فأجابه ﷺ بقوله السابق (أدبني ربي فأحسن تأديبي) فهو كما قال عن نفسه (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في سعد بن بكر). فلا غرو أن رأت العرب في كلامه ﷺ وان كان من نوع كلامهم، الفصاحة المتدفقة والبلاغة المتمكنه حتى إنه ليخاطب كل قبيل بأعلى ما عرف في لغته وأتقن ما سمع من لهجته كأنه نشأ فيهم وربي بينهم وكان ذلك فيه عن سليقة وطبع فأخذوا يقصدون قصده وينهجون نهجه حتى ازدانت ألفاظهم بدرر ألفاظه وأشرقت معانيهم بغرر معانيه وجاءت السنة مقفية للكتاب فيما دخل اللغة من تقدم وارتقاء .

على هذه الدرجة كان صلى الله عليه وسلم من البيان ثم كان صاحب الدعوة وعنده ملتقى الوفود والمتعلمين فصدر عنه من الأحاديث مااقتضاه هذا الموقف، من تفصيل لما أجمل القرآن وإيضاح لما أبهم واطلاق لما قيد وتقييد لما أطلق، ومن تشريع وتقنين فى مناحى هذه الحنيفية البيضاء، ومن وعظ وإرشاد وضرب مثل وقص قصص إلى غير ذلك مصوغا كله فى القالب الرائع والبيان الساحر فكان كما قدمنا محل الاسوة من المتكلمين والمحاكاة من الناطقين وبهذا أثر فى اللغة تأثيرا كان التالى لتأثير الكتاب

هذا على أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الابتكار فى اللغة ماأوجد بها جديدا من الاستعمال فى بعض المفردات والتركيب. فمن ذلك فى المفردات تسميته صفرا الاول بالمحرم حين أبطل الاسلام النسىء وتسميته شق الباب صيرا فى قوله (من اطلع من صير باب فقد دمر) أى دخل وتسميته العاهرة بالزمارة لانها بما تشيع من أمرها كأنما تنفخ فى بوق واطلاقه لفظ البحر على فرس ركبه فلم ينقطع جريه كما لا ينقطع تيار البحر . ومنه فى التراكيب قوله يوم بدر (هذا يوم له ما بعده) ويوم حنين (الآن حمى الوطيس) والوطيس التنور وهو موقد النار وكذا قوله (لا ينتطح فيه عنزان) وقوله (لايلدغ المؤمن من جحر مرتين) وقوله (كل أرض بسمائها) وقوله (بعثت فى نفس الساعة) وقوله لحادى ابله (رفقا بالقوارير) يريد النساء وقوله السابق فى المرأة الحسناء فى منبت السوء (إياكم وخضراء الدمن). وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لابى تميمة الهجيمى (إياك والمخيلة) فقال يا رسول الله نحن قوم عرب فما المخيلة فقال سبل الازار.

ذلك بعض ما يقال عن فضل القرآن والحديث على اللغة وإن لهما الفضل الآخر عليها هو حفظها هذا العمر المديد الذى لاينتظر أن يزول لانهما منبع التشريع وموطن الدين ثم إن عناية المسلمين بجميع العلوم العربية والشرعية لم تك إلا محافظة عليهما كى يبقيا معروفين للمسلمين غير مستغلقى المعانى على الافهام وهاتان ناحيتان لم تكونا لأي كتاب سماوي على اللغة التي نزل بها كما كانتا للقرآن .

الشعر فى صدر الاسلام

١ ـ نماذجه

قال حسان بن ثابت يتوعد قريشا بنصرة قومه لرسول الله صلى الله عليه وسلم على مشركيهم

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء
يبارين الأسنة مصغيات على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات تلطمهن بالخمر النساء
فاما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم يعين الله فيه من يشاء
وقال الله قد يسرت جندا هم الانصار عرضتها اللقاء
لنا فى كل يوم من معد قتال أو سباب أو هجاء
فنحكم بالقوافى من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء
وقال الله قد أرسلت عبدا يقول الحق ليس به خفاء
شهدت به وقومى صدقوه فقلتم ما نجيب وما نشاء
وجبريل أمين الله فينا وروح القدس ليس له كفاء
ألا أبلغ أبا سفيان عنى فانت مجوف نخب هواء
بان سيوفنا تركتك عبدا وعبد الدار سادتها الاماء
هجوت محمدا فاجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء
فان أبي ووالدتي وعرضى لعرض محمد منكم وقاء
لسانى صارم لاعيب فيه وبحرى ما تكدره الدلاء

وأبو سفيان الذى ذكر هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان كثير الهجاء للنبي. ومن هجاء حسان له هذه القطعة التى استله فيها من الشجرة الكريمة وصب عليها الهجاء وحده قال

لقد علم الأقوام أن ابن هاشم هو الغصن ذو الافنان لا الواحد الوعد
ومالك فيهم محتد يعرفونه فدونك فالصق مثل مالصق القرد
وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
وما ولدت أبناء زهرة منهم كرام ولم يقرب عجائزك المجد
ولست كعباس ولا كابن أمه ولكن هجين ليس يورى له زند
وإن امرأ كانت سمية أمه وسمراء مغمور إذا بلغ الجهد
وأنت زنيم نيط فى آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح القرد

ومن شعره يفاخر وفد تميم بقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله

إن الذوائب من فهر واخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الاله وبالامر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أوحاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
لا يرقع الناس ماأوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ماوقعوا
إن كان فى الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم لا يطمعون ولا يزرى بهم طبع
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولاجزع

وقال أبو دهبل الجمحي يمدح النبي صلى الله عليه وسلم

إن البيوت معادن فنجاره ذهب وكل بيوته ضخم

عقم النساء فما يلدن شبيهه إن النساء بمثله عقم

متهلل بنعم بلا متباعد سيان منه الوفر والعدم

نزر الكلام من الحياء تخاله ضمنا وليس بجسمه سقم

وقال كعب بن زهير

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

وماسعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

إلى أن قال

أمست سعاد بأرض لا يبلغها إلا العتاق النجيبات المراسيل

ثم أطال فى وصف الناقة إلى أن خرج منه يقول

تسعى الوشاة جنابيها وقولهم إنك يابن أبى سلمى لمقتول

وقال كل خليل كنت آمله لا ألهينك إنى عنك مشغول

فقلت خلوا سبيلى لا أبا لكم فكل ماقدر الرحمن مفعول

كل ابن أنثي وان طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

أنبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم أذنب وإن كثرت فى الأقاويل

إلى أن قال

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فى فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل

شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود فى الهيجا سرابيل

بيض سوابغ قد شكت لها حلق كأنها حلق القفعاء مجدول

لا يفرحون اذا نالت رماحهم قوما وليسوا مجازيعا اذا نيلوا

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضرب اذا عرد السود التنابيل

لا يقع الطعن الا فى نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

وقال النابغة الجعدى من قصيدة يمدح رسول الله

أتيت رسول الله اذ جاء بالهدى ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

أقيم على التقوى وأرضى بفعلها وكنت من النار المخوفة أحذرا

الى أن قال يفتخر

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له النبي فاين المظهر يا أبا ليلى فقال الجنة فقال له ان شاء الله

وقال معن بن أوس

لعمرك ما أهويت كفى لريبة ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى

ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى

وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة من الدهر الا قد أصابت فتى قبلى

ولست بماش ما حييت لمنكر من الأمر لا يمشى مثله مثلى

ولا مؤثرا نفسى على ذى قرابة وأوثر ضيفى ما أقام على أهلي

وهو صاحب الميمية التى مطلعها

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه　　بحلمى عنه وهو ليس له حلم

وهى طويلة أجاد فيها وصف الحلم والتجمل مقابلا به السفاهة والتطاول

وقال ابن مقروم الضبي يفتخر

ولقد شهدت الخيل يوم طرادها　　بسليم أوظفة القوائم هيكل

فدعوا نزال فكنت أول نازل　　وعلام أركبـه اذا لم أنزل

وألد ذى حنق على كأنما　　تغلى عداوة صدره فى مرجل

أوجبته عنى فأبصر قصده　　وكويته فوق النواظر من عل

وقال عبدة بن الطبيب يرثى قيس بن عاصم المنقرى

عليك سلام قيس بن عاصم　　ورحمتـه ما شاء أن يترحمـا

تحية من غادرته غرض الردى　　اذ زار عن شحط بلادك سلما

فما كان قيس هلكه هلك واحد　　ولـكنه بنيـان قوم تهـدما

وقال عمرو بن معد يكرب الزبيدى

ولما رأيت الخيل زورا كأنها　　جداول زرع أرسلت فاسبطرت

فجاشت الى النفس أول مرة　　فردت على مكروهها فاستقرت

علام تقول الرمح يثقل عاتقى　　إذ أنا لم أطعن اذا الخيل كرت

ومن مراثى متمم بن نويرة فى أخيه مالك وهى كثيرة وطويلة قوله

جميل المحيا ضاحك عند ضيفه　　أغر جميع الرأى مشترك الرحل

وقور اذا القوم الـكرام تقاولوا　　فحلت حباهم واستطير وامن الجهل

وكنت الى نفسى أشد حلاوة　　من الماء بالماذى بالعسل النحل

وكل فتى فى الناس بعد ابن أمه　　كساقطة احدى يديه من الخبل

وبعض الرجال نخلة لا جنى لها　　ولا ظل الا أن تعد من النخل

وقال العباس بن مرداس

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفى أثوابه أسد مزير
ويعجبك الطرير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير
فما عظم الرجال لهم بفخر ولكن فخرهم كرم وخير
بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلات نزور
ضعاف الطير أطولها جسوما ولم تطل البزاة ولا الصقور
لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصبي بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير
فان أك فى شراركم قليلا فأنى فى خياركم كثير

وقال الحطيئة يمدح بغيض بن عامر من آل لأى ويذم ابن عمه الزبرقان بن بدر من آل بهدلة وكلاهما يرجع إلى عوف بن كعب بن سعد تميم .

والله ما معشر لاموا امرأ جنبا فى آل لأى بن شماس بأكياس
لقد مريتكم لو أن درتكم يوما يجيء بها مسحى وإبساسى
وقد مدحتكم عمدا لارشدكم كيما يكون لكم متحى وإمراسى
وقد نظرتكم إيناء صادرة للخمس طال بها حوذى وتنساسى
لما بدا لى منكم غيب أنفسكم ولم يكن لجراحى منكم آسى
أجمعت يأسا مبينا من نوالكم ولا يرى طاردا للحر كالياس
ماكان ذنب بغيض أن رأى رجلا ذا فاقة حل فى مستوعر شاس
جارا لقوم أطالوا هون منزله وغادروه مقيما بين أرماس
ملوا قراه وهرته كلابهم وجرحوه بانياب وأضراس
لاذنب لى اليوم أن كانت نفوسهم كفارك كرهت ثوبى وإلباسى

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لايذهب العرف بين الله والناس

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

قد ناضلوك فأبدوا من كنانتهم ... مجدا تليدا ونبلا غير أنكاس

ما كان ذنبي أن فلت معاولكم ... من آل لأى صفاة أصلها راسى

وقال فى ذلك أيضا .

وإن التى نكبتها عن معاشر ... على غضاب أن صددت كما صدوا

أتت آل شماس بن لأى وإنما ... أتاهم بها الاحلام والحسب العد

فان الشقى من تعادى صدورهم ... وذو الجدمن لانوا اليه ومن ودوا

يسوسون أحلاما بعيدا أناتها ... وإن غضبوا جاء الحفيظة والجد

أقلو عليهم لا أبا لأبيكم ... من اللوم أوسدوا المكان الذى سدوا

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

وان كانت النعماء فيهم جزوا بها ... وان أنعموا لا كدورها ولا كدوا

وإن قال مولاهم على جل حادث ... من الدهر ردوا فضل أحلامكم ردوا

وإن غاب عن لأى بغيض كفتهم ... نواشىء لم تطرر شواربهم بعد

مطاعين فى الهيجا مكاشيف للدجى ... بنى لهم آباؤهم وبنى الجد

فمن مبلغ أبناء سعد فقد سعى ... الى السورة العليا لهم حازم جلد

رأى مجد أقوام أضيع فحثهم ... على مجدهم لما رأى أنه الجهد

وتعذلنى أبناء سعد عليهم ... وهل قلت الا بالذى علمت سعد

٢ — حاله

انقضى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده، دون أن تقوم للشعر الدولة التى كانت له فى الجاهلية ، لأن الحياة فى هذا العهد جاءت

بعيدة عن الدواعى التى تحفز إلى قوله حائلة دون كثير من الأغراض التى كان يقال فيها

فقد كان أهم دواعيه فى الجاهلية راجعا إلى العصبية وما تستلزمه من فخر بقبائلهم وعشائرهم اذ كل قبيلة تطلب العزة لنفسها والرفعة على سواها، والاسلام قد أذهب هذه العصبية وجعل الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى وبذلك نضب هذا المعين الذى طالما أمد الشعر الجاهلى بالتيار الجارف ذى القرار المكين

ثم جاء القرآن الكريم نثرا بمعانيه السامية وأساليبه الرائعة وبلغ ما بلغ من إعجاز فى كل غرض قصد اليه فأدهشهم فوقه وانصرفت قرائحهم الى الخطابة دون الشعر يستنهضون بها القلوب الى نصرة الدين ويحركون الهمم إلى الغزو والجهاد

فهذان الامران الى أمر ثالث هو اشتغال ذوى المواهب والقرائح – ومن ورائهم الناس – بالدين من حيث تلقى أوامره ونواهيه والوقوف على تعاليمه وارشاداته طول حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن حيث تشرب روحه والتغذى بلبانه والعمل على ترسيخ قدمه وامتداد نفوذه فى عهد الخلفاء من بعده، قد أسدلت على الشعر حجابا كثيفا ستره عن الأبصار وجعلت كثيرا من الشعراء الذين جاء الاسلام وهم شعراء يتنكبون طريقه ويعدلون عن قوله كلبيد بن ربيعة العامرى فلم يسلم له فى اسلامه على مكانته الجاهلية فى الشعر سوى بضعة أبيات أشهرها

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من الاسلام سربالا

ولذلك حين أرسل اليه المغيرة بن شعبة والى الكوفة لعمر يستنشده ما قال من الشعر فى الاسلام كتب سورة البقرة فى صحيفة ثم أتى بها اليه قائلا « أبدلنى الله هذه فى الاسلام مكان الشعر ». ولقد بلغ من انصرافه عنه أنه لما أرسل اليه وهو فقير مملق الوليد بن عقبة والى عثمان على الكوفة مائة ناقة لينحر إذ هبت الصبا ايفاء لنذر كان منه فى الجاهلية ومعها هذه الابيات

أرى الجزار تشحذ مديتاه إذا هبت رياح أبى عقيل

طويل الباع أبيض جعفرى كريم المجد كالسيف الصقيل

وفى ابن الجعفرى بما لديه على العلات والمال القليل

كلف ابنته أن ترد على الشعر ولم يجب هو فقالت

إذا هبت رياح أبى عقيل دعونا عند هبتها الوليدا

طويل الباع أبيض عبشميا أعان على مروءته لبيدا

بأمثال الهضاب كأن ركبا عليها من بنى حام قعودا

أبا وهب جزاك الله خيرا نحرناها وأطعمنا الثريدا

فعد إن الكريم له معاد وظنى بابن أروى أن يعودا

فقال لها أبوها أحسنت يابنتى لولا أنك سألت فقال يا أبت إن الملوك لايستحى من مسألتهم فقال لها وأنت فى هذا يابنيتى أشعر

ولقد زاد من انصراف الناس عن الشعر أن الله سبحانه وتعالى صرف نبيه عن قوله فلم يؤثر عنه شيء منه الا ماجاء عفوا من غير قصد كما جاءت بعض آى القرآن فيما سبق وذلك كقوله

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب

وقوله .

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

وهذا فى الحقيقه لا يسمى شعراء كما أنه صلى الله عليه لم يكن يقيم وزن بيت يرويه إذا تمثل به فقد روى بيت طرفة

ستبدى لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

هكذا «ويأتيك من لم تزود بالأخبار» ، وروى بيت العباس بن مرداس

أتجعل نهبي ونهب العبيـد بين عيينة والأقرع

هكذا « بين الاقرع وعيينة » ، ولقد كان يقتصر أحيانا على أنصاف الأبيات لـكيلا تتم شعرا كقوله « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ، ألا كل شيء ماخلا الله باطل » هذا إلى ما جاء فى القرآن من تهجين الشعر وذم الشعراء بقوله (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات »

غير أن ماتقدم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من انصرافه عن قول الشعر وعدم إقامته لوزنه واقتصاره أحيانا على أنصاف الابيات، لم يمنعه أن يعرف للشعر قيمته وتأثيره فحين نهضت شعراء قريش تهجوه وتحط من دعوته أمثال أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبدالله بن الزبعرى وكعب بن الاشرف وغيرهم قال للانصار مايمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم فقال حسان بن ثابت أنا لها وأخذ بطرف لسانه وقال والله ما يسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء فقال له وكيف تهجوهم وأنا منهم قال إنى أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين قال اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم اهجهم وجبريل معك فأخذ حسان يهجوهم مدافعا عنه وعن دينه وانضم اليه فى ذلك نفر أخصهم عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك ولـكن حسان كان أشدهم وأوجعهم وكثيرا ما كان يقول له صلى الله عليه وسلم شن الغارة على بنى عبد مناف فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام فى غلس الظلام . ولقد كان يكثر من استنشاد الخنساء رثاء أخيها صخر ويقول لها هيه ياخناس . وهذا كعب بن زهير قد استمع له لاميته (بانت سعاد) فعفا عنه وأثابه عليها بردة اشتراها منه معاويه بعد بثلاثين ألف درهم وتداولها

من بعده الخلفاء يلبسونها فى الجمع والأعياد . بل هذه قتيلة أخت النضر بن الحارث أنشدته وقد قتل أخاها بعد وقعة بدر أبياتا منها

أمحمد ولدتك خير نجيبة   فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما   من الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من قتلت قرابة   وأحقهم إن كان عتق يعتق
لو كنت قابل فدية لفديته   بأعز ما يغلى به من ينفق

فقال صلى الله عليه وسلم لو سمعت هذا قبل قتله لمننت عليه.فهو عليه الصلاة والسلام كان يعجبه من الشعر ماوافق الحق لما فيه من العظة والعبرة والتنبيه والتذكير والحض على الفضائل والدعوة إلى المكارم روى أنه قال للعلاء بن الحضرمى هل تروى شيئا من الشعر فأنشده

وحى ذوى الاضغان تسب عقولهم   تحيتك الحسنى وقد يرقع النعل
فان دحسوا بالكره فاعف تكرما   وإن خنسوا عنك الحديث فلا تسل
فان الذى يؤذيك منه سماعه   وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

فقال إن من الشعر لحكمة فاذا ألبس عليكم شيء من القرآن فالتمسوه فى الشعر فانه عربى .ومن ذلك يفهم أن صرف الله له عن قول الشعر لم يك لتحريم الشعر وإنما كان لأنه لا ينبغى لنبي أن يقوله كما قال سبحانه « وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » وأنى لنبى أن يجمع بين مقاصد النبوة من الايمان والحق والمكرمة والفضيلة وبين مايهيم فيه الشعراء من فخر وهجاء وتشبيب وهيام وكذب وضلال مما من أجله لاسواه ذم الله الشعراء قاصدا تلك الطائفة التى لاتخشى فى قولها دينا ولا حقا ولا فضيلة ولامعروفا .

ولقد سار خلفاؤه صلى الله عليه وسلم من بعده إزاء الشعر كما سار، فكانوا

يميزون بين شعر وشعر فيحضون على ماهو حسن مفيد ويعاقبون على ماهو شائن ضار وما منهم إلا من تمثل بالشعر أو قاله وحض على روايته وحرض على حفظه. قال سعيد بن المسيب كان أبو بكر شاعرا وعمر شاعرا وعلى أشعر الثلاثة. وقال المفضل لم يبق أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وقد قال الشعر أو تمثل به . وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها كثيرة الرواية للشعر حتى قيل إنها كانت تحفظ جميع شعر لبيد وكانت تقول رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم. وكذلك وأ كثر كان أبوها أبو بكر رحمه الله. وكان عمر رضى الله عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه شعرا ومما هو مأثور عنه قوله أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها فى حاجته يستعطف بها قلب الكريم ويستميل بها قلب اللئيم وقوله لابنه عبد الرحمن، يابنى انسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك فان من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقا ولم يقترف أدبا وقد بلغ من اعتباره للشعر أن صار يحض عليه حضا كقوله تعلموا الشعر فان فيه محاسن تبتغى ومساوى تتقى ولقد روى أنه كتب الى أبى موسى الأشعرى يقول له مر من قبلك بتعلم الشعر فانه يدل على معالى الاخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب . هذا الى ماكانوا جميعا يرون فى الشعر من نفع آخر يعرفون قدره ويرجون خيره هو حاجتهم اليه فى تفسير القرآن. قال ابن عباس اذا قرأتم شيئا فى كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب

على أن هذا كله لم يمنع الخلفاء أن يفضلوا حفظ القرآن على حفظ الشعر فقد ذكر أن عمر رحمه الله لما بعث الى المغيرة بن شعبة واليه على الكوفة أن استنشد من قبلك من الشعراء ماقالوا فى الاسلام وكتب اليه لبيد سورة البقرة

وقال أبدلنى الله هذه فى الاسلام مكان الشعر كما تقدم فكتب هو بذلك الى عمر ، زاد عمر فى عطاء لبيد خمسمائة. كما ذكروا أن غالبا أبا الفرزدق حين جاء بابنه هذا وهو غلام الى على كرم الله وجهه بالبصرة بعد وقعة الجمل وقال له إن ابنى هذا من شعراء مضر فاستمع له قال له على « علمه القرآن »ولعل هذه الوصاة هى التى جعلت الفرزدق فى كبره يحتبس نفسه ويقيد رجله كيما يحفظ القرآن. كما لم يمنعهم أن يضربوا على أيدى الشعراء الخارجين عن سياج العفة والدين بالهجو المقذع والتشبيب الفاحش ونحوهما مما هو محرم كنعت الخمر والدعوة بدعاء الجاهليين فهذا عمر قد حبس الحطيئة بعد حادثته مع الزبرقان ابن بدر لاسرافه فى الهجو والذم ولم يطلقه على كثرة ما استعطفه به من شعر حتى أنشده عن صبيته قوله

ماذا تقول لأفراخ بذى سلم زغب الحواصل لاماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الامام الذى من بعده صاحبه ألقى اليك مقاليد الوري البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الاثر
فامنن على صبية بالرمل مسكنهم بين الاباطح تغشاهم بها القرر
أهلى فداؤك كم بينى وبينهم من عرض داوية يعمى بها الخبر

فرق للصبية ومع ذلك لم يطلقه إلا بعد أن أخذ عليه عهدا ألا يهجو المسلمين وقيل بل اشترى منه أعراضهم بثلاثة آلاف درهم، وكذلك كان يمنع الشعراء أن يشببوا بالنساء ويتوعد من يخالف بالعقوبة ولهذا قالوا إن حميد بن ثور حين ذكر السرحة فى أبياته المشهورة كان يريد امرأة ولكنه لم يجرؤ على التصريح بها خوفا من عمر . ومن هذه الابيات قوله

سقى السرحة المحلال والابطح الذى به الشرى غيث مدجن وبروق
فقد ذهبت طولا فما فوق طولها من النخل الاعشة وسحوق
فياطيب رياها ويا برد مائها إذا حان من حامى النهار ودوق
حمى ظلها شكس الخليقة خائف عليها عرام الطائفين شفيق
فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفيء من برد العشى تذوق

وعلى نحو من هذا جرى عثمان رحمه الله في خلافته فقد حبس ضابىء بن الحارث البرجمى لاقذاعه فى الهجاء حتى مات فى السجن

عن هذه الدائرة كان لا يخرج الشعراء الذين جاء الاسلام وهم شعراء غير أنهم كانوا بعد الفئة التى عدلت عن قول الشعر جملة ثلاث فئات اثنتان تتقاتلان هما فئة الانصار المناصرة لرسول الله المدافعة عن دينه وفئة المشركين الهاجية لرسول الله المهجنة لدعوته وقد تقدمت أسماء أشهر الفئتين وكان من آثارهما كثرة الشعر فى مكة والمدينة حياة النبى صلى الله عليه وسلم دون عهد الخلفاء الراشدين فقد عاد فيهما فيه كما كان،أما الفئة الثالثة فهى التى بقيت تقول الشعر فى اسلامها كما كانت تقوله تقريبا فى جاهليتها ولكن فيما لا يخالف الدين الاعلى لسان القليل ومن هؤلاء وهم كثير أبو دهبل الجمحى وكعب بن زهير والنابغة الجعدى ومعن بن أوس وابن مقروم الضبي وعبدة بن الطبيب وعمرو بن معديكرب ومتمم بن نويرة والعباس بن مرداس والحطيئة وغيرهم من سائر المخضرمين الذين أخذوا هذا الاسم من قولهم ماء خضرم إذا تناهى فى السعة الى الكثرة لتناولهم العصريين وهذا تعليل أبى الحسن الاخفش أو من قولهم خضرم فلان عطيته إذا قطعها كما ذكر فى المزهر لأنهم قطعوا عن الجاهلية بالاسلام على أن بعضهم ذكر الكلمة بالحاء المهملة من الحضرمة وهى الخلط لانهم خلطوا بين عصرين

فهذه الفئة هى التى لم تبتعد كثيرا فى شعرها الاسلامى عن المنحى الذى كانت تنحوه فى شعرها الجاهلى بخلاف الفئتين السابقتين فان البون بين شعريهما جاهلية وإسلاما جاء شاسعا لتباين الغرض فى العهدين ولاختلاف المعانى التى كان يقتضيها هذا التباين ، وانما قلنا كثيرا لان شعرها الاسلامى لم يخل بالنظر الى شعرها الجاهلى من تغيرات فى أغراضه ومراميه وفى أخيلته ومعانيه وفى الفاظه ومبانيه تأثرا بالقرآن الكريم والحديث الشريف على نحو ما تأثر بهما االالنثر فيما قدمنا هناك وفى هذا بعض الابتعاد . وهذى بعض أمثلة توضح مدى هذا التأثر غرضا ومعنى اذ لسنا فى حاجة الى إعادة القضايا عنهما من جديد .

قال كعب بن زهير فى القضاء والقدر

لو كنت أعجب من شىء لأعجبنى ... سعى الفتى وهو مخبوء له القدر

يسعى الفتى لأمور ليس يدركها ... فالنفس واحدة والهم منتشر

والمرء ما عاش ممدود له أمل ... لا ينتهى العمر حتى ينتهى الأثر

فاين من هذا التصوير لحقيقة القضاء والقدر والتسليم لهما وحد الآجال من غير تقديم ولا تأخير قول زهير بن أبى سلمى وهو أحكم الشعراء الجاهليين

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

ومن هذه الناحية ناحية التباين فى الغرض والمعنى قول بجير بن زهير فى عقيدة التوحيد لأخيه كعب يدعوه للاسلام

الى الله لا العزى ولا اللات وحده ... فتنجو اذا كان النجاء وتسلم

لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت ... من النار الا طاهر القلب مسلم

فدين زهير وهو لا شىء باطل ... ودين أبى سلمى على محرم

ومثل ذلك ما يتعلق باليوم الآخر وسمعياته وفيه يقول أبو ذؤيب

يا عبيـد رفـع الـكتاب   واقترب الموعد والحساب

وكذا ذكر الورع والتقوى والزهد فى الدنيا والرغب فى الاخرة

ولقد جاءت الحكمة فى هذا العصر دينية لكثرة ما جاء منها فى السنة والكتاب حتى طبعت بطابع باعد بينها وبين حكم البداوة قال حسان

وان أمرا يمسى ويصبح سالما   من الناس الا ما جنى لسعيد

وقال أيضا:

رب حـلم أضاعه عدم المـا   ل وجهل غطى عليـه النعيم

وقال كعب بن زهير

مقـالة السوء الى أهلهـا   أسرع من منحدر سائل

ومن دعا الناس الى ذمـه   ذموه بالحـق وبالبـاطل

وقال النابغة الجعدى

ولا خير فى حـلم اذا لم تـكن له   بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل اذا لم يكن له   حليم اذا ما أورد الأمر أصدرا

وحتى الشعراء البعيدة نفوسهم عن تهذيب الدين ظهر التأثر به فى أغراضهـم ألا ترى الى قول الحطيئة

ولست أرى السعادة جمع مال   ولـكن التـقى هـو السعيد

وتقوى الله خـير الزاد ذخرا   وعنـــد الله اللاتقى مزيد

وما لا بد أن يأتى قريب   ولـكن الذى يمضى بعيـد

والى قوله وهو أحكم بيت بالاجماع

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

وهناك أغراض عدل عنهـا لابطال الاسلام اياها كـنعت الخمر والاقذاع

فى الهجو والفحش فى القول، فالاول لم يقل فيه شىء وكذا الثانى إلا ممن اجترأ على بعض منه ونال جزاءه كالحطيئة من عمر وابن ضابىء من عثمان والثالث كان يكنى فيه الشعراء غير مجترئين على التصريح كما تقدم فى غزل حميد بن ثور أيام عمر ولذا كان غزل هـذا العصر عفا كما رأيت فى مطلع قصيدة كعب بن زهير

أما التأثر فى الالفاظ والاساليب فقد جاء واضحا كل الوضوح انظر قوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) وقوله (عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) كيف أخذ الاول حسان فقال

أتهجوه ولست له بكفء   فشركما لخيركما الفداء

وكيف أخذ الثانى فى رثاء رسول الله فقال

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى   حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

وكذلك أخذ قوله

وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا   عمى وهداة يهتدون بمهتد

من قوله تعالى (قل هل يستوى الاعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور) وانظر قول معن بن أوس

فما زلت فى لينى له وتعطفى   عليه كما تحنو على الولد الام

وخفضى له منى الجناح تألفا   لتدنيه منى القرابة والرحم

مع قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) وكذلك قول النابغة الجعدى

الحمد لله لاشريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما

المولج الليل فى النهار وفى الا م يل نهارا يفرج الظلما

مع قوله تعالى «يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل» وهذا كثير جدا ولا سيما فى أشعار حسان وعبد الله بن رواحة وأمية بن أبى الصلت ونحوهم ممن كانت لهم نزعة إلى الدين فى أقوالهم، قال حسان

فاما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء

وقال عبد الله بن رواحة

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

وقال أمية بن أبى الصلت

لك الحمد والنعماء والملك ربنا فلا شىء أعلى منك مجدا وأمجد

وقال آخر

فانك لاتدرى بأية بلدة تموت ولا مايحدث الله غد

العصر الاموي

يبتدىء هذا العصر من سنة إحدى وأربعين المعروفة بعام الجماعة عام تنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية وينتهى بقيام الدولة العباسية سنة اثنتين وثلاثين بعد المائة فمدته اثنتان وتسعون سنة . وإذا كان الشعر والخطابة قد تداولا المكانة فى العصرين السابقين له فكانت للشعر فى العصر الجاهلى وللخطابة فى صدر الاسلام فانهما كانا فى هذا العصر فرسى رهان فهو عصر خطابة وشعر فى آن وهما فيه بينا الفضل معا على ماقبله من العصور . كما أن الكتابة خطت فيه خطوة أوجدت الكتابة العلمية والديوانية غير الانشائية وتمشت بالانشائية نحو الفنية فصارت فى أواخره صناعة ذات تعاليم كانت الاساس لازدهارها فى العصر العباسى بعد كما أوجدت فى الكتابة الخطية شيئا ذا بال .

ولما كان كلامنا على الخطابة والكتابة الانشائية فى صدر الاسلام متمشيا عليهما الى قدر فى هذا العصر وليس فى حاجة إلا إلى نماذج وبعض زيادات فقد رأينا تقدمة الكلام عليهما فيه وبعدها نفرغ لما هو باق .

١ – الخطابة

ا – نماذجها

قدم معاوية المدينة عام الجماعة فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فانى والله ما وليتها بمحبة منكم ولا مسرة بولايتى ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة ولقد رضت لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة وأردتها على عمل

عمر فنفرت منى اذ ذاك نفارا شديدا وأردتها على سنيات عثمان فأبت على ، فسلكت بها طريقا لى ولكم فيه منفعة مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة فان لم تجدونى خيركم فأنى خير لكم ولايه، والله لاأحمل السيف على من لاسيف له وان لم يكن منكم إلا ما يشتفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى ، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا منى بعضه فان أتاكم منى خير فاقبلوه فان السيل اذا جاد أثرى وإن قل أغنى وإياكم والفتنة فانها تفسد المعيشة وتكدر النعمة .

وخطب وهى آخر خطبة له فبعد أن صعد المنبر، حمد الله وأثنى عليه ثم قبض على لحيته وقال . أيها الناس إنى من زرع قد استحصد وقد طالت عليكم إمرتى حتى مللتكم ومللتمونى وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى وإنه لن يأتيكم بعدى الا من هو شر منى كما لم يأتكم قبلى الا من كان خيرا ، منى وانه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، اللهم انى أحببت لقاءك فأحبب لقائى

وخطب الناس بالموسم عتبة بن أبى سفيان فى سنة إحدى وأربعين وعهد الناس حديث بالفتنة فاستفتح ثم قال أيها الناس إنا قد ولينا هذا الموضع الذى يضاعف الله فيه للمحسن الاجر وعلى المسىء الوزر فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا فانها تنقطع دوننا ورب متمن حتفه فى أمنيته. اقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم وإياكم ولو فقدت أتعبت من كان قبلكم ولن نريح من بعدكم فاسألوا الله أن يعين كلا على كل . فنعق به أعرابى من مؤخر المسجد، أيها الخليفة فقال لست به ولم تبعد قال فيا أخاه قال قد أسمعت فقل قال والله لان تحسنوا وقد أسأنا خير لكم من أن تسيئوا وقد أحسنا فان كان الاحسان لكم فما أحقكم باستتمامه وإن كان لنا فما أحقكم بمكافأتنا ، رجل من بنى عامر يمت اليكم

بالعمومة ويختص اليكم بالخئولة وقد ومثه زمان وكثرة عيال وفيه أجر وعند شكر، فقال عتبة أستعيذ بالله منك وأستعينه عليك قد أمرت لك بغناك. فليت إسراعنا اليك يقوم بأبطائنا عنك

وخطب الناس بمصر عن موجدة فقال، ياحاملى ألأم أنوف ركبت بين أعين إنى إنما قلمت أظفارى عنكم ليلين مسى لكم وسألتكم صلاحكم إذكان فسادكم باقيا عليكم فأما اذا أبيتم الا الطعن على السلطان والتنقص للسلف فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم فان حسمت أدواءكم وإلا فان السيف من ورائكم. فكم من حكمة منا لم تعها قلوبكم ومن موعظة مناصمت عنها آذانكم ولست ابخل. بالعقوبة اذا جدتم بالمعصية ولا أويسكم من مراجعة الحسنى إن صرتم الى التى هى أبر وأتقى .

ولما عقد معاوية البيعة لابنه يزيد قام الناس يخطبون فقال معاوية لعمرو ابن سعيد قم يا أبا أمية فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فان يزيد بن. معاوية أمل تأملونه وأجل تأمنونه إن استضفتم الى حلمه وسعكم وان احتجتم الى رأيه أرشدكم وان افتقرتم الى ذات يده أغناكم، جذع قارح سوبق فسبق. وموجد فجد وقورع ففاز سهمه، فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه ، فقال. معاوية أوسعت أبا أمية فاجلس

وخطب يزيد بن معاوية عقب موت ابيه فقال، الحمد لله الذى ماشاء صنع، من شاء أعطى ومن شاء منع ومن شاء خفض ومن شاء رفع، إن أمير المؤمنين كان حبلا من حبال الله مده ماشاء أن يمده ثم قطعه حين أراد أن يقطعه وكان دون من قبله وخيرا ممن يأتى بعده ولا أزكيه عند ربه وقد صار اليه فأن يغف عنه فبرحمته وان يعاقبه فبذنبه ، وقد وليت بعده الامر ولست أعتذر

من جهل ولا آسى على طلب علم وعلى رسلكم اذا كره الله شيئا غيره واذا أحب شيئا يسره

وخطب زياد حين قدم البصرة واليا من قبل معاوية خطبة لم يحمد الله فيها قال أما بعد فان الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغى الموفى باهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا بما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الاليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لا يزول أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الاسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه من ترككم هذه المواخير المنصوبة والصفقة المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار، قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتغضون على النكر كل أمرىء منكم يذب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا . ما أنتم بالحلماء واقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوسا فى مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالارض هدما وإحراقا. إن هذا الامر لا يصلح الا بما صلح به أوله لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والصحيح بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول « انج سعد فقد هلك سعيد » أو تستقيم لى قناتكم . إن كذبة الامير بلقاء مشهورة فاذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى . من نقب منكم عليه فانا ضامن لما ذهب له فاياى ودلج الليل فانى لا أوتى بمدلج الاسفكت دمه

وقد أجلتكم فى ذلك بقدر ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع اليكم . وإياى ودعوى الجاهليه فانى لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ولقد أحدثت لكل ذنب عقوبة، فمن أغرق قوما أغرقناه ومن أحرق قوما أحرقناه ومن نقب بيتا نقبنا على قلبه ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا فكفوا عنى ألسنتكم وأيديكم أكفف عنكم يدى ولسانى، ولا يظهرن من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه. وقد كانت بيني وبين قوم إحن فجعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى فمن كان محسنا فليزدد فى إحسانه ومن كان مسيئا فلينزع عن إساءته، وانى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ولم أهتك له سترا حتى يبدى لى صفحته فان فعل ذلك لم أناظره فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا واعلموا أنى مهما أقصر فيه فلن أقصر عن ثلاث، لست محتجبا عن طالب حاجة ولو أتانى طارقا بليل ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبانه ولا مجمرا لكم بعثا، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذى اليه تأوون ومتى يصلحوا تصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك أسفكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم. أسأل الله أن يعين كلا على كل واذا رأيتمونى أنفذ فيكم أمرا فأنفذوه على أذلاله وايم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى.

ثم نزل

وقدم الحجاج أميرا على العراق سنة خمس وسبعين بعد قتله ابن الزبير بالحجاز فدخل الكوفة قبل البصرة فصعد المنبر فمكث ساعة لايتكلم حتى اذا رأى عيون الناس اليه حسر االثام عن فيه ونهض فقال

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

يأهل الكوفة انى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها وانى لصاحبها وكأنى أنظر الى الدماء بين العمائم واللحى

هذا أوان الشد فاشتدى زيم   قد لفها الليل بسواق حطم

ليس براعى إبل ولاغنم   ولا بجزار على ظهر وضم

ثم قال

قد لفها الليل بعصلبى   أروع خراج من الدوى   مهاجر ليس بأعرابى

وقال

قد شمرت عن ساقها فشدوا   وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتر عرد   مثل ذراع البكر أو أشد

انى والله يأهل العراق مايقعقع لى بالشنان ولا يغمز جانبى كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاءوفتشت عن تجربة وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بى لانكم طالما أوضعتم فى الفتنة واضطجعتم فى مراقد الضلال واللهلاحزمنكم حزم السلمة ولاضربنكم ضرب غرائب الابل فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . وانى والله ماأقول الا وفيت ولا أهم الا أمضيت ولا أخلق الا فريت،وإن أمير المؤمنين أمرنى باعطائكم أعطياتكم

وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة وإنى أقسم بالله لا أجـد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثه أيام الاضربت عنقه

ولماقدم مصعب بن الزبير العراق واليا عليهامن قبل أخيه عبد الله بن الزبير الخليفة بالحجاز وعبد الملك يومئذ خليفة بالشام صعد المنبر ثم قال : طسم تلك آيات الـكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ـ وأشار بيده نحو الشام ثم قال ـ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ـ وأشار بيده نحو الحجاز ثم قال ـ ونمكن لهم الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون ـ وأشار بيده نحو العراق ـ ثم نزل .

ولما بلغ عبد الله بن الزبير قتل أخيه مصعب صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم سكت متأثرا ثم تكلم فقال: الحمد لله له الخلق والأمر والدنيا والآخرة يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء. أما بعد فانه لم يعز الله من كان الباطل معه وإن كان معه الأنام ولم يذل من كان الحق معه وان كان فردا ألا وان خبرا من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا فأما الذى أحزننا فان لفراق الحميم لوعة يحزن بها حميمه وأما الذى أفرحنا فان قتل المصعب له شهادة ولنا ذخيرة أسلمه النعام المصالم. ألا وإن أهل العراق باعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه فان يقتل فقد قتل أخوه وأبوه وابن عمه وكانوا الخيار الصالحين إنا. والله لانموت حتفا ولـكن قصفا بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف وليس كما يموت بنو مروان . الا انما الدنيا عارية من الملك الأعلى

الذى لا يبيد ذكره ولا يذل سلطانه فان تقبل على لم آخذها أخذ الاشر البطر وان تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق المهين . ثم نزل .

ودخل عبد الملك بن مروان الكوفة بعد أن قتل المصعب فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال . أيها الناس إن الحرب صعبة مرة وان السلم أمن ومسرة وقد زبنتنا الحرب وزبناها فعرفناها وألفناها فنحن بنوها وهى أمنا . أيها الناس فاستقيموا على سبيل الهدى ودعوا الاهواء المردية وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لا تعملون أعمالهم ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة الا شرا ولن نزداد بعد الاعذار اليكم والحجة عليكم الا عقوبة فمن شاء منكم أن يعود لمثلها فليعد فانما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة .

من يصل نارى بلاذنب ولا ترة	يصل بنار كريم غير غدار
أنا النذير لكم منى مجاهرة	كيلا ألام على نهى وإنذار
فان عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا	أن سوف تلقون خزيا ظاهر العار
لترجعن أحاديثا ملعنة	لهو المقيم ولهو المدلج السارى
من كان فى نفسه حوجاء يطلبها	عندى فانى له رهن باصحار
أقيم عوجته إن كان ذا عوج	كما يقوم قدح النبعة البارى
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه	عندى وانى لدراك لأوتارى

ولما خرج يزيد بن الوليد بن عبد الملك على ابن عمه الوليد بن يزيد ابن عبد الملك وقتله قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال. أما بعد أيها الناس انى ما خرجت أشرآ ولا بطرا ولا حرصا على الدنيا ولا رغبة فى الملك وما بى إطراء نفسى ولا تزكية عملى وانى لظلوم لنفسى إن لم يرحمنى ربى ولكنى خرجت غاضبا لله ولدينه وداعيا الى كتابه وسنة نبيه حين درست معالم

الهدى وطفىء نور أهل التقوى وظهر الجبار العنيد المستحل الحرمة والراكب البدعة والمغير السنة فلما رأيت ذلك أشفقت إذ غشيتكم ظلمة لا تقلع على كثير من ذنوبكم وقسوة من قلوبكم وأشفقت أن يدعو كثيرا من الناس الى ما هو عليه فيجيبه من أجابه منكم فاستخرت الله فى أمرى وسألته أن يكلنى الى نفسى وهو ابن عمى فى نسبى وكفئى فى حسبى فأراح الله منه العباد وطهر منه البلاد ولاية من الله وعزما بلا حول منا ولا قوة ولكن بحول الله وقوته وولايته وعزته . أيها الناس ان لكم على إن وليت أموركم ألا أضع لبنة على لبنة ولا حجرا على حجر ولا أنقل ما لا من بلد الى بلد حتى أسد ثغره وأقيم مصالحه مما تحتاجون اليه وتقوون به فان فضل شيء رددته الى البلد الذى يليه وهو من أحوج البلدان اليه حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء، ولا أحد يغويكم فتفتتنوا وتفتتن أهاليكم فان أردتم بيعتى على الذى بينت لكم فانا لكم به وان ملت فلا بيعة لى عليكم وان رأيتم أحدا أقوى عليها منى فأردتم بيعته فأنا أول من يبايعه ويدخل فى طاعته . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم

وخطب عمر بن عبدالعزيز وهى آخر خطبة له قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه . أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولم تتركوا سدى وان لكم معادا يحكم الله بينكم فيه فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شيء وحرم جنة عرضها السموات والارض . واعلموا ان الامان غدا لمن خاف اليوم وباع قليلا بكثير وفانيا بباق . ألا ترون أنكم فى أعقاب الهالكين وسيخلفكم من بعدكم الباقون حتى تردوا الى خير الوارثين ثم إنكم فى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا الى الله قد قضى نحبه وبلغ أجله ثم تغيبونه فى صدع من الأرض ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد قد خلع الاثواب وفارق الأحباب وواجه الحساب

غنيا عما ترك فقيرا الى ما قدم ، وايم الله إنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم أكثر مما عندى فاستغفر الله لى ولكم، وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا الا سددناها ولا أحد منكم الا وددت أن يده مع يدى ولحق الذين يلوننى حتى يستوى عيشنا وعيشكم وايم الله انى لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقا ذلولا عالما بأسبابه ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة دل فيها على طاعته ونهى عن معصيته . ثم بكى وتلقى دموع عينيه بردائه ونزل فلم يخطب بعدها

وخطب أبو حمزة الشارى بمكة فكان مما قال فى صفة أصحابه . يأهل مكة تعيروننى بأصحابى تزعمون أنهم شباب وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا شبابا ، نعم الشباب مكتهلون عمية عن الشر أعينهم بطيئة عن الباطل أرجلهم قد نظر الله اليهم فى آناء الليل متثنية أصلابهم بمثانى القرآن اذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقا اليها واذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم فى أذنيه قد وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم أنضاء عبادة قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم ، مصفرة ألوانهم ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام مستقلون لذلك فى جنب الله موفون بعهد الله منجزون لوعد الله اذا رأوا سهام العدو قد فوقت ورماحهم قد أشرعت وسيوفهم قد أنضيت وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله فمضى الشاب منهم قدما حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه قد رملت محاسن وجهه بالدماء وعفر جبينه بالثرى وأسرعت اليه سباع الأرض وانحطت عليه طير السماء، فكم من مقلة فى منقار طير طالما بكى صاحبها من خشية الله وكم من كف بانت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى سجوده وكم من خد

عتيق وجبين رقيق قد فلق بعمد الحديد رحم الله تلك الابدان وأدخل أرواحها في الجنان .

ب – حياتها

إذا كنا قد رجعنا رقى الخطابة فى صدر الاسلام الى ما ولع به القوم إذ ذاك من تقليدهم القرآن الكريم والحديث الشريف ، والى ما مكنتهم منه قرائحهم من الاجادة فى هذا التقليد ثم إلى ما كان من دواع الى القول دينية واجتماعية حينذاك ، فان لنا أن نتنبأ لهذا الرقى زيادة وتقدما مدة العصر الأموى ، لأن كل ناحية من هذه النواحى الثلاث قد نالها ما رفع من شأنها وعظم من أمرها فجعل ثمارها أشد نضوجا وأكلها أكثر مقدارا

ففى ناحية القرآن والحديث لم يكن القوم فى صدر الاسلام قد أتموا استيعاب معناهما وتشرب روحهما وتجويد حفظهما لما كان عليه العهد من قصر ولما شغلوا به خلاله من الجهاد والغزو والتوسع والفتح ولكن العهد الأموى قد نشر فيه القرآن نشرا وذاع ذيوعا فبعد أن كتب عثمان المصاحف ووزعها على الأمصار عمل خلفاء بنى أمية على الاكثار من استنساخها فعكف الناس على حفظه ودراسته وكذلك كان الشأن فى الحديث وساعدهم على هذا ما صاروا اليه من عدم الانهماك فى القتال ووقوف حدة الغزو والجهاد هذا الى ما سنه معاوية واتبعه فيه الخلفاء من عدم قصر الوعظ والارشاد على الأئمة والولاة اذ رتب أناسا يعظون فى المساجد وما كان معتمد هؤلاء الوعاظ الا على القرآن والحديث يتخذونهما إماما وينزعون منهما انتزاعا والى ما جر إليه العمل على نشر الدين فى البلاد المفتوحة من تحليق حلقات العلم فى المساجد تتلقى فيها تعاليم الدين وما تحتاج اليه هذه التعاليم من لغة الدين

وفى ناحية القرائح والملكات كان الجيل الناشىء فى الاسلام والمربى منذ

وجوده فى أحضانه والدراس منذ درس فى الكتاب والسنة، أقدر على استخراج معانيهما واستخدام أساليبهما وفى ذلك من تنمية القرائح وتوسعة الملكات ما فيه على أن لهذا النمو وتلك السعة ناحية ثانية لا يجوز إغفالها أو التغاضى عن ذكر أثرها هى مخالطة أبناء العرب لأبناء الامم المفتوحة من الفرس والروم والقبط وما منها الا ذات علم وفلسفة وحضارة وتقدم شهد لها أبناء العرب النازحون الآثار الشاهدة والادلة الناطقة

أما الدواعى الدينية والاجتماعية فقد بقى منها فى هذا العهد ما كان ثم صحبتها دواع سياسية ذات امتداد وشمول لم تدع جانبا الا هزته ولا قلبا الا دخلته. فالامويون أصحاب الملك والسلطان ذوو حاجة ماسة فى تثبيته والدفاع عنه الى أن يقول خلفاؤهم وولاتهم وأتباعهم وأشياعهم، والعلويون ومن ورائهم العباسيون أحوج الى القول دفاعا عن حق مغصوب وتطلعا إلى مستقبل مأمول، والزبيريون وقد سنح لهم أول هذا العهد ملك وسلطان كانوا فئة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء يعنون بأنفسهم ويطلبون النفوذ لخاصتهم، والخوارج خوارج على هؤلاء جميعا يرون فيهم جورا وفى الحكومات القائمة انحرافا وظلما وقد وصلوا فى خروجهم هذا إلى أن كانت لهم شوكة وحدة، ودولة وصولة ذات خلفاء وجيوش طالما قاتلوا أئمة البغى وناصبوا الدول القائمة العداء وهزوا بصولجانهم عروش ملوكها الأقوياء

لهذا كان للنثر عامة وللخطابة خاصة دولة فى هذا العهد أى دولة ومنزلة أسمِ بها من منزلة ووجد فى هذه الفئات الأربع خطباء مصاقع وألداء مقاول ولكنهم كانوا يختلفون كثرة وقلة باختلاف الظروف المواتية والفرص المساعدة، فى الأمويين واتباعهم معاوية وعتبة وزياد أخواه وعبد الملك وأبناؤه والحجاج وعمر بن عبد العزيز وروح بن زنباع وغيرهم كثير، والعلويون وشيعهم وأبناء

عمهم العباسيون لا يحصون كثرة رجالا ونساء كالحسن والحسين ابنى على وزيد ابن على وعبدالله بن حسن وعبدالله بن معاوية بن عبدالله والكميت بن زيد وكعبد الله بن عباس وحفيده داود بن على وسائر إخوته ، ومن آل الزبير عبدالله بن الزبير وأخوه المصعب ، ومن الخوارج ـ وكلهم خطيب ـ قطرى ابن الفجاءة وعمران بن حطان وأبو حمزة الشارى وغيرهم. على أنه كانت هناك فئة تعتبر خطباء مذهب وعقيدة لا سياسة وسلطان منهم الحسن البصرى وواصل ابن عطاء وكلاهما كان علما من أعلام البيان ، فواصل وهو ألثغ بالراء كان يتجنبها على كثرة دورانها فى الكلام فيأتى مع ذلك بالعجب العجاب والحسن يقول الجاحظ فيه « فأما الخطب فانا لا نعلم أحدا يتقدم الحسن البصرى فيها » ويقول الحجاج يريده وقد سئل : من أخطب الناس ؟ فقال « صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة »

ولقد ظهر فى خطب هؤلاء جميعا من الاجادة ما خلع على خطابة هذا العصر ثوبا قشيبا وأظهر ما كان من مزاياها فى صدر الاسلام بارزا مجسما، وحسبك أن تذكر هنا مضاعفا كل ما مضى هناك حتى تكون وافقت الحقيقة وأصبت السداد من فصاحة فى الالفاظ وبلاغة فى المعانى وتنويع فى الاساليب وتأثير فى النفوس وحسن استخدام للقرآن الى درجة أن كان بعض الخطباء ينتزع منه خطبته كلها فيصيب بها ما يريد وفوق ما يريد كما فى خطبة مصعب ابن الزبير التى خطبها أول ولايته العراق من قبل أخيه. وكذلك كان الاستشهاد بالشعر وقد سبق واضحا فى خطبة لعبد الملك بن مروان، غير أن الاستشهاد بهما لم يكن فى جميع المواطن سواء فحيث يراد الدين كان القرآن أغلب على الشعر كما كان فى صدر الاسلام، أما حيث تراد السياسة فقد كان الشعر أطوع لرجالها لأنها كانت نزاعة فى هذا العصر إلى الشدة غير متحرجة من

الطغيان ولذا نجد الالفاظ فى هذا النوع من الخطب أصلب عودا وأشد مكسرا والتراكيب أوضح جزالة وأكثر ضخامة نزولا على ما تقتضيه المعانى فى الوعد والوعيد والتحذير والتهديد والسب والشتم والتوبيخ والذم. وهذه ظاهرة ترى فى خطب هذا العصر وإن فيما قدمنا من خطب لنماذج لهـا وبخاصة خطب زياد والحجاج ولعلهـا كانت ـ فوق حوادث العصر ـ نتيجـة للسنة التى اسـتنها معاوية من لعن على على المنابر واتبعه فيها من بعده الخلفاء الا ما كان من عمر ابن عبدالعزيز الذى أبطلها ونهـى عن المضى فيها

وكما كانت الخطابة شائعـة على ألسـنة من ذكرناه كانت كـذلك شائعة فى القبائل على اختلاف أصقاعها فـلا تزال وفودها تخرج من البادية الى دمشق مقر الخلافة والسلطان وإلى سائر العواصم مقر الولاة والحـكام لتهنئة أو تعزية أو استنجاد أو استجداء أو عظـة أو غير ذلك ممـا تقدم من أجله الوفود فيتسابق شباب الحضر الى أولئكم البدو لاستماع خطبهم واقتباس أساليبهم

ولقد بقى للخطابة والخطباء فى هذا العصر ما عددنا لها ولهم من عادات فى صدر الاسلام الذى ورثها عن خطباء الجاهليـين الا ما كان من عادة القيام فقد استمرت مرعيـة حتى ولى الخلافة الوليـد بن عبدالملك فخطب جالسا واتبعه فى ذلك من جاء بعـده، ولعل الدافع له على تلك المخالفة رغبته جمـلة عن مواقف الخطابة وعدم اعتداده بالاحتفال بها لما كان يعـتريه من اللحن الذى يشوه قوله ويلفت الانظار نحوه

هذا وقبل أن نغادر الخطابة الى الـكتابة ندلى بكلمة موجزة عن نوع جديد من أدب هذا العصر جاء ألصق بالخطابة من غيرها كما يتضح ذلك من نماذجه ومن الكلام عليه بعد وهو الاجوبة والمحاورات

الأجوبة والمحاورات

« تابع الخطب »

هى ضرب جديد إلى حد ما من الادب ظهر فى العصر الأموى ظهورا ملأ الاسماع وامتلك القلوب أحيته الخلافات السياسية والمذهبية التى كانت أهم دواعى الخطابة فيه ، فأدى بلغة هى أقرب ماتكون إلى لغة الخطابة نفسها وان شئت فقل إنه خطب المفاخرات والمنافرات الجاهلية بعينها ولكنها أخذت اسما آخر هو الأجوبة والمحاورات لمافى التسمية الاولى من عدم الاتفاق مع الدين الذى نهى عن تفاخر الجاهلية وتنافرها لقيامه على عصبيتها ونعرتها والدعاء عن جهل وسفه بدعوتها،فهى شىء قديم ظهر فى ثوب جديد ولذا قلنا فى وصفه بالجدة آنفا « جديد إلى حدما » وهل من فرق بين خطبة التفاخر والجواب يساق تباعا أو بين خطبة التنافر والمحاورة تأتى على حسب السؤال شيئا فشيئا اللهم لا فليست الأجوبة والمحاورات سوى المفاخرات والمنافرات توارت الا بصيصا فى صدر الاسلام،لقوة الوازع الدينى فى النفوس وصرامة القائمين على أمره من الحكام مع قلة الخلاف السياسى وانهماك الأمة جميعا فى الغزو والجهاد حتى إذا مازالت هذه الأشياء فى العهد الأموى أوكادت،ظهرت الظهور الذى وصفناه فكانت من فروع الادب ذى الخطر والمنزلة لانها أصعب الكلام مركبا وأعزه مطلبا،فيها يناجى القائل الفكرة مستعملا البديهة دون الروية فيأتى بما ينقض قولا ويفحم خصما، ولقد بقى هذا النوع ذا مكانة وشرف طوال القرنين الاولين من الهجرة تقريبا غير أنه كان فى أولها أصوب معنى وأوجز لفظا وأكثر كما وأشرف قوما،وكانت قريش فيه أحضر العرب بديهة وأسرعها عند السؤال جوابا

وفيما ذكرنا من أوجه الخلاف فى العهد الأموى، ترى الأودية التى سال فيها هذا النوع من الكلام منذ عهد معاوية الذى فتح لها الباب على مصراعيه إذ كانت سياسته قائمة على التغاضى عن القول والتحلم إزاء التزيد وله فى هذا الحكم البليغة المأثورة التى تقدم شىء منها والقصص الكثيرة المعروفة . وهذا شطر منها بينه وبين الهاشميين ومن شايعهم وبخاصة شيعة العلويين ثم بينه وبين الزبيريين أيضا وبعده نسوق بعض مثل عما كان منه لغير هؤلاء فى سائر العصر

. لما اعتزل عقيل بن أبى طالب أخاه عليا كرم الله وجهه لاشتداد فقره وحرص على ، إلى معاوية ذى المال الوافر والعطاء الجزل فأكرمه وقضى حوائجه، قال له أنا خير لك من أخيك على فقال له صدقت إن أخى آثر دينه على دنياه وأنت قد أثرت دنياك على دينك فأنت خير لى من أخى وأخى خير لنفسه منك، وقال له يوما إن عليا غير حافظ لك قطع قرابتك وماوصلك ولا اصطنعك فقال له عقيل والله لقد أجزل العطية وأعظمها ووصل القرابة وحفظها ولكنه حفظ أمانته إذ خنتم وأصلح رعيته إذ أفسدتم وحسن ظنه بالله إذ ساء به ظنك فاكفف لاأبالك فانه عما تقول بمعزل

واجتمعت قريش الشام والحجاز عنده يوما وفيهم عبدالله بن عباس وكان جريئا عليه حقارا له فبلغه عنه بعض ماغمه فقال له، رحم الله أبا سفيان والعباس كانا صفيين دون الناس فحفظت الميت فى الحى والحى فى الميت ،استعملك على يابن عباس على البصرة واستعمل عبيدالله أخاك على اليمن واستعمل أخاك قثم على المدينة فلما كان من الأمر ماكان هنأتكم مافى أيديكم ولم أكشفكم عما وعت غرائركم وقات آخذ اليوم وأعطي غدا مثله ؟ وعلمت أن بدء اللؤم يضر بعاقبة الكرم ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقيأتكم ماأكلتم ،لايزال يبلغنى عنكم ماتبرك

له الابل وذنوبكم الينا أكثر من ذنوبنا اليكم،خذلتم عثمان بالمدينة وقتلتم أنصاره يوم الجمل وحاربتمونى بصفين ولعمري لبنو تيم وعدى أعظم ذنوبا منا اليكم إذ صرفوا عنكم هذا الامر وسنوا فيكم هذه السنة فحتى متى أغضى الجفون على القذى وأسحب الذيول على الاذى وأقول لعل الله وعسى ماتقول يابن عباس فتكلم ابن عباس فقال،رحم الله أبانا وأباك كانا صفيين متفاوضين لم يكن لابى من مال إلا ما فضل لأبيك وكان أبوك كذلك لابى ولكن من هنأ أباك باخاء أبى أكثر ممن هنأ أبى باخاء أبيك ، نصر أبى أباك فى الجاهلية وحقن دمه فى الاسلام . وأما استعمال على إيانا فلنفسه دون هواه وقد استعملت أنت رجالا لهواك لا لنفسك منهم ابن الحضرمى على البصرة فقتل وبشر بن أرطاة على اليمن فخان وحبيب بن مرة على الحجاز فرد والضحاك بن قيس على الكوفة فحصب ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا وليس الذى يبلغك عنا بأعظم من الذى يبلغنا عنك ولو وضع أصغر ذنوبكم الينا على مائة حسنة لمحقها ولو وضع أدنى عذرنا اليكم على مائة سيئة لحسنها . وأما خذلنا عثمان فلو لزمنا نصره لنصرناه وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل فعلى خروجهم مما دخلوا فيه وأما حربنا إياك بصفين فعلى تركك الحق وادعائك الباطل وأما إغراؤك ايانا بتيم وعدى فلو أردناها ما غلبونا عليها ـ وسكت ـ فقال فى ذلك ابن أبى لهب

كان ابن حرب عظيم القدر فى الناس ... حتى رماه بما فيه ابن عباس
ما زال يهبطه طورا ويصعده ... حتى استقادوما بالحق من باس
لم يتركن خطة مما يذلله ... الا كواه بها فى فروة الراس

ودخل الحسين بن على عليه يوما وعنده جماعة من قريش فيهم عبدالله بن الزبير فرحب به وأجلسه على سريره وقال له ترى هذا القاعد (يعنى ابن الزبير) فانه

ليدركه الحسد لبنى عبد مناف فقال ابن الزبير لمعاوية قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن ان شئت أعلمتك فضل الزبير على أبيك أبى سفيان فقال معاوية قاتلك الله يابن الزبير ماأعياك وأبغاك أتفخر بين يدى أمير المؤمنين وأبى عبدالله إنك أنت المتعدى لطورك الذى لا تعرف قدرك فقس شبرك بفترك ثم تعرف كيف تقع بين عرانين بنى عبد مناف أما والله لئن دفعت فى بحور بنى هاشم وبنى عبد شمس لتقطعنك بأمواجها ثم لترهقن بك فى أجاجها فما بقاؤك فى البحور إذا غمرتك وفى الامواج اذا بهرتك، هنالك تعرف نفسك وتندم على ما كان فى جرأتك وتمنى ما أصبحت فيه من أمان وقد حيل بين العير والنزوان . فاطرق ابن الزبير مليا ثم رفع رأسه فالتفت إلى من حوله فقال. أسألكم بالله أتعلمون أن أبى حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأن أبا سفيان حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وان امى اسماء بنت ابى بكر الصديق وأمه هند آكله الاكباد ، وجدى الصديق وجده المشدوخ ببدر وراس الكفر وعمتى خديجة ذات الخطر وعمته ام جميل حمالة الحطب، وجدتى صفية وجدته حمامة، وزوج عمتى خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم وزوج عمته شر ولد آدم ابو لهب سيصلى نارا ذات لهب، وخالتى عائشة أم المؤمنين وخالته أشقى الاشقين، وأنا عبد الله وهو معاوية . فقال له معاوية ويحك يابن الزبير كيف تصف نفسك بما وصفتها والله مالك فى القديم من رياسة ولا فى الحديث من سياسة ولقد قدناك وسدناك قديما وحديثا لا تستطيع لذلك انكارا ولا عنه فرارا، وان هؤلاء الحضور ليعلمون أن قريشا قد اجتمعت يوم الفجار على رياسة حرب بن أمية، وأن أباك وأسرتك تحت رايته راضون بامارته غير منكرين لفضله ولا طامعين فى عزله ان أمر اطاعوا وان قال

أنصتوا فلم تزل فينا القيادة وعز الولاية حتى بعث الله عز وجل محمدا صلى الله عليه وسلم فانتخبه من خير خلقه من أسرتى لاأسرتك وبنى أبى لا بنى أبيك، فجحدته قريش أشد الجحود وأنكرته أشد الانكار وجاهدته أشد الجهاد إلا من عصم الله منها فما ساد قريشا وقادهم الا أبو سفيان بن حرب فكانت الفئتان تلتقى ورئيس الهدى منا ورئيس الضلالة منا فهديكم تحت راية مهدينا وضالكم تحت راية ضالنا فنحن الأرباب وأنتم الأذناب حتى خلص الله أبا سفيان بن حرب بفضله من عظيم شركه وعصمه بالاسلام من عبادة الأصنام فكان فى الجاهلية عظيما شأنه وفى الاسلام معروفا مكانه ولقد أعطى يوم الفتح مالم يعط أحد من آبائك وإن منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى «من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن» فكانت داره حرما لادارك ولا دار أبيك وأما هند فكانت امرأة من قريش فى الجاهلية عظيمة الخطر وفى الاسلام كريمة الخبر وأما جدك الصديق فبتصديق عبد مناف سمى صديقا لا بتصديق عبد العزى وأما ماذكرت من جدى المشدوخ ببدر فلعمرى لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه فلو برزت إليهم أنت وأبوك ما بارزوكم ولا رأوكم لهم أكفاء كما قد طلب ذلك غيركم فلم يقبلوهم حتى برز إليهم أكفاؤهم من بنى أبيهم فقضى الله مناياهم بأيديهم فنحن قتلناو نحن قتلنا وما أنت وذاك.
وأما عمتك أم المؤمنين فبنا شرفت وسميت أم المؤمنين وخالتك عائشة مثل ذلك وأما صفية فهى التى أدنتك من الظل ولولا هى لكنت ضاحيا . وأما ماذكرت من بنى عمتك وخال أبيك سيد الشهداء فكذلك كانوا رحمهم الله وفخرهم وإرثهم لى دونك ولا فخر لك فيهم ولا إرث بينك وبينهم . وأما قولك أنا عبد الله وهو معاوية فقد علمت قريش أينا أجود فى الازم وأحزم فى

القدم وأمنع للحرم لا والله ماأراك منتهيا حتى تروم من بنى عبد مناف مارأم أبوك فقد طالبهم الذحول وقدم اليهم الخيول وخدعتم أم المؤمنين ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ مددتم على نسائكم السجوف وأبرزتم زوجه للحتوف ومقارعة السيوف فلما التقى الجمعان نكص ابوك هاربا فلم ينجه ذلك أن طحنه أبو الحسين بكلكله طحن الحصيد بأيدى العبيد ، وأما أنت فأفلت بعد أن خمشتك براثينه ونالتك مخالبيه ، وايم الله ليقومنك بنو عبد مناف بثقافها أو لتصبحن منها صباح أبيك بوادى السباع وما كان أبوك المدهن حده ولكنه كما قال الشاعر .

تناول سرحان فريسة ضيغم فقضقضه بالكف منه وحطها

ومما كان بين معاويه وغير العلويين ولكنه لهم ماروى من أنه كان جالسا وعنده وجوه الناس فدخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا فكان آخر كلامه أن لعن عليا فأطرق الناس وكان الاحنف بن قيس حاضرا فقال يا أمير المؤمنين إن هذا القائل ، ماقال آنفا إلا برضاك ولو يعلم أن رضاك فى لعن المرسلين لعنهم فاتق الله ودع عنك عليا فقد لقى ربه وأفرد فى قبره وخلا بعمله وكان والله المبرز سيفه الطاهر ثوبه الميمون نقيبته العظيم مصيبته. فقال معاوية يا أحنف لقد أغضيت العين على القذى وايم الله لتصعدن المنبر فتلعنن عليا طوعا أو كرها فقال له الاحنف إن تعفنى فهو خير لك وان تجبرنى فوالله لاتجرى فيه شفتاى أبدا قال قم فاصعد المنبر فقال الأحنف أما والله مع ذلك لأنصفنك فى القول والفعل قال وما انت قائل يا أحنف إن انصفتى قال أصعد المنبر فاحمد الله بما هو اهله وأصلى على نبيه ﷺ ثم أقول ، أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن عليا وإن عليا ومعاوية اختلفا فاقتتلا

وادعى كل واحد منهما أنه بغى عليه وعلى فئته فاذا دعوت فأمنوا رحمكم الله،
ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه
والعن الفئة الباغية اللهم العنهم لعنا كبيرا أمنوا رحمكم الله لا أزيد على هذا ولا
أنقص منه حرفا ولو كان فيه ذهاب نفسي فقال معاوية اذن نعفيك ياأبا بحر .

ولقد كان معاوية يدعو الى هذه المنافرات بنفسه ثم يطفيء جذوتها بماء
حلمه حتى في أنصار على من غير أبنائه وبني هاشم وحتى في النساء لا في الرجال.
كتب إلى عامله بالكوفة أن يحمل اليه أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقي
مكرمة وكانت ذات خطبة من نار في تحريض جيش على ضد معاوية وفئته
عقب أن قتل عمار بن ياسر في بعض أيام صفين فلما وصلته أنزلها على الحرم
ثلاثة أيام ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع وعنده جلساؤه فقالت السلام عليك
يا أمير المؤمنين فقال لها وعليك السلام يا أم الخير، بحق مادعوتني بهذا الاسم ؟
قالت لكل أجل كتاب قال صدقت بحسن نيتي ظفرت بكلمات يا أمير المؤمنين
يعيذك الله من دحض المقال وما تودى عاقبته قال ليس هذا أردنا أخبرينا
كيف كان كلامك إذ قتل عمار بن ياسر قالت لم أكن زبرته قبل ولا رويته
بعد انما كانت كلمات نفثها لساني عند الصدمة فان أحببت أن أحدث لك مقالا
غير هذا فعلت فالتفت معاوية الى بعض الحاضرين فذكر كلامها فقال لها
يا أم الخير ماأردت بهذا الكلام الا قتلي ولو قتلتك ما حرجت في ذلك قالت
والله ما يسوءني أن يجرى قتلي على يدى من يسعدني الله بشقائه قال هيهات
يا كثيرة الفضول ماتقولين في عثمان رحمه الله قالت وماعسيت أن أقول، استخلفه
الناس وهم به رضوان وقتلوه وهم له كارهون قال هذا ثناؤك الذي تثنين ؟ قالت،
الله يشهد وكفى بالله شهيدا ما أردت بعثمان نقصا ولقد كان سابقا الى الخير

وانه لرفيع الدرجة غدا ، قال فما تقولين فى الزبير قالت وما أقول فى ابن عمة رسول الله وحواريه وقد شهد له صلى الله عليه وسلم بالجنة وأنا أسألك بحق الله يامعاوية فان قريشا تحدثت أنك أحلمها أن تعفينى من هذه المسائل وتسألنى عما شئت من غيرها قال نعم ونعمة عين قد أعفيتك ثم أمر لها بجائزة رفيعة وردها مكرمة

ولما انتقلت الخلافة من البيت السفيانى الى المروانى كانت بين البيتين محاورات ومنافرات . روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالدا فقال يا أخى لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك فقال له خالد بئس والله ماهممت به فى ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين فقال ان خيلى مرت به فعبث بها وأصغرنى فقال أنا أكفيك ثم دخل على عبد الملك والوليد عنده فقال يا أمير المؤمنين الوليد ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبث بها وأصغره ، وكان عبد الملك مطرقا فرفع رأسه فقال «ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون» فقال خالد «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» فقال عبد الملك أفى عبد الله تكلمنى والله لقد دخل على فما أقام لسانه لحنا فقال له خالد أفعلى الوليد تعول فقال عبد الملك ان كان الوليد يلحن فان أخاه سليمان فقال خالد وان كان عبد الله يلحن فان أخاه خالد فقال الوليد اسكت ياخالد فوالله ماتعد فى العير ولا فى النفير فقال خالد اسمع يا أمير المؤمنين ثم أقبل عليه وقال ويحك فمن فى العير والنفير غيرى ؟ جدى أبو سفيان بن حرب صاحب العير وجدى عتبة بن ربيعة صاحب النفير ولكن لو قلت غنيمات وحبيلات والطائف ورحم الله عثمان لقلنا صدقت

ودخل يزيد بن مسلم على سليمان بن عبد الملك وكان دميما فلما رآه قال

قبح الله رجلا أجرك رسنه وأشركك فى أمانته فقال له يزيد يا أمير المؤمنين رأيتنى والأمر لك وهو عنى مدبر ولو رأيتنى والأمر على مقبل لاستكبرت منى مااستصغرت واستعظمت منى مااستحقرت فقال أترى الحجاج استقر فى قعر جهنم بعد قال يا أمير المؤمنين لاتقل ذاك فان الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابر وهو يجىء يوم القيامه عن يمين أبيك وعن يسار أخيك فحيث كانا كان .

وعلى ذكر الحجاج ويزيد بن مسلم نذكر ما كان من يوسف بن سليك بن سلكة وقد دخل على الحجاج يوما وهو من الحوار الموجز المقنع فقال أصلح الله الامير ارعنى سمعك واغضض عنى بصرك واكفف عنى غربك فان سمعت خطأ أو زللا فدونك والعقوبة قال قل فقال عصى عاص من عرض العشيرة فحلق على اسمى وهدم منزلى وحرمت عطائى قال هيهات أوما سمعت قول الشاعر

جانيك من يجنى عليك وقد تعدى الصحاح مبارك الجرب
ولرب مأخوذ بذنب عشيرة ونجا المقارف صاحب الذنب

قال أصلح الله الأمير ولكنى سمعت الله عزوجل قال غير هذا قال وما ذاك فقال قال « يأيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه انا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذاً لظالمون » فقال الحجاج على بيزيد بن مسلم فمثل بين يديه فقال افكك لهذا عن اسمه واصكك له بعطائه وابن له منزله ومر مناديا ينادى فى الناس صدق الله وكذب الشاعر .
هذا وباب الاجوبة والمحاورات حافل فلنقف منه عند هذا القدر الذى أوردناه .

٢ – الكتابة

١ – نماذجها

كان الحسن بن على رضى الله عنهما قد كتب الى زياد فى رجل من شيعته وكان عنوان الكتاب من الحسن بن على إلى زياد فغضب زياد إذ قدم نفسه عليه ولم ينسبه الى أبى سفيان وعرض للرجل فحال بينه وبين ما يملك وكتب الى الحسن يقول. «من زياد بن أبى سفيان الى حسن أما بعد فانك كتبت الى فى فاسق لا يؤويه الا الفساق وايم الله لأطلبنه ولو بين جلدك ولحمك فانى أحب أن آكل لحما أنت منه» فكتب الحسن الى معاوية فى ذلك وأدرج كتاب زياد داخل كتابه فلما قرأ معاوية الكتابين أكثر التعجب من زياد وكتب اليه : –

أما بعد فان لك رأيين أحدهما من أبى سفيان والآخر من سمية فأما الذى من أبى سفيان فحزم وعزم وأما الذى من سمية فكما يكون رأى مثلها وان الحسن بن على كتب الى يذكر انك عرضت لرجل من أصحابه وقد حجزناه عنك ونظراءه فليس لك على واحد منهم سبيل ولا عليه حكم وعجبت منك حين كتبت الى الحسن لا تنسبه الى أبيه أفالى أمه وكلته لا أم لك فهو ابن فاطمة الزهراء ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالآن حين اخترت له

وكتب عبد الرحمن بن الاشعث وقت خروجه على عبد الملك كتابا اليه ليس فيه سوى هذه الابيات الثلاثة

سائل مجاور جرم هل جنيت لها ضربا يزيل بين الجيرة الخلط
وهل سموت بجرار له لجب جم الصواهل بين الجم والفرط
وهل تركت نساء الحى ضاحية فى ساحة الدار يستوقدن بالغبط

وتحتها هذا البيت الرابع

قتل الملوك وصار تحت لوائه   شجر العرا وعراعر الاقوام

فكان جواب عبدالملك اليه هذه الابيات الاربعة

ما بال من أسعى لأجبر عظمه   حفاظا فينوى من سفاهته كسرى

أظن خطوب الدهر بيني بينهم   ستحملهم منى على مركب وعر

وإني وإياهم كمن نبه القطا   ولو لم تنبه باتت الطير لا تسري

أناه وحلما وانتظارا بهم غدا   فما أنا بالواني ولا الضرع الغمر

واتصل بعروة بن الزبير وهو عامل على اليمن من قبل الحجاج لعبد الملك ابن مروان أن الحجاج مجمع على مطالبته بالاموال التى بيده وعزله عن عمله ففر إلى عبدالملك وعاذ به تخوفا من الحجاج واستدفاعا لضره فلما بلغ ذلك الحجاج كتب إلى عبدالملك

أما بعد فان لوذان المعترضين بك وحلول الجانحين إلى النكث بساحتك واستلانتهم دمث أخلاقك وسعة عفوك، كالعارض المبرق لاعدائه لا يعدم له شائما رجاء استمالة عفوك وإذا أدنى الناس بالصفح عن الجرائم كان ذلك تمرينا لهم على إضاعة الحقوق مع كل ضال والناس عبيد العصا هم على الشدة أشد استباقا منهما على اللين ولنا قبل عروة مال من مال الله وفى استخراجه منه قطع لطمع غيره فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك والسلام

فكتب اليه عبدالملك أما بعد فان أمير المؤمنين رآك مع ثقته بنصيحتك تخبط فى السياسة خبط عشواء الليل فان رأيك الذى يسول لك أن الناس عبيد العصا هو الذى أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك وإذا أحرجت العامة بعنف السياسة كانوا اوشك وثوبا عليك عند الفرصة ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعي ولا هداه إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك ، وقد وليت العراق قبلك

ساسة وهم يومئذ أحمى أنوفا وأقرب إلى عمياء الجاهلية وكانوا عليهم أصلح منهم عليك وللشدة واللين أهلون والأفراط فى العفو أفضل من الافراط فى العقوبة والسلام .

وكتب الحجاج الى قطرى بن الفجاه وهو رئيس الخوارج . بسم الله الرحمن الرحيم من الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفجاءة سلام عليك الموحد الله والمصلى عليه محمد عليه السلام أما بعد فانك كنت أعرابيا بدويا تستطعم الكسرة وتخف الى التمرة ثم خرجت تحاول ما ليس لك بحق واعترضت على كتاب الله ومرقت من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فارجع عما أنت فيه بما زين لك وادعنى فقد آن لك . فكان جوابه . بسم الله الرحمن الرحيم من قطرى بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف سلام على من اتبع الهدى ذكرت فى كتابك أنى كنت بدويا أستطعم الكسرة وأبدر إلى التمرة وبالله لقد قلت زورا بل الله بصرنى من دينه ما أعماك عنه إذ أنت سائح فى الضلالة غرق فى غمرات الكفر وذكرت أن الضرورة طالت بى فهلا برزلى من حزبك من نال الشبع واتكأ فاتدع أما والله لئن أبرز الله صفحتك وأظهر لى صاعتك لتنكرن شيعتك ولتعلمن أن مقارعة الابطال ليست كتسطير الامثال .

ولما طلب الوليد بن عبد الملك من الحجاج أن يصف له سيرته كتب اليه الحجاج . إنى ايقظت رأيى وأنمت هواى فأدنيت السيد المطاع فى قومه ووليت الحرب الحازم لأمره وقلدت الخراج المؤثر لأمانته وصرفت السيف الى النطف المسىء فخاف المريب صولة العقاب وتمسك المحسن بحظه من الثواب

وأذنب كعب العبسى إلى الوليد بن عبد الملك ذنبا فطلب إلى عروة بن الزبير أن يكتب اليه له مستشفعا فكتب عروة . لو لم يكن لكعب من قديم حرمته ما يغفر له عظيم جريرته لوجب ألا تحرمه التفيؤ بظل عفوك الذى تأمله القلوب

ولا تعلق به الذنوب وقد استشفع بى اليك فوثقت له منك بعفو لا يخالطه سخط فحقق أمله وصدق ثقتى بك تجد الشكر وافيا بالنعمة « فكتب اليه الوليد » قد شكرت رغبته اليك وعفوت عنه لمعوله عليك وله عندى ما يحب فلا تقطع كتبك عنى فى أمثاله وفى سائر أمورك

وكتب بشر بن مروان الى عبد العزيز اخيه يعتذر . بسم الله الرحمن الرحيم لولا الهفوة لم أحتج الى العذر ولم يكن لك فى قبوله منى الفضل ولو احتمل الكتاب أكثر مما ضمنته لزدت فيه ، وبقيا الاكابر على الاصاغر من شيم الاكارم ولقد أحسن مسكين الدارمى حين يقول

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع الى الهيجا بغير سلاح

وان ابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازى بغير جناح

وبلغ يزيد بن عبد الملك وهو خليفة أن هشاما أخاه يتنقصه فكتب اليه ، إن مثلى ومثلك كما قال الأول

تمنى رجال أن اموت وان أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

لعل الذى يبغى رداى ويرتجى ... به قبل موتى أن يكون هو الردى

فكتب اليه هشام ، إن مثلى ومثلك كما قال الأول

ومن لم يغمض عينه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

ومن يتتبع جاهدا كل عثرة ... يجدها ولا يبقى له الدهر صاحب

فكتب اليه يزيد ، نحن مغتفرون ما كان منك ومكذبون ما بلغنا عنك مع حفظ وصية أبينا عبد الملك وما حض عليه من صلاح ذات البين وانى لأعلم أنك كما قال معن بن أوس

لعمرك ما أدري واني لأوجل ... على أينا تغدو المنية أول

وانى على أشياء منك تريبنى قديما لذو صفح على ذاك مجمل
ستقطع فى الدنيا اذا ما قطعتنى يمينك فانظر اى كف تبدل
اذا سؤتني يوما رجعت الى غد ليعقب يوما منك آخر مقبل
اذا أنت لم تنصف اخاك وجدته على طرف الهجران ان كان يعقل
ويركب حد السيف من ان تضميه اذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل
وفى الناس ان رثت حبالك واصل وفى الارض عن دار القلى متحول

فلما جاءه الكتاب رحل اليه فلم يزل فى جواره الى ان مات وهو معه فى عسكره مخافة أهل البغى عليه

وكتب يزيد بن الوليد الى مروان بن محمد وقد تلكأ فى بيعته . بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله امير المؤمنين يزيد بن الوليد الى مروان بن محمد أما بعد فانى اراك تقدم رجلا وتؤخر اخرى فاذا اتاك كتابى هذا فاعتمد على ايهما شئت والسلام

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الى بعض إخوانه يعاتبه : أما بعد فقد عاقنى الشك فى امرك عن عزيمة الرأى فيك وذلك انك ابتدأتنى بلطف عن غير خبرة ثم اعقبتنى جفاء من غير جريرة فأطمعنى اولك فى اخائك وايأسنى آخرك من وفائك فلا أنا فى اليوم مجمع لك اطراحا ولا انا فى غد وانتظاره منك على ثقة فسبحان من لو شاء كشف بايضاح الشك فى امرك عن عزيمة الراي فيك فاجتمعنا على ائتلاف أوافترقنا على اختلاف والسلام

وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الى الحسن البصرى أن اجمع لى أمر الدنيا وصف لى امر الآخرة فكتب اليه يقول . انما الدنيا حلم والآخرة يقظة والموت متوسط ونحن فى اضغاث احلام ، من حاسب نفسه ربح

ومن غفل عنها خسر ومن نظر فى العواقب نجا ومن أطاع هواه ضـل ومن حلم غنم ومن خاف سلم ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم ومن علم عمل، فاذا زللت فارجع وإذا ندمت فأقلع واذا جهلت فاسأل واذا غضبت فأمسك واعلم أن أفضل الاعمال ما أكرهت النفوس عليه

هذا وقد رغبنا عن الكتب الطويلة ككتاب الحسن هذا إلى عمر هذا يصف له فيه الامام العادل وككتب عبدالملك إلى الحجاج وإجابات الحجاج عنها وكرسالة سالم بن عبـد الله مولى هشام بن عبد الملك عن هشام الى خالد بن عبد الله القسرى والى العراق وكرسائل تلميـذه وشيخ الكتاب عبد الحميد كاتب مروان بن محمد وذلك لطولها وضيق ما نحن فيه عنها اكتفاء بالاشارة اليها هنا وبالكلام فيما سيأتى من وصف الكتابة عنها

ب ـ حياتها

أنهينا الكلام على الـكتابة فى صدر الاسلام بانها كانت كتابة رسائل فحسب لم تصطبغ بصبغة فنية ذات صناعة، وأن الـكتابة الديوانية غير الانشائية كانت معدومة فيه وكذلك الـكتابة العلمية كتابة التأليف والتصنيف، وأبنا أسباب ذلك جميعه. أما وقد تبدلت الحال فى العصر الأموى غير الحال وحالت أسباب وجدت أسباب فقد وجدت الـكتابة الديوانية غير الانشائية والعلمية وتأثرت الانشائية والخطية على النحو الذى نحن بصدد الـكلام عليه الآن

١ ـ الـكتابة الديوانية والاخوانية

نقصد بالـكتابة الديوانيـة ما كان يصدر رسميا عن رجال الدواوين إنشائيا فى الرسائل أو غير انشائى فيما تقتضيه أعمال الدولة التى تشغل مثلها الآن الطوائف المعروفة بكتبة الدواوين وبالاخوانية ما كان إنشائيا غير رسمي بين بعض الناس وبعض.

فكتابة الرسائل فى بدء العهد الاموى سارت مسيرها مدة الخلفاء الراشدين فكان طابعها التبسط فى مباديها وخواتمها ، والسهولة فى عبارتها ، والايجاز فى مقدارها ، والخلو من التكلف فى الفاظها ومعانيها . وكان الخلفاء هم الذين يكتبون بايديهم أو يملون غيرهم ولم تزل كذلك حتى انتهى العصر السفيانى دون أن يحدث فيها جديد الا ما كان من إنشاء معاوية لديوان الخاتم ومهمته أن يرسل اليه ما يكون للخليفة من توقيع ليصدر منه مختوما لا يدرى حامله ما فيه ولا يتسنى له تبديله. وكان سبب انشائه على ماذكر الفخرى فى كتابه الاداب السلطانية أن معاوية أحال رجلا على زياد وهو واليه على العراق بمائة ألف درهم فقرأ الرجل الكتاب وكان غير مختوم وجعل المائة مائتين حتى اذا رفع زياد حسابه الى معاوية أنكر ذلك ثم تبين حقيقة الامر فاستعاد المال من الرجل وأمر بوضع ديوان الخاتم كما تقدم

ولما جاء العهد المروانى واستفحل الملك واتسعت شئونه على أيام عبد الملك ابن مروان ثم استقرت الدولة وهدأت بعد ما تم له القضاء على الزبيريين وعلى الخوارج وقتل عمرو بن سعيد الأشدق قرنه فى طلب الخلافة ، عظم شأن الكتابة الانشائية فاتخذ عبد الملك سليمان بن سعد كاتبا له على الرسائل ولكنه بقى بنفسه يزاولها فى المهم . أما الديوانية غير الانشائية فكان القائم عليها منذ عهد معاوية سرجون بن منصور الرومى وحدث أن عبد الملك أمره بأمر فتوانى فيه ورأى منه بعض التفريط فقال لسليمان هذا إن سرجون يدل علينا بصناعته وأظن أنه رأى ضرورتنا اليه فى حسابه أفما عندك فيه حيلة قال بلى لو شئت لحولت الحساب من الرومية الى العربية وكان سليمان يجيد الرومية ثم كانت قد نبتت نابتة من أبناء العرب تعرفها أيضا وأخرى من أبناء الروم تجيد العربية بحكم المخالطة والتشارك فى هذا المجتمع الجديد فقال أفعل قال أنظرنى

أعانى ذلك قال لك نظرة ماشئت فأكمل سليمان ذلك فى سنة وصرف سرجون عن عمله . وما كاد عبد الملك يفعل هـذا حتى قلده الحجاج واليه على العراق فيما فعل وكان القائم على ديوانه الفارسى قد قتل فى حرب عبد الرحمن بن الاشعث وهو زادان فروخ . والذى كافه الحجاج هذا النقل هو صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم إذ كان يجيد الفارسية وكان مع زادان المذكور وفيه يقول عبد الحميد الكاتب « لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب » . أما ديوان مصر وكان بالقبطية فان الذى أمر بنقله عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر فى خلافة أخيه الوليد بن عبد الملك وكان القائم عليه أنتاش القبطى فحل محله ابن يربوع الفزارى رجل عبد الله فى هذا التحول . وبهذا العمل العظيم فى تلك الاقاليم الشاسعة فتح عبد الملك وابنه الوليد فتحا جديدا أمام العربية وميادين واسعة للعمل أمام ابنائها وإن نظرة واحـدة الى كثرة الايدى المزاولة للاعمال الكتابية فى أى قطر متحضر الآن لترينا قيمة هذا الفتح وعظمة هذه الميادين

رجع الى كتابة الرسائل التى كان عبد الملك قد اتخذ عليها لنفسه سليمان ابن سعد لنقول إنه صرفه عنها الى رياسة الكتابة غير الانشائية بعد تعريبه ديوان الشام ولكن السنة فى تعيين كاتب للرسائل استمرت مرعية بعد عبد الملك فكان لكل خليفة كاتب رسائل، بيد أنه لم تظهر لهؤلاء الكتاب شخصية فيما يصدرون إلا فى سالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه على رسائله فقد كان ينوب عنه فى كثير منها ويشير الى ذلك فى ذيول رسائله وبهذا بدأت تظهر على يديه صناعه الكتابة الانشائية وتحويلها من حالتها السابقة ذات التبسط والاطلاق الى نظم ذات شرائط وقيود إلا أن ما أتاه سالم لم يؤت أكله ولم

يثمر ثمرته الا على يد تلميذه «وزوج قريبته» عبد الحميد بن يحيى الذى عرف بعد بعبد الحميد الكاتب نعم ان لسالم الفضل الاول وبخاصة إذ كان يعرف اليونانية ونقل عنها الى العربية شيئا من رسائل أرسطو الى الاسكندر فساعده ذلك على ما عانى من التجديد فى الرسائل، وجعل الناس يدونون له مجموعة دون غيره، قال ابن النديم عنها انها تبلغ مائة ورقة ولكن ذلك لم يفده على أيامه بل وعاه عنه عبد الحميد ثم أذاعه وزاد فيه أيام ولايته الكتابة لمروان بن محمد فضرب المثل ببلاغة انشائه واعتبر شيخ الكتاب ورئيسهم إذ قيل «بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد» ونسب اليه ابن النديم مجموعة رسائل قال انها تبلغ ألف ورقة ومما ساعد عبد الحميد على هذا النوع فوق ماتقدم من تلمذته لسالم التى هى الاساس لما فيها من نبوغ عربى وكسب يونانى : صحبته لعبد الله بن المقفع الذى كان يجيد الفارسية، فان عبد الحميد استقى منه ما أفاده من تلك اللغة ذات الادب الواسع والحضارة القديمة فجمع إلى ما برع فيه من حذق العربية محاسن الكتابتين اليونانية والفارسية ثم كان عهد مروان عهد فتن واضطراب لاتزال تتطلب منه إرسال رسالة أو كتب كتاب فى شتى الامور ومختلف الاغراض مما جعله يوجد هذه الفنون ويبتكر تلك المبتكرات التى تجلت عنه فى أشياء حاكاه فيها الناس بالدواوين وخارج الدواوين أهمها : ـ

١ ـ عرف فى الكتابة قبل عبد الحميد الايجاز والاطناب وكثر الاول فى العهد السفيانى وظهر الثانى فى العهد المروانى كما تقدمت الاشارة الى ذلك بكتاب الحسن البصرى الى عمر بن عبد العزيز فى صفة الامام العادل وكتب عبد الملك الى الحجاج واجابات الحجاج عنها ولكنهما لم يبلغا المبلغ الذى وصلا به بعبد الحميد فقد وصلا به الى درجة جعلت الناس يقولون فيه (يكتب فى سطر

واحد ما يكتبه فى حمل بعير ويكتب فى حمل بعير ما يكتبه فى سطر واحـد)
وقد روى عن مطولاته أنه كتب عن مروان كتابا الى أبى مسلم الخراسانى
حين أظهر الدعوة العباسية يستميله فيه قال عنه لمروان « لقد كتبت كتابا متى
قرأه بطل تدبيره فان يك ذلك والا فالهلاك » وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل
على بعير فلما وصل الى داهية خراسان أمر باحراقه قبل أن يقرأه وكتب على
جزازة منه الى مروان

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى   عليك ليوث الغاب من كل جانب

ونقل ابن طيفور أحمد بن طاهر فى كتابه المنظوم والمنثور رسالة له عن لسان
مروان أيضا إلى ولى عهده عبد الله بن مروان حين وجهه لمحاربة الضحاك بن قيس
الشيبانى رأس الخوارج فى ستمائة سطر بالخط الدقيق وهى فى صبح الأعشى أيضا.

ويكفى أن نذكر فى درجة إيجازه بعض كتبه الموجزة . كتب موصيا بشخص
(حق موصل كتابى اليك كحقه على إذ جعلك موضعا لأمله ورآنى أهلا لحاجته وقد
أنجزت حاجته فصدق أمله) . وطلب منه مروان أن يكتب موجزا وذاما لعامل
أهدى اليه عبدا أسود فكتب اليه (لو وجدت لونا شرا من السواد وعددا أقل
من الواحد لأهديته) . ولقد كان مع قدرته على الاطناب فى موطن الايجاز وعلى
الايجاز فى موطن الاطناب يتخير لكل مقامه فيطنب فى الأخبار بالفتوح والحث
على الجهاد والوعد المرغب والوعيد المخوف وهكذا ويوجز فى أخبار الهزائم
ووصف الأعداء وتغيير شىء كان مقرا وهكذا فاذا لم يك من داع لأحـدهما
غادرهما الى المساواة كما هى رسائله الخارجة عن بسط الاطناب وإيماء الايجاز
وان اختلفت فيما بينها نسبيا طولا وقصرا

ب ـ أطال فى فواتح الكتب وخواتيمها بما اعتبر جـديدا مع رسوم

أخرى زادها فى غير البدء والختام ففى الفواتح أتى بكثير من التحميدات المتنوعة الاساليب وكانت قبل لا تجاوز الجملة الواحدة فصارت منه تؤدى فى سطور كأن يقول فى بدء كتاب (الحمد لله العلى مكانه المنير برهانه العزيز سلطانه الثابتة كلماته الشافية آياته النافذ قضاؤه الصادق وعده) وينتقل الى صيغة أخرى فيقول « الذى قدر على خلقه بملكه وعز فى سماواته بعظمته ودبر الأمور بعلمه وقدرها بحكمته على ما يشاء من عزمه ، » ثم ينتقل إلى صيغ أخرى بعد هاتين قبل أن يأخذ فى المقصود . وفى الخواتيم التى كانت مقصورة على السلام كان يطيل أيضا بما لا يبعد عن الموضوع كقوله داعيا فى آخر كتاب له إلى أخيه يخبره فيه بأول من رزق من أبناء « فأسأل الله الذى من علينا بحسن صنعه فى الارحام تأديبه بالذكاء وحراسته بالعافية وأن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفى غيره وأن يجعل ما يهب لنا من سلامته والمد فى عمره مرصدا بالزيادة مقرونا بالعافية محوطا من المكروه فانه المنان بالمواهب والواهب لهنى لا شريك له » إلى آخر ما أنهى به الكتاب . ومن الرسوم التى ابتكرها وأخضعها لقيود لم تك قبل شرطا فيها تعقيبه بالحمد بعد البسملة فاصلا بينهما بأما بعد كأن يقول مثلا « بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فالحمد لله » وتغيير المعانى فى المبادىء والخواتيم فضلا عما تقدم فى اطالة الكلام باختلاف أغراض كل كتاب كأن يبدأ الكتاب فيما هو نعمة وسار بالحمد والشكر ويقتصر فيما عداه على البسملة وكأن يختم المنشورات بالبسملة والعهود بنحو (وكفى بالله شهيدا) والتعازى بمثل (انا لله وانا اليه راجعون) الى غير ذلك مما يتنوع بتنوع مايعالج فى الكتاب

جـ ـ أكثر من الرسائل الاخوانية وهى التى تكون بين المرء والمرء بعيدة عن المهام الرسمية وكانت قبله قليلة الكتاب ضئيلة الاصحاب ، ولم يقف فيها

عند غرض دون غرض بل شعب فنونها من تهنئة الى تعزية ومن عتاب الى إيصاء ومن شكر الى استعطاف ومن شكوى زمن الى تصبر واحتمال إلى غير ذلك مما هو مأثور عنه ومروى البعض هنا ومحل إثباته وافيا تكون الترجمة له لاما نحن فيه ان شاء الله .

د ـ اقتحم غير ما تقدم فى الكتابة أمورا لم تعهد الكتابة فى مثلها فعالج فيها معانى لا تطاوع الكاتب فى القدرة عليها وكان مع ذلك قوى الحجة ناصع البرهان وليس أدل على هذا من رسالته فى النهى عن الشطرنج التى كتب بها عن الخليفة الى ولاة الامصار يأمرهم فيها بالضرب على أيدى المستهترين بهذه اللعبة لما شاع إذ ذاك من صرفها الناس عن معاشهم ومعادهم وصلاتهم فيها ليلهم بنهارهم وهى طويلة يقول فيها بعد ديباجة ممهدة للغرض معينة على الحجة ، (وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناسا من أهل الاسلام قد ألهمهم الشيطان بلعبة الشطرنج وحثهم عليها وألف بينهم فيها فهم معتكفون عليها من لدن صبحهم الى ممساهم وهى ملهية لهم عن الصلوات شاغلة إياهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم وافترض عليهم من شرائع أعمالهم مع مداعبتهم فيها وسوء لفظهم عليها وأن ذلك من فعلهم ظاهر فى الاندية والمجالس غير منكر ولا مستفظع عند أهل الفقه وذوى الورع والأديان والاسنان منهم. فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه وكرهه واستكبره) الى أن قال فى آخرها بعد بيان مضارها ومفاسدها يخاطب الوالى (فأذن بذلك فيهم وأشده فى أسواقهم وجميع أنديتهم وأوعز اليهم فيه وتقدم الى عامل شرطتك فى إنهاك العقوبة لمن رفع اليه من أهل الاعتكاف عليها والاظهار للعب بها ، وإطالة حبسه فى ضيق وضنك وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين ولا يجدن أحد عندك هوادة فى التقصير فى حق الله عز وجل

والتعدى لاحكامه فتحل بنفسك ما يسوءك عاقبة مغبتة وتتعرض به لغير الله عز وجل ونكاله وا كتب الى أمير المؤمنين ما يكون منك إن شاء الله والسلام).

فهذه الفتوح لعبد الحميد هي التى أ كبرت من شأنه عند الناس وجعلته عن طيب خاطر منهم شيخ الكتاب وأمطرت عليه من ذوى المعرفة والاقدار أو سمة التفرد والفخار فلله دره رحمه الله وما كان أبره بأبنائه الكتاب حيث أودع لهم نصائحه فى وصيته إياهم وهى طويلة فلنكتف هنا عن نقلها بالاشارة الى بعض مافيها على أن يرجع اليها فى بعض مقارها كمقدمة ابن خلدون. بدأها تغمده الله برضوانه بالدعاء لاهل صناعة الكتابة وبيان منزلتهم وأنها أشرف منزلة بعد الخلافة وأخذ فى بيان نفعها لهم وموقعهم من الخلفاء والملوك ثم أخذ يطالبهم بما توجبه هذه المكانة عليهم من ضرورة اجتماع خلال الخير فيهم وتحليهم بكثير من فضائل عددها لهم ومن ضرورة نظرهم فى كل فن وعلم كالدين والعربية والتاريخ والخط وبعدئذ أخذ يطالبهم بالترفع بأنفسهم عن المطامع وسفاسف الامور والسعاية والكبر وأن يتواصى بعضهم ببعض حتى يجد من نبا به الزمان منهم عونا ومن قعدت به عن العمل سنه مؤانسا. وما أجمل ما أوصاهم به من الاخلاص لمن اصطنعوهم والوفاء لهم فى شدتهم وبلوائهم ولم يفته والكتابة سلم الرقى أن يوصيهم اذا صعدوا بالعدل والرفق والامانة والتواضع وعدم الاغترار بالصحبة قبل البلاء والاختبار على أنه مع هذا أوصاهم بالعمل على اصلاح الاخوان ورياضتهم كما لم يفته أن يحذرهم الاشر والبطر وتجاوز المرتبة والمنزلة والاغترار بالنفس والتعالى على النظراء. ولقد جعل ختام وصيته بعد الذى طلب فى آخرها من حمد الله وسؤاله التوفيق ، مطالبتهم العمل بهذه المثل (من تلزمه النصيحة يلزمه العمل) فلم يذكر بعده الا الدعاء لهم آخرا كما دعا لهم أولا

٢ — الكتابة العلمية

وبدء التدوين

يعتبر العصر الاموى أول عصر ظهرت فيه الكتابة العلمية لأن وضع العلوم التى اقتضاها الاسلام من شرعية كالتفسير والحديث والقراءات والفقه، ولسانية كالنحو، وغيرهما مما اشتغل به المسلمون كالتاريخ والكيمياء والفلك والطب لم يبدأ الا فيه فوجدت بذلك لغة التأليف والتصنيف وهى لغة لم يك للعربية بها عهد من قبل وهذى كلمة عن كل من هذه العلوم

العلوم الشرعية — هى المستخرجة من القرآن والسنة وأهمها كما تقدم التفسير والحديث والقراءات والفقه. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم فى عصر صدر الاسلام يشتغلون بها جميعا كأنها علم واحد وكان المرجع فيه الى القراء منهم دون تفرقة بينها ولا تفرد من واحد منهم بأحدها شأن كل جديد ولذلك لم يؤثر عنهم أى تأليف فى شىء منها الا ماهو منسوب الى ابن عباس المتوفى سنة ٦٨ من تفسير. على أن وفاته فى تلك السنة تخرجه عن صدر الاسلام الى العصر الاموى الذى نتكلم فيه وهذا إلى أن تفسيره لم يك أثرا مكتوبا إنما كان مجرد آراء نقلت عنه بالرواية وكان أشهر ناقليها مجاهدا المتوفى سنة ١٠٤ والمنسوب إليه تفسير أجمع الباحثون على أنه أول تفسير عرف، وكثير منهم يقول إن تفسير ابن عباس هو تفسير مجاهد دون وأثبت. ولم يعرف عن التفسير فى هذا العصر غير ماذكرنا .

والحديث كان الحامل على الاشتغال به مع الاشتغال بالتفسير الذى هو الاساس ما كثر من التأويل والفتاوى بعد مقتل عثمان وعلى وانقسام الامة أحزابا وشيعا تأخذ كل منها نهجا دينيا تريد أن تنتصر فيه لنفسها عن طريق الدين الذى لم يك به مايشبع نهمها سوى الحديث. فكثر لذلك الوضع على رسول الله من غير المتورعين، والهوى يعمى ويصم . فلما فاضت

الاحاديث الموضوعة اضطر علماء الامة إذ ذاك الى الوقوف فى طريقها وتفرغوا لدراسة الحديث حتى نشأت طبقة المحدثين فوضعت أصولا للحديث تميز صحيحه من فاسده وقويه من ضعيفه وغير ذلك مما تكون منه مصطلح الحديث ولكن لا الى الدرجة التى عرف بها فى العصر العباسى من تفصيل. وبالرغم من كثرة المحدثين فى العصر الاموى كيزيد بن سفيان وعاصم بن سليمان وشعبة بن الحجاج وخالد الحذاء لم تعرف عنهم مؤلفات فيه الا ماكان لابى بكر محمد بن عمرو بن حزم نائب عمر بن عبد العزيز فى القضاء وواليه على المدينة فقد روى أن عمر أذن له فى تدوين حديث رسول الله فدون مايحفظ منه فى كتاب بعث به عمر إلى الامصار ولكن لم يعرف عن هذا الكتاب سوى هذا الخبر.

وعلوم القراءات كانت كلها فى هذا العصر تعلم بالتلقى على القراء ولم يعرف أن أحدا منهم على كثرتهم أقدم على التأليف فيها حتى جاء العصر العباسى الذى دون فيه مانقل عنهم ومازاد. وقد تقدم شىء ليس بالقليل عن القراءات أول هذا الكتاب حين الكلام على القرآن تحت عنوان « جمعه وروايته ».

أما الفقه فلم توجد أمة أسرعت كالعرب فى وضع أصوله وتفريع فروعه لأن اتساع ملكها وبسطة نفوذها على كثير من الممالك والامصار مع اتخاذها كتاب الله وسنة رسوله مرجعا فى كل تشريعاتها اضطرها أن تعمد اليهما لاستخراج ما تحتاج اليه من قوانين. وكان أول المشتغلين بالفقه الصحابة وجاء من بعدهم التابعون فعرفت فيهم طبقة باسم الفقهاء كطبقات المفسرين والمحدثين ولا سيما فى مدينة رسول الله التى كانت مرجع الفتيا مدة العصر الاموى، غير أن الفقهاء مع كثرتهم لم يخلفوا آثارا مكتوبة فى الفقه فلم تعرف فيه مؤلفات

قبل الأئمة الاربعة فى العصر العباسى بعد وكان أولهم مالك بن أنس صاحب الموطأ الذى أثبت فيه الحديث مرتبا على أبواب الفقه فكان أول كتاب فقهى عرف وأول كتاب فى الحديث أيضا لأن ما وضعه ابن حزم لم يعرف عنه شىء بعد إرسال عمر بن العزيز به إلى الامصار كما تقدم

العلوم اللسانية — لم تضع العرب من العلوم اللسانية فى العصر الاموى سوى النحو الذى سبقت به سائر العلوم اللسانية كما سبقت به من حيث التأليف جميع العلوم الاخرى من شرعية وغير شرعية وذلك لأن ما امتازت به العربية من اختلاف حركات الاعراب وكثرة دواعيها ودقة فروقها جعل اللحن ينتشر فى كلام الكثير عقب اتساع الفتوح وشدة الاختلاط فراع القوم ما راعهم على هذا اللسان وخشوا على القرآن ما خشوا من اللحن فى القراءة والتحريف فسارعوا إلى وضع هذا العلم وتقدموا فى أبحاثه ولما ينقض من العهد الأموى شطر كبير، فان أبا الاسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩ وهو أحد التابعين بالبصرة وذو الشهرة الكبيرة بالذكاء والبديهة والدهاء والمعرفة الواسعة بالقرآن والحديث والشعر قد أصل أصول النحو وفرع كثيرا من فروعه حتى اختلف اليه عدد كبير من رجال البصرة يتعلمونه منه ويتلقونه عليه كان منهم يحى بن يعمر وميمون الاقرن اللذان أخذ عنهم النحو عبد الله بن أسماء الحضرمى ففرع فيه وقاس حتى عمل كتابا فى الهمز وحده وصار اعلم اهل البصرة ووأحدهم فى هذا الباب ثم وجدت طبقة ثالثة كان منها ابو عمرو بن العلاء ذو العلم الواسع باللغة والشعر ومذاهب العرب وعنه أخذت طائفة نقلت النحو الى الكوفة أشهرهم عيسى بن عمر الثقفى فقد بسط النحو وصنف فيه عدة مؤلفات وهو

صاحب الفضل على سيبويه الذى يعرف درجته ويدين بعلمه حتى قيل إنه لما فارقه الى الخليل بن أحمد وسأله عن مصنفاته خبره أنها بلغت نيفا وسبعين وحتى قيل أيضا إن أوسعها واسمه الجامع هو الذى أخذه سيبويه كما قال عن نفسه وكان يسأل الخليل عن غوامضه وهو بعينه «الكتاب» المنسوب إلى سيبويه بعد أن بسطه بعض البسط وزاد فيه بعض التحشية من كلام الخليل.

وقد اختلف فى المناسبة الاولى التى حدت بأبى الاسود أن يضع النحو. فقيل إن بنتا له نظرت الى السماء فقالت يا أبت ما أحسن السماء وضمت النون فقال لها نجومها فقالت لم أرد هذا إنما أردت أن السماء حسنة فقال لها اذن فقولى ما أحسن السماء وفتح النون ثم ذهب الى على كرم الله وجهه من صباحه فقص عليه القصة وقال انى أخاف أن يفسد لسان العرب بمخالطة هذه الحمراء فقال له على يا أبا الاسود انح للناس نحوا يعتمدون عليه فقال وكيف أقول يا أمير المؤمنين قال قل «الكلام كله اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبيء به والحرف ما أفاد معنى، واعلم يا أبا الاسود أن الاسماء ثلاثة ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر» قال أبو الاسود فأثبت هذا ثم وضعت بابى التعجب والاستفهام وبابى العطف والنعت وهكذا الى أن وضعت باب إن واخواتها ما خلا لكن فلما عرضتها عليه أمرنى بضم لكن اليها وكنت كلما وضعت بابا عرضته عليه الى أن حصلت ما فيه الكفاية فقال لى ما أحسن هذا النحو الذى نحوت. ومن هنا ومما تقدم من قوله له (انح للناس نحوا يعتمدون عليه) سمى هذا العلم النحو. وقيل إن المناسبة عرضت لعلى نفسه وكان أبو الاسود الدؤلى عنده وذلك بأن تداعى اليه رجلان فادعى أحدهما قبل الآخر مالا فأعذر على إلى الآخرِ في ذلكِ فقالِ يا أميرِ المؤمنين (ما لُه عندي حق) بضم اللام فقال له علي

أدفع اليه ماله قال وكيف وقد أردت نفى المال عنى فقال رحمه الله فسد اللسان وركب الكعبة ثم قال يا أبا الاسود انح للناس نحوا يعتمدون عليه وتسلسل الحديث الى آخر ما ذكرنا. وعلى كلتا الروايتين يكون المشير بوضع النحو والمرشد فى وضعه على بن أبى طالب كرم الله وجهه والواضع بالفعل أبا الاسود الدؤلى فجزاهما الله عن العربية خيرا

العلوم الاخري ــ نقصد بها غير الشرعية واللسانية كما تقدم ولم يك لها حظ فى هذه الدولة لعدم اشتداد الحاجة اليها ولأنها لم تك ذات مرجع عندهم يعتمدون عليه بخلاف الشرعية واللسانية فى الامرين معا وهى لا تعدو كما سبق التاريخ والكيمياء والفلك والطب ، وكل ما يقال عن اشتغال العرب بها مدة العصر الاموى يجمل فيما يأتى .

١ ــ التاريخ ــ أولع معاوية بن أبى سفيان باستماع قصص العرب وتواريخ أمم العجم فكان يجلس لذلك كل ليلة يستمع هذه الاخبار من الواقفين عليها شطرا من الليل وكان من نتائج هذه الرغبة أن ألف له عبيد بن شرية وأصله من صنعاء أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وعمر إلى أيام عبد الملك بن مروان كتاب الملوك وأخبار الماضين كما ذكر ابن النديم ولكن لم يوقف لهذا الكتاب على أثر بعد كما هى الحال فى كتب تاريخية أخرى ذكرها ابن النديم عن هذا العصر أيضا منها كتاب تراجم المشاهير لأبى مخنف الأزدى من أصحاب على وكتاب سيرة معاوية لأبى عوانة بن الحكم الكلبي وكتاب له آخر فى التاريخ العام وكذلك كان من رجال التاريخ الذين كتبوا فى هذا العهد وهب بن منبه وموسى بن عقبة . ومما كان اشتغال النـاس به شديدا فى هذا العصر الذى بعثت فيه العصبية علم الانساب وهو علم عنيت به العرب منذ جاهليتها عناية

لم تعرف عن أمة غيرها . قيل إن من الكتب التى وضعت فيه مدة بنى أمية كتابين وضعهما زياد لابنه عبيد الله أحدهما فى نسبته الى أبى سفيان بن حرب والثانى فى مثالب العرب قبيلة قبيلة ليشتغله ابنه ضد من لا يعترفون بتلك النسبة

ب — الكيمياء والفلك والطب — لما انتقلت الخلافة الاموية من البيت السفيانى إلى المروانى ويئس خالد بن زيد بن معاوية منها وكان ذا همة وذكاء صرفهما إلى اكتساب العلم . ولما كانت صناعة الكيمياء رائجة إذ ذاك استقدم من الأمصار بعض ذوى الخبرة بها وعكف عليهم يتعلمها منهم ولما حذقها ألف فيها بالعربية . وكذلك كان راغبا فى علم الفلك فأنفق الاموال فى طلبه وإحضار عدده حتى برع فيه وألف أيضا ذكر ابن القفطى فى كتابه أخبار الحكماء عن ابن السبندى وهو يترجم له أنه شاهد فى خزائن الكتب بالقاهرة كرة نحاسية مكتوبا عليها (حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاويه) . وكما كان خالد اول المشتغلين فى هذه الدولة بالكمياء والفلك قيل إنه اشتغل كذلك بالطب وألف فيه أيضا ولكن لم يصل الينا شىء من تآليفه هذه جميعا كما لم يصل من تآليف غيره إلا اليسير الذى لا يعتد به كترجمة ماسويه السريانى الجنس اليهودى المذهب وكان بالبصرة على عهد مروان بن الحكم وابنه عبد الملك لكتاب القس أهرون بن أعين السريانى فى الطب وهو الكتاب الذى وجده عمر بن عبد العزيز فى خزائن دمشق وأذاعه على المسلمين للانتفاع به .

هذا ومما تقدم يفهم أن موطن العلوم الشرعية كان الحجاز وموطن اللسانية كان العراق وموطن الاخرى كان الشام

٣ — الكتابة الخطية
ووضع
الشكل والاعجام

وصل الخط فى نهاية صدر الاسلام كما بينا آنفا الى نوعين الكوفى أصل الثلث ثم الحجازى أصل النسخ وكان خلوا من الشكل ومن الاعجام أى النقط. وقد بقى على هذين النوعين معظم العهد الاموي حتى ظهر فى أواخره قطبة المحرر الذى كان يتولى كتابة المصاحف لبنى أمية فاستنبط من كل منهما نوعا جديدا زاد فى تقريبه الى مانعرفه الآن من ثلث ونسخ فصارت الخطوط أربعة وقداخترع لذلك قلمين هما الجليل الذى يكتب به على المبانى ،والطومار وهو أصغر منه،ولم تزل الحال من بعده على ذلك حتى انقضى العصر الاموى دون أن يحدث فيه سوى هذين الخطين وسوى الشكل والاعجام وهما أهم ماحدث بالكتابة الخطية فيه .

فأما الشكل فالمراد به علامات الحركات من فتحة وكسرة وضمة ومايتصل بها من علامات التنوين والسكون والشد وغيرها.وقد كان الدافع الى وضعه استمرار الناس يلحنون بعد أن وضع أبو الاسود ماوضع من قواعد النحو، لأن تلك القواعد لم تكن شاملة لجميع أساليب اللغة لقلتها شأن كل جديد ولأنها لاتتناول سوى آخر الكلمات غالبا ولأن مراعاتها لاتتيسر الا للخاصة لما تحتاجه من دقة وعناية ودربة ومرانة . وبالنظر الى أن تفشى هذا اللحن وخوف العلماء والامراء على القرآن منه قد ظهر وأبو الاسود الدؤلى واضع النحو لايزال حيا كان من الطبيعى أن يلجأ الناس اليه فى هذا الاصلاح المنشود. فقيل إن زيادا والى العراق بعث اليه وكان معه بالبصرة فقال له (ياأبا الأسود

إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب فلو وضعت شيئا يصلح به الناس كلامهم ويعرفون به كلام الله تعالى) ولما كانت هذه العبارة لينة لاتتجاوز عرض أمنية وكان أبو الاسود من شيعة علي ومبغضي الدولة الاموية وقد عزلوه عن البصرة فقد وجد منفذا لعدم اجابه هذه الرغبة وتثاقل فى الامر ولكن زيادا رأى أن يحقق رغبته معه بطريق حساس لاشدة فيه ذلك هو طريق الدين فدس له رجلا ينتظره فى طريقه حتى إذا مامر به قرأ رافعا عقيرته (إن الله بريء من المشركين ورسوله) بجر رسوله ففعل فاستعظم أبو الاسود ذلك وقال عز وجه الله أن يتبرأ من رسوله ثم ذهب الى زياد مسرعا فقال له قد أجبت الى ماسألت ورأيت أن أبدأ باعراب القرآن فابعث الى بعض الكتبة فأرسل له ثلاثين كاتبا تخير واحدا منهم كان من عبد القيس وقال له خذ المصحف وخذ صبغا يخالف لون مداده وانظر الى فى القراءة فان رأيتنى فتحت شفتى بالحرف فانقط واحدة فوقه واذا كسرتهما فانقط واحدة أسفله وإذا ضممتها فاجعل النقطة بين يدى الحرف فاذا أتبعت شيئا من هذه الحركات غنة (يقصد التنوين) فانقط نقطتين. ثم أخذ فى القراءة والكاتب يفعل ماأمره به ولم يزل على ذلك حتى أتم القرآن كله وكان الصبغ الذى تخيره الكاتب مخالفا لمداد المصحف « وهو الاسود » هو الصبغ الاحمر

هذا ماوضع أبو الاسود واتبعه فيه الناس ولكن استمرار التقدم الطبيعي فى كل شيء جعلهم يزيدون من بعده علامات أخرى كالسكون الذى جعلوه جرة أفقية فوق الحرف والشدة التى جعلوها قوسا يوضع على طرفيه فوق الحرف المفتوح وداخله الفتحة ، وتحت المكسور وتحته الكسرة ، وعلى شمال المضموم وعلى شماله الضمة، ولم يلبثوا أن قلبوا القوس فى الضمة والكسرة

مع الاستغناء عن نقطتهما دون الفتحة التى تبقى معا على أصله ثم أحدثوا تعديلا فى نقطتى التنوين بأن جعلوا إحداهما فوق الاخرى اذا كان الحرف التالى له حلقيا يظهر معه فى النطق ومتجاوزتين اذا كان غير حلقى يلزم معه الادغام أو الاخفاء . وقد اشتهر الشكل وشاع استعماله فى المصاحف دون الكتب والرسائل فبقى شكلها نادرا وبخاصة اذا كان المكتوب اليه من ذوى الدراية يعد الشكل سوء ظن به كما قال بعض الكتاب (شكل الكتاب سوء ظن بالمكتوب اليه)

وأما الاعجام فالغرض منه تمييز الحروف المتشابهة بعلامات تمنع اللبس بينها وهو يخالف الشكل من وجهة أن الشكل لم يك معروفا مطلقا قبل وضعه واستعماله وهو لابد كان معروفا منذ أن عرف الخط قبل الاسلام إذ يبعد جدا أن توضع الحروف حيث وضعت وفيها هذا التشابه الكبير دون علامات تدفع ما يترتب على هذا التشابه من لبس شديد،غير أنه لم يك مستعملا فجهل كنه هذه العلامات حتى اذا ما اتسعت الفتوح واشتد الاختلاط وكثر اللحن الذى دعا إلى وضع النحو والشكل كثر التصحيف أيضا وتناول كثيرا من آي القرآن كأن تقرأ الآية (وما يجحد بآياتنا الاكل ختار كفور) بلفظ جبار والآية (وعذابى أصيب به من أشاء) بلفظ أساء والآية (أحسن أثاثا وريا) بلفظ زيا والآية (والذين كفروا فى عزة وشقاق) بفلظ غرة والآية (وماكان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه) بلفظ أباه والآية (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) بلفظ يعنيه وهكذا مما لا يبعد به التصحيف إلى معنى خاطىء ولا كثير البعد عن المعنى الاصلى فارتاع الناس لذلك ارتياعا شديدا على أيام عبدالملك بن مروان وبخاصة فى العراق على عهد واليه الحجاج

الذى فزعوا اليه يطلبون دواء وفزع هو إلى كتابه يسالهم وضع علامات تميز بين المتشابه من الحروف دفعا لهذا التصحيف فاجابه إلى ما سأل نصر بن عاصم وساعده فى ذلك يحى بن يعمر وكلاهما من تلاميذ أبى الأسود صاحب الفضل الاول فى النحو والشكل ووضعا علامات النقط. ولكن لما كانت علامات الشكل نقطا كما تقدم استحسنا ألا تكون علامات الاعجام نقطا منعا للاختلاط فجعلاها أشراطا صغيرة توضع بالمداد الأسود وهو الأصلى زيادة فى التمييز بينها وبين علامات الشكل التى بقيت منذ أيام ابى الأسود تكتب بالمداد الاحمر. هذا ماكان ولم يزل الأمر عليه طول العهد الاموى وشطرا من أول العباسى الى أن جاء الخليل ابن أحمد فجعل علامات الاعجام كما هى الآن نقطا وعدل عن نقط الشكل إلى صوره المعروفة وقد أخذها من صور الحروف الناشئة عن الحركات وهى الواو للضمة والالف أفقية مائلة للفتحة وكلتاهما فوق الحرف والياء للكسرة تحته، كما غير السكون من الجرة الافقية إلى دائرته المعروفة الآن، والتشديد من القوس إلى علامته الحالية المأخوذة من أول كلمة شديد مثلا، وأتم سائر العلامات المعروفة من مد وغيره وشاع استعمال هذه العلامات جميعا ثم صارت تكتب كلها بالمداد الاسود حيث لم تعد حاجة إلى المخالفة فى الالوان للتفرقة لما أصبح واضحا فى أشكالها من فروق

هذا — أما وقد انتهينا إلى هنا من ذكر أنواع النثر التى كانت معروفة فى الجاهلية وصدر الاسلام وإن لم تجتمع معا فى أحدها فانه لا يفوتنا الكلام على نوع من المنثور جديد اقتضاه ما كان فى العهد الاموى من اختلاط العرب بالاعاجم اختلاطا أنتج ما أنتج من لحن وتحريف ذلك هو لغة التخاطب التى أصبح يستخدمها السواد

لغة التخاطب

واللحن والتحريف

هذا عنوان لم نعقد مثله فى عصرى الجاهلية وصدر الاسلام. فأما فى الجاهلية فلأن ملكة اللغة كانت لدى عامتهم وخاصتهم سواء كلهم يقيم الاعراب ويتجاوز بكلامه عن سليقة مزالق اللحن والتحريف لأنهم كانوا محصورين فى جزيرتهم بعيدين عن الاختلاط بغيرهم وكانوا يتعففون عن هذه المخالطة ويعدون مصاهرة الاعاجم سبة وعارا. نعم إن الملكة كانت توغل فى الثبات و لرسوخ كلما كانت القبيلة بعيدة عن مظان الاختلاط ضاربة فى ديار العروبة البعيدة عن الاعجام كقريش وثقيف وهزيل وخزاعة وكنانة وأسد وتميم فاذا ماتعرضت له لوجودها فى الاطراف قلت ملكتها جودة وظهرت فى كلامها آثار ذلك كما فى لغات القبائل المجاورة للفرس فى ريف العراق مثل تغلب وبكر والمجاورة للروم فى مشارف الشام مثل قضاعة وغسان والمخالطة للهند فى البحرين مثل عبد القيس وأزد عمان، ولكن ذلك لم يسلب من لغات هذه القبائل ومثيلاتها صحة النطق وميزة العروبة وان كانت أقل فصاحة من لغات تلك . وأما فى صدر الاسلام فلأن الملكة لم تزل فيهم قريبة مما كانت عليه فى الجاهلية فبقيت لغة التخاطب قائمة الاعراب قوية الأداء حتى على ألسنة الموالى الطويلى المكث بينهم، أما حديثو العهد فى الاقامة معهم فكانوا يرتضخون لكنة من لغتهم الاولى كحبشية بلال وفارسية سلمان ورومية صهيب، كما كان يقع منهم بعض اللحن والتحريف. روي أن رجلا منهم لحن بحضرة رسول الله

صلى الله عليه وسلم فقال « أرشدوا أخاكم فقد ضل » .وعلى هذا انسلخ عهد الخلفاء ولم يؤثر فيه من اللحن مايعتد به ولذلك كانت النظرة الى اللحنة تبدر من الرجل نظرة استهجان له واستعظام لما صدر منه. قيل إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بقوم يتناضلون ورمى بعضهم فأخطأ فقال له عمر أخطأت فقال ياأمير المؤمنين «نحن متعلمين»فقال له عمر والله لخطؤك فى كلامك أشد علينا من خطئك فى نضالك ثم قال احفظوا القرآن وتفقهوا فى الدين وتعلموا اللحن يريد اتقاءه أو اللغة المجودة كما فى قوله تعالى (ولتعرفنهم فى لحن القول).

أما فى العهد الاموى حيث انتشر العرب النازحون فى الامصار واشتدت مخالطتهم لاهلها الاصليين من الأعجام ووصلت تلك المخالطة الى العشرة الملازمة والمصاهرة الدائمة فقد نشأ جيل عربى يسمع من الاعاجم كما يسمع من العرب فوجدت لغة تخاطب لم تك موجودة من قبل وما اللغة الا وليدة المحاكاة والسماع ومن هنا كان من الضرورى فى العصر الاموى إفراد هذه اللغة بكلمة تصف حالها وتبين كنهها على اختلاف الامصار وتباين المتكلمين.فهذه اللغة الجديدة كانت خليطا من العربى المشوه بعضه باللحن والتحريف، والاعجمى الذى يختلف باختلاف الاعجميات فى الامصار من فارسية بالعراق ورومية بالشام وقبطية بمصر وهكذا ولكنها لم تتناول بلحنها وتحريفها ودخيلها جميع المتكلمين. فكانت بعيدة عن ذلك كله على ألسنة النازحين من العرب أنفسهم وكذلك تقريبا على ألسنة أبناء الخاصة منهم من أمهات عربيات أما أبناؤهم من غير العربيات وأبناء عامتهم مطلقا فلم تخل لغتهم من شىء من هذا،وقد يكون مصحوبا بلكنة أعجمية أيضا ولكن هؤلاء جميعا كانت محادثتهم عربية فى مجموعها بالنظر إلى محادثة الاعاجم أهل البلاد الاصليين إلا من تعلموا العربية منهم ونبغوا

فيها فقد كان مثلهم مثل العرب النازحين ولذلك سابقوهم فكانوا مثلهم فى ميادين الادب والشعر وأسبق منهم فى ميادين العلم والتأليف

هذا هو تيار العامية الجديد أصاب من أصاب ممن ذكرنا ثم لم يزل يعدو على إعراب العربية باللحن وعلى بنيتها بالتحريف ويقذف بين مفرداتها بكثير من الدخيل حتى طم وطغى وتطرق إلى ألسنة كثير من الفصحاء كعبيد الله ابن زياد والوليد بن عبد الملك وخالد القسرى فقد أصيبوا برذاذه على ماهم عليه من فصاحة وبيان كما أصيب غيرهم وغيرهم إلى أن أصبح البعيدون عن اللحن فى خاصة المتكلمين معدود بن معروفين. روى عن الاصمعى أنه قال (أربعه لم يلحنوا فى جد ولا هزل، الشعبى وعبد الملك بن مروان والحجاج ابن يوسف وابن القرية والحجاج أفصحهم) على أن هذا القول عقب عليه غيره بما جعلهم ثلاثة لا أربعة إذ أبعد الحجاج منهم وإن كان أفصحهم، لما روى من أنه قال مرة للشعبى كم عطاءك بنصب عطاء فقال ألفين بالنصب أيضا فأدرك لحنه وأعاد السؤال بالرفع صحيحا فقال الشعبى ألفان مصححا أيضا فقال له لم لحنت فيما لا يلحن فيه مثلك قال لحن الامير فلحنت وأعرب فأعربت ولم أكن ليلحن الامير فأعرب أنا عليه فأكون كالمقرع له بلحنه والمستطيل عليه بفضل القول، ولما روى أيضا من أنه قال ليحيى بن يعمر أتسمعنى ألحن قال فى حرف واحد قال فى أى قال فى القرآن قال ذلك أشنع ماهو قال تقول « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم » الى قوله أحب اليكم فتقرؤها بالرفع فقال لاجرم لا تسمع لى لحنا ثم ألحقه بخرسان غاضبا عليه . وأمثلة اللحن غير ما ذكرنا كثيرة ولقد كان بعضها يحمل على تغيير المعنى كما روى من أن الوليد بن عبد الملك قال لرجل دخل عليه من ختنك بفتح النون فقال رجل من الحى لا أعرف اسمه وكان

عمر بن عبد العزيز حاضرا فقال إنه يقول من ختنك وضم النون فقال هو ذا بالباب. وسمع اعرابى رجلا يقول أشهد أن محمدا رسول الله بنصب رسول فقال يفعل ماذا. ومن التحريف ما روى من أن يزيد بن عبد الملك قال على المنبر مرة فى سب على لص بضم اللام وكان أعرابى لا يضمها تحت المنبر فقال « فى قوله أعجوبتان أنه رمى عليا بأنه لص وأنه بلغ من جهله أن ضم لام لص». وما قيل من أن يوسف بن خالد التيمى كان يقول هذا أحمر من هذا يريد أشد حمرة منه وقولهم هذه عصاتى بزيادة تاء، وحى على الفلاح بكسر الياء وهى مفتوحة إلى غير ذلك مما شاع مضافة اليه اللكن الاعجمية على ألسنة أبناء الاعجميات كقلب العين همزة والحاء هاء وكالتحدث عن الذكر بلهجة الانثى والعكس وكالحيدة عن الالفاظ الموضوعة للمعنى إلى ألفاظ أخر يدفع اليها الارتضاخ الشديد بالعجمة كقول عبيد الله بن زياد للجند يوما « افتحوا سيوفكم » وقول خالد القسرى مرة « أطعمونى ماء » وهكذا

غير أن شيوع اللحن فى العصر الاموى لم يزعزع من عقيدة الناس فى لغتهم لأنها لغة القرآن وأساس الدين مع اصطباغ الدولة بالصبغة العربية المحضة فاستمروا يتهيبون اللحن ويذمونه ويفتخرون بالاعراب ويمدحونه.

دخل رجل على زياد فقال إن أبو ناهلك وإن أخينا غصبنا ميراثنا من أبانا فقال ماضيعت من نفسك أكثر مما ضيعت من ميراثك فلا رحم الله أباك حين ترك ولدا مثلك.

.واختصم رجلان الى عمر بن عبد العزيز فجعلا يلحنان فقال الحاجب قما فقد آذيتما أمير المؤمنين فقال عمر أنت والله أشد إيذاء لى منهما.

واختار الحجاج عامله على البصرة رجالا منهم كثير بن أبى كثير فقال ماأرانى أفلت من الحجاج إلا باللحن فلما دخلوا عليه به وقال لهما اسمك قال كثير قال ابن من

قال فقلت فى نفسى إن قلت ابن أبى كثير لم آمن أن يتجاوزها فقلت ابن أبا كثير فقال اعزب لعنك الله ولعن من بعث معك . وقيل لعبد الملك بن مروان لقد عجل عليك الشيب ياأمير المؤمنين فقال شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن ،وكان يقول الاعراب جمال للوضيع واللحن هجنة للشريف، ومن وصاياه أصلحوا من ألسنتكم فان المرء تنوبه النائبة فيستعير الثوب والدابة ولا يمكنه أن يستعير اللسان . وتكلم رجل فسبق إلى لسانه مالم يرد فلحن فقال حسبي الله والله لقد وجدت حرارتها فى حلقى قبل أن أتكلم بها . ودخل أعرابى السوق فسمع الناس يلحنون فقال سبحان الله يلحنون ويربحون . وكان يحيي بن نوفل يقول اللحن فى المنطق أقبح من آثار الجدرى فى الوجه.وقال إبان ابن سعيد اللحن فى الرجل ذى الهيبة كالدنس فى الثوب الجديد.وقال يزيد بن مفرغ يعير عبيد الله بن زياد بقوله للجند افتحو سيوفكم

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكان أمرك للضياع

وقال رجل يعد من مناقبه عدم لحنه

فان فى المجد همتى وفى لغتى علوية ولسانى غير لحان

لهذا كله أصبحت الفصيحة فى حذقها شديدة الحاجة إلى التلقين الصحيح والتعليم على أيدى المؤدبين والعلماء ومن ثم حرص الخلفاء على الامرين معا فى تنشئة أبنائهم تنشئة صحيحة فلم يقفوا عند استحضار المؤدبين بل عمدوا إلى استخدام فصاحة البادية التى كانت على ما كانت عليه من فصاحة وبيان فصاهروا قبائلها منذ العهد الاول كما فعل معاوية بزواج بحدل الكلبية أم يزيد وكانوا يبعثون بأبنائهم اليها لينشئوا نشأة الأعراب كما كانوا يزوجونهم منها. وكذلك حرص العلماء على أخذ اللغة عن أهل البادية فما زالوا يتتبعونهم فى

بواديهم ويتحكون بهم فى التحدث اليهم كى يقيدوا ألفاظهم وينقلوا محاوراتهم فتكون حجة لديهم ومرجعا بين أيديهم غير واثقين بالحضريين الذين كانوا دونهم ثبات ملكة ودقة استعمال. قال العجاج كان الكميت والطرماح يسألانى عن الغريب فأخبرهما به ثم أراه فى شعرهما وقد وضعاه فى غير مواضعه فقيل له ولم ذلك قال لأنهما قروبان يصفان مالم يريا فيضعانه فى غير موضعه وأنا بدوى أصف مارأيت فأضعه فى مواضعه وكذلك كان العلماء يتحاكمون الى الأعراب فيما أشكل عليهم فيأخذون بحكمهم وينصاعون الى قولهم الى عهد ليس بالقليل من العصر العباسى بعد كما كان يفعل الاصمعى فيه اقتداء بما كان يفعله فى العصر الأموى قبله أبو عمرو بن العلاء

الشعر

ا ـ نماذجه

١ ـ الشعر السياسي

حينما عزم معاوية على البيعة ليزيد وكان قد بلغه ماكره من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر أوعز الى مسكين الدارمي أن يقول في ذلك متى اجتمعوا عنده فقال .

ألا ليت شعري مايقول ابن عامر   ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلا فانما   يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاه ربه   فان أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجد صاعد   لكل أناس طائر وجدود
فلا زلت أعلى الناس كعبا ولا تزل   وفود تساميها اليك وفود
ولازال بيت الملك فوقك عاليا   تشيد أطناب له وعمود
قدور ابن حرب كالجوابي وتحتها   أثاف كأمثال الرئال ركود

فلما انتهى قال معاوية ننظر فيما قلت يامسكين ونستخير الله فلم يتكلم أحد إلا موافقا .

ولما كانت الانصار متشيعة لعلي ضد معاوية طلب ابنه يزيد من كعب بن جعيل أن يهجوهم فابى ولكن دله على الاخطل فدعاه وأمره بذلك فقال فيهم من قصيدة

لعن الاله من اليهود عصابة بالجزع بين أصليصل وصرار
قوم اذا هدر العصير رأيتهم حمرا عيونهم من المسطار
خلوا المكارم لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بنى النجار
إن الفوارس يعملون ظهوركم أولاد كل مقبح أكار
ذهبت قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار

فدخل النعمان بن بشير الانصارى على معاوية ثم حسر العمامة عن رأسه وقال
يامعاوية هل ترى لؤما قال ما أرى الا كرما قال فما بال عبد الاراقم يقول فينا

ذهبت قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار

ثم قال

معاوى إلا تعطنا الحق تعترف لحى الازد مشدوداً عليها العمائم
أيشتمنا عبد الاراقم ضلة فماذا الذى تجدي عليك الاراقم
فمالى ثأر دون قطع لسانه فدونك من ترضيه عنك الدراهم

إلى أن قال طاعنا فى خلافة معاوية وفاخرا بأعمال الانصار وأحسابهم

وإنى لأغضى عن أمور كثيرة سترقى بها يوما اليك السلالم
أصانع فيها عبد شمس واننى لتلك التى فى النفس منى أكاتم
فما أنت والامر الذى لست أهله ولكن ولى الحق والامر هاشم

فوهبه معاوية لسانه ثم أوعز الى ابنه يزيد أن يستشفعه فيه فقبل

وبيت النعمان هذا على ماكان من ولائه لمعاوية أولا يرى فسادأمر بنىأمية
فى أواخر حكمها فهذا حفيده شبيب بن زيد بن النعمان يقول من قصيدة
على أيام الوليد بن يزيد

يا أيها الراكب المزجى مطيته　　لقيت حيث توجهت الثنا حسنا
أبلغ أمية أعلاها وأسفلها　　قولا ينفر عن نوامها الوسنا
أن الخلافة أمر كان يعظمه　　خيار أولكم قدما وأولنا
فقد بقرتم بأيديكم بطونكم　　وقد وعظتم فما أحسنتم الاذنا
لما سفكتم بأيديكم دماءكم　　بغيا وغشيتم أبوابكم درنا

وقال يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى فى استلحاق معاوية زياد بن أبيه بأبى سفيان

ألا أبلغ معاوية بن صخر　　مغلغلة من الرجل اليمانى
أتغضب أن يقال أبوك عف　　وترضى أن يقال أبوك زان
فأشهد أن رحمك من زياد　　كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زيادا　　وصخر من سمية غير دان

وقد تقدم شعر كعب بن جعيل فى ذيل كتاب معاوية لعلى وشعر النجاشى فى ذيل رد على عليه

وقال جواس بن القعطل الكلبي يذكر عدم مجازاة بنى أمية لكلب على نصرتها لهم

صبغت أمية بالدماء رماحنا　　وطوت أمية دوننا دنياها
أأمى رب كتيبة مجهولة　　صيد الكماة عليكم دعواها
كنا ولاة طعانها وحرابها　　حتى تجلت عنكم غماها
فالله يجزى لا أمية سعينا　　وعلا شددنا بالرماح عراها
جئتم من الحجز البعيد نياطه　　والشام تنكر كهلها وفتاها
إذ أقبلت قيس كان عيونها　　حدق الكلاب وأظهرت سيماها

ومن هاشميات الكميت بن زيد

ألا هل عم فى رأيه متأمل ... وهل مدبر بعد الاساءة مقبل
وهل أمة مستيقظون لرشدهم ... فيكشف عنه النعسة المتزمل
فقدطال هذا النوم واستخرج الكرى ... مساويهم لوكان ذو الميل يعدل
وعطلت الاحكام حتى كأننا ... على ملة غير التى نتنحل
كلام النبيين الهداة كلامنا ... وأفعال أهل الجاهلية تفعل
رضينا بدنيا لانريد فراقها ... على أننا فيها نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها ... لنا جنة مما نخاف ومعقل
أرانا على حب الحياة وطولها ... يجد بنا فى كل يوم ونهزل

ومن قوله فى بنى هاشم أيضا

بنى هاشم رهط النبي فاننى ... بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب
خفضت لهم منى جناحى مودة ... الى كنف عطاه أهل ومرحب
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... محبا على أنى أذم وأعضب
وأرمى وأرمى بالعداوة أهلها ... وإنى لأوذى فيهم وأذنب

وقال أيمن بن خريم وكان من المتشيعين لبنى هاشم أيضا يمدحهم

نهاركم مكابدة وصوم ... وليلكم صلاة واقتراء
أأجعكم وأقواما سواء ... وبينكم وبينهم الهواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأرؤسهم وأعينهم سماء

وقال أبو العباس الأعمى من أنصار بنى أمية يحرضهم على حرب بن الزبير

أبنى أمية لاأرى لكم ... شبها إذا ما التفت الشيع
سعة وأحلاما إذا نزعت ... أهل الحلوم فضرها النزع
أبني أمية غير أنكم ... والناس فيما أطمعوا طمعوا

أطمعتم فيكم عدوكم فسما بهم في ذاكم الطمع
فلو آنكم كنتم كقومكم مثل الذي كانوا لكم رجعوا
عما كرهتم أو لردهم حذر العقوبة إنها تزع

وقال يهجو بني أسد عشيرة آل الزبير

بني أسد لاتذكروا الفخر إنكم متى تذكروه تكذبوا وتحمقوا
متى تسألوا فضلا تضنوا وتبخلوا ونيرانكم في الشر فيها تحرق
إذا استبقت يوما قريش خرجتم بني أسد سكتا وذو المجد يسبق
تجيئون خلف المجد سودا وجوهكم إذا ما قريش للأضاميم أصفقوا
وما ذاك إلا أن للؤم طابعا يلوح عليكم وسمه ليس يخلق

وقال أعشى ربيعة واسمه عبد الله بن خارجة الشيباني وهو مرواني من قصيدة في عبد الملك بن مروان

وما أنا في أمري ولا في خصومتي بمهتضم حقي ولا قارع سني
ولامسلم مولاي عند جناية ولاخائف مولاي من شر ما أجني
وإن فؤادا بين جنبي عالم بما أبصرت عيني وما سمعت أذني
وفضلني في الشعر واللب أنني أقول على علم وأعرف من أعني
وإني إذ فضلت مروان وابنه على الناس قد فضلت خير أب وابن

وهو الذي يقول لعبد الملك إذ تردد في الخروج لمحاربة ابن الزبير

آل الزبير من الخلافة كالتي عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت مالا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا اليهم لاتناموا عنهم كم للغواة أطلتم إمهالها
إن الخلافة فيكم لا فيهم مازلتم أركانها وثمالها.
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقا فانهض بيمنك فافتتح أقفالها

وقال نابغة بنى شيبان واسمه عبد الله بن المخارق لعبد الملك بن مروان حين عزم على خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد والمبايعة بها لابنه الوليد فى مجلس حافل من قصيدة أوعز اليه أن يقولها

لابنك أولى بملك والده ونجم من قد عصاك مطرح
داود عدل فاحكم بسيرته ثم ابن حرب فانهم نصحوا
وهم خيار فاعمل بسنتهم واحى بخير واكدح كما كدحوا

وقال أبو وجزة السلمى المعروف بالسعدى يمتدح آل الزبير

راحت رواحا قلوصى وهى حامدة آل الزبير ولم تعدل بهم أحدا
راحت بستين وسقا فى حقيبتها ماحملت حملها الأدنى ولا السددا
ما إن رأيت قلوصا قبلها حملت ستين وسقا ولا جابت به بلدا
ذاك القرى لاقرى قوم رأيتهم يقرون ضيفهم الملوية الجددا

وهو يريد بالقوم الذين يعرض بهم آل ابراهيم بن هشام والى المدينة لهشام ابن عبد الملك وكان قد وفد اليه أبو زيد الاسلمى مادحا فضربه بالسياط لانه قال فى مدحه اياه « يا ابن هشام يا أخا الكرام » فقال له كأنى لست منهم وفى هذا يقول أبو زيد هاجيا له

مدحت عروقا للندى مصت الثرا حديثا فلم تهمم بأن تترعرعا
نقائذ بؤس ذاقت الفقر والغنى وحلبت الايام والدهر أضرعا
سقاها ذوو الأرحام سجلا على الظما وقد كربت أعناقها أن تقطعا
بفضل سجال لو سقوا من مشى بها على الارض أرواهم جميعا وأشبعا
فضمت بأيديها على فضل مائها من الرى لما أوشكت أن تضلعا
وزهدها أن تفعل الخير فى الغنى مقاساتها من قبله الفقر جوعا

وقال قطرى بن الفجاءة أحـد خلفاء الخواوج من قصيده فاخرا ببلائه يوم دولاب ومتمنيا الموت

لعمرك انى فى الحيـاة لزاهـد وفى العيش ما لم ألق أم حكيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت طعان فتى فى الحرب غير ذميم
فلم أر يوما كان أكثر مقصعا يمج دما من فائظ وكليم
وضاربة خـدا كريما على فتى أغر نجيب الامهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطنا له أرض دولاب ودير حميم
فلو شـهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

وقال الطرماح بن حكيم وكان يعتقد مذهب الخوارج

لقد شقيت شـقاء لا انقطاع له إن لم أفز فوزة تنجى من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحد إلا المنيب بقلب المخلص الشارى
أو الذى سبقت من قبل مولده له السعادة من خلاقها البارى

وقال ثابت بن كعب المعروف بثابت قطنة وكان منقطعا الى آل المهلب من قصيدة فى رثاء يزيد بن المهلب

كل القبـائل تابعوك على الذى تدعو اليـه وبايعوك وساروا
حتى إذا حمس الوغى وجعلتهـم نصب الأسنة أسلموك وطاروا
إن يقتـلوك فان قتلك لم يكن عارا عليك وبعض قتـل عار

وقال حمزة بن بيض يخاطب مخلد بن يزيد هذا

أتيناك فى حاجـة فاقضها وقل مرحبا يجب المرحب
ولا تتـكلنا الى معشـر متى يعـدوا عدة يكذبوا

فانك في القرع من أسرة لهـم خضع الشرق والمغرب
وفى أدب منهـم قد نشأ ت ونعم لعمرك ما أدبوا

٢ ـ شعر المدح والهجاء

لم يخرج الشعر السياسى السابق عن أنه مدح أو هجاء ولكنه ينصرف الى الطائفة التى ينتمى اليها المقول فيه أكثر مما ينصرف الى شخصه أما الذى نريده بهذا العنوان فهو على عكسه وان كان غـير تام الانفصال عنـه خضوعا لهوية قائلة . وفحوله المقدمون فى هـذا العصر الاخطـل والفرزدق وجرير فلنختر لهم أولا —

قال الاخطل يمدح بنى أمية ويتخلص إلى مدح بشر بن مروان

إن يحلموا عنك فالاحلام شيمتهم والموت ساعة يحمى منهم الغضب
كانهم عند ذاكم ليس بينهـم وبين من حاربوا قربى ولا نسب
كانوا موالى حق يطلبون به فادركوه وما ملوا ولا لعبوا
هم سـعوا بابن عفان الامام وهم بعد الشماس مروها ثمت احتلبوا

إلى أن قال فى بشر

إذا أتيت أبا مروان تسأله وجدته حاضراه الجود والحسب
ترى اليـه رفاق الناس سـائلة من كل أوب على أبوابه عصب
يحتضرون سجالا من فواضله والخير محتضر الابواب منتهب

ومن جيد مدائحه لبنى أمية قصيدته التى يقول فيها

حشد على الحق عياف الخنا أنف إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

ومنها فى عبدالملك

نفسى فداء أمير المؤمنين إذا أبدى النواجذ يوما عارم ذكر
الخائض الغمرة الميمون طائره خليفة الله يستسقى به المطر

ولما حمله بشر بن مروان على الحكم بين الفرزدق وجرير فقال مكرها « الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر » لم يرض بذلك جرير وقال

ياذا الغباوة إن بشرا قد قضى ألا تجوز حكومة النشوان
فدعوا الحكومة لستم من أهلها إن الحكومة فى بنى شيبان
قتلوا كليبكم بلقحة جارهم يا خزر تغلب لستم بهجان

فقال يرد على جرير

اخسأ اليك كليب إن مجاشعا وأبا الفوارس نهشلا أخوان
ولقد تناسبتم إلى أحسابكم وجعلتم حكما من السلطان
فاذا كليب لا تساوى دارما حتى يساوى خرزم بأبان
وإذا وردت الماء كان لدارم عفواته وسهولة الاعطان

ومن هجاء جرير للاخطل بهجاء قبيلته تغلب وافتخاره بمضر قوله

إن الذى حرم المكارم تغلبا جعل النبوة والخلافة فينا
مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم يا خزر تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا

ومن موجع هجائه لتغلب

إنى جعلت فلن أعافى تغلبا للظالمين عقوبة ونكالا
قبح الاله وجوه تغلب انها هانت على مراسنا وسبالا
قبح الاله وجوه تغلب كلما شبح الحجيج وكبروا إهلالا
عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجبرئيل وكذبوا ميكالا

المعرسين اذا انتشوا ببناتهم والدائبين إجارة وسؤالا
والتغلبي إذا تنحنح للقرى حك استه وتمثل الأمثالا
ولو آن تغلب جمعت أنسابها يوم التفاضل لم تزن مثقالا
لا تطلبن خؤولة فى تغلب فالزنج أكرم منهم أخوالا .

ولقد اجتمع الاخطل وجرير على هجاء التيم. فمن هجاء الاخطل لها قوله

وكنت اذا لقيت عبيد تيم وتيما قلت أيهما العبيد
لئيم العالمين يسود تيما وسيدهم وان كرهوا مسود

ومن أهاجي جرير فيهم قوله من قصيدة

إذا عد الكرام وجدت تيما نخالتهم وغيرهم اللبابا
ترى للؤم بين سبال تيم وبين سواد أعينهم كتابا

وقوله من أخرى

ترى الابطال قد كلموا وتيم صحيح الجلد من أثر الكلوم
من الاصلاب ينزل لؤم تيم وفى الارحام يخلق والمشيم

ولما هجاه ابن أم غسان بقوله

لعمرى لئن كانت بجيلة زانها جرير لقد أخزى كليبا جريرها
رميت نصالا عن كليب فقصرت مراميك حتى عادصفرا جفيرها

قال فيه

ألا ليت شعرى عن سليط ألم تجد سليط سوى غسان جارا يجيرها
فقدضمنوا الاحساب صاحب سوأة يناجى بها نفسا خبيثا ضميرها
فما فى سليط فارس ذو حفيظة ومعقلها يوم الهياج جعورها

ولما اعترض البعيث دون ابن أم غسان وقال منتصرا له يهجو قوم جرير مخاطبا اياه

كليب لئام الناس قد تعلمونه   وأنت إذا عدت كليب لئيمها
أترجو كليب أن يجيء حديثها   بخير وقد أعيا كليبا قديمها

قال فيه جرير

ألم تر أنى قد رميت ابن فرتنى   بصماء لايرجو الحياة أميمها
له أم سوء بئس ماقدمت له   إذا فرط لأحساب عد قديمها

ولما أعان الفرزدق البعيث على جرير إذ نال من مجاشع وها منها بقوله فيه .

عجبت لحين ابن المراغة أن رأى   له غنما أهدى الى القوافيا
وهل كان فيما قد مضى من شبيبتى   له رخصة عندى فيرجو ذكائيا
ألم أك قد راهنت حتى علمتم   مكانى وخلت لى معد عنانيا
وما حملت أم امرىء فى ضلوعها   أعق من الجانى عليها هجائيا
وأنت بوادى الكلب لاأنت ظاعن   ولا واجد يابن المراغة بانيا
إذا العنز بالت فيه كادت تسيله   عليك وتنفى أن تحل الروابيا

رد عليه جرير بقصيدة طويلة منها قوله يخاطبه

باى نجاد تحمل السيف بعدما   قطعت القوى من محمل كان باقيا
باى سنان تطعن القوم بعد ما   نزعت سنانا من قناتك ماضيا
لسانى وسيفى صارمان كلاهما   وللسيف أشوى وقعة من لسانيا

ثم نشب الهجاء بين جرير والفرزدق دون من ذكرنا حتى ضربت به الامثال.
وكان بدء انصراف جرير عن البعيث الى الفرزدق قوله .

تمنى رجال من تميم لى الردى   وماذاد عن أحسابهم ذائد مثلى
كأنهم لايعلمون مواطنى   وقد علموا أنى أنا السابق المجلى
فلو شاء قومي كان حلمي فيهم   وكان على جهال أعدائهم جهلي

وأوقدت ناري بالحديد فأصبحت لها لهب يصلى به الله من تصلى
إذا سار في الركب البعيث عرفتم ترمز حمراء العجان على الرحل
لعمري لقد أخزى البعيث مجاشعا وقال ذوو أحسابهم ساء ما يبلى

الى أن قال متخلصا الى الفرزدق

ولما اتقى القين العراقي باسته فرغت الى القين المقيد بالحجل
ألم تر أني لا تبل رميتي فمن أرم لا تخطىء مقاتلة تبلى

وهذه الأبيات من قصيدة يرد بها جرير على قصيدة للبعيث من وزنها وقافيتها يقول فيها لجرير

أبى لكليب أن تسامى معشرا من الناس أن ليسوا بفرع ولا أصل
سواسية سود الوجوه كأنهم ظرابى غربان بمجرودة محل
فقل لجرير اللؤم ما أنت صانع وبين لنا إن البيان من الفصل
أبوك عطاء ألأم الناس كلهم فقبح من شيخ وقبحت من نجل

وهي التي يقول فيها للفرزدق لائما اياه على قعوده عن هجو جرير

لعمري لقد ألهى الفرزدق قيده ودرج نوادر ذو الدهان وذو الكحل
فيا ليت شعري هل ترى لي مجاشع غنائي في جل الحوادث أو بذلي
وذبي عن أعراضهم كل مترف وجدي إذا كان القيام على رجل

والقيد الذي يشير اليه البعيث وجرير في كلامهما عن الفرزدق هو ما كان من الفرزدق في قيد نفسه وتوبته وحديثه عن ذلك في قصيدة جاءت من وزنها ورويها قصيدتا جرير والبعيث منها

لعمري لئن قيدت نفسي لطالما سعيت وأوضعت المطية للجهل
ثلاثين عاما ما أرى من عماية إذا برقت إلا شددت لها رحلي
أتتني أحاديث البعيث ودونه زرود فشامات الشقيق الى الرمل

فان يك قيدى كان نذرا نذرته   فمابى عن أحساب قومى من شغل
أنا الذائد الحامى الذمار وإنما   يدافع عن أحسابهم أنا أومثلى

ولما هجا الفرزدق قيسا فى أمر قتيبة بن مسلم الباهلى وجرير فى قيس خؤولة بقوله فيها :

أتانى وأهلى بالمدينة وقعة   لآل تميم أقعدت كل قائم
كأن رءوس الناس إذسمعوا بها   مشدخة هاماتهـا بالأمائم
ومابين من لم يعط سمعا وطاعة   وبين تميم غير حز الحلاقم
أتغضب أن أذنا قتيبة حزتا   جهارا ولم تغضب لقتل ابن خازم
وما منهما إلا نقلنا دماغـه   إلى الشام فوق الشاحجات الرواسم
تذبذب فى المخلاة تحت بطونها   محذفة الأذناب جلح المقادم
وما أنت من قيس فتنبح دونها   ولا من تميم فى الرءوس الأعاظم
تخوفنـا أيام قيس ولم ندع   لعيلان أنفا مستقيم الخياشم
لقد شهدت قيس فماكان نصرها   قتيبة الا عضها بالأباهم

قال جرير يجيبه

تحضك ياابن القين قيساليجعلوا   لقومك يوما مثل يوم الاراقم
كأنك لم تشهد لقيطا وحاجبا   وعمرو بن عمرواذدعوايال دارم
ولم تشهدوالجونين والشعب ذاالصفا   وشدات قيس يوم دير الجماجم
فيوم الصفا كنتم عبيدالعامر   وبالحنو أصبحتم عبيد اللهازم
إذا عدت الأيام أخزين دارما   وتخزيك يا ابن القين أيام دارم

ومن موجع هجاء الفرزدق لجرير قوله :

أرى الليل يجلوه النهار ولاأرى   عظام المخازى عن عطية تنجلى
أمن جزع أن لم يكن مثل غالب   أبوك الذى يمشى بربق موصل

وإن تهج آل الزبرقان فانما هجوت الطوال الشم من هضب يذبل

وقد ينبح الكلب النجوم ودونها فراسخ تضنى العين للمتأمل

فما تم فى سعد ولا آل مالك غلام إذا ما قيل لم يتبهدل

لهم وهب النعمان بردى محرق بمجد معد والعديد المحصل

وليس بأقل منه قول جرير فيه

كذب الفرزدق لن يجارى عامرا يوم الرهان بمقرف مبهور

ولقد جهلت بشتم قيس بعدما ذهبوا بريش جناحك المكسور

لن تدركوا غطفان لو أجريتم يا ابن القيون ولا بنى منصور

فخروا عليك بكل سام معلم فافخر بصاحب كلبتين وكير

كم أنجبوا بخليفة وخليفة وأمير صائفتين وابن أمير

ولما فضل الراعى الفرزدق على جرير فى قصيدته التى مطلعها

ياصاحبي دنا الأصيل فسيرا غلب الفرزدق فى الهجاء جريرا

وعاتبه جرير فلم يعتبه قال جرير قصيدته الفاضحة التى مطلعها

أقلى اللوم عازل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا

ومنها بعد نسيبه وفخره ـ والراعى من نمير ـ

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فلو وضعت فقاح بنى نمير على خبث الحديد إذن لذابا

ولو ولدت فقيرة جرو كلب لسبب بذلك الجرو الكلابا

ولو وطئت نساء بنى نمير على ترب لأخبثت الترابا

فلا صلى الاله على نمير ولا سقيت قلوبهم سحابا

أنا البازى المطل على نمير أتيح لهم من الجو انصبابا

ولكل من الفرزدق وجرير مدائح ولكن هوى الفرزدق علوى وهوى جرير أموى وهذا بعض منها

وفد جرير أول دخوله العراق على الحكم بن أيوب الثقفى ابن عم الحجاج وعامله على البصرة فقال وكان رجازا

أقبلن من ثهلان أو وادى خيم   على قلاص مثل خيطان السلم
إذا قطعن علما بدا علم   حتى أنخناها الى باب الحكم
خليفة الحجاج غير المتهم   فى ضئضئ المجد وبحبوح الكرم

فبعث به الى الحجاج فمدحه وكان من قوله فيه

ان ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا   ماضى البصيرة واضح المنهاج
ماض على الغمرات يمضى همه   والليل مختلف الطرائق داج
منع الرشا وأراكم سبل الهدى   واللص نكله عن الادلاج
فاستوسقوا وتبينوا سبل الهدى   ودعوا النجى فليس حين تناجى

وهى طويلة ومنها فى صفته وهما بيتاها

من سد مطلع النفاق عليكم   أم من يصول كصولة الحجاج
أم من يغار على النساء حفيظة   اذ لا يثقن بغيرة الازواج

فبعث به الحجاج الى عبد الملك فمدحه بقصيدة طويلة منها

تعزت أم حزرة ثم قالت   رأيت ارادين ذوى امتناح
تعلل وهى ساغبة بنيها   بأنفاس من الشبم القراح
سأمتاح البحور فجنبينى   أذاة اللوم وانتظرى امتياحى
ثقى بالله ليس له شريك   ومن عند الخليفة بالنجاح
أغثنى يا فداك أبى وأمى   بسيب منك إنك ذو ارتياح
فأنى قد رأيت على حقا   زيارتى الخليفة وامتداحى

سأشكر أن رددت إلى ريشى وأنبت القوادم فى جناحى
ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

ومن مدائح الفرزدق الرائعة على ماكان من اشتغاله عن المدح بالفخر والهجاء قوله يمدح على بن الحسين من قصيدة

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم
يغضى حياء ويغضى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم
بكفه خيزران ريحه عبق من كف أروع فى عرنينه شمم
يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم اذا ماجاء يستلم
ينشق ثوب الدجى عن نور غرته كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم
من معشر حبهم دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم أوقيل من خير أهل الأرض قيل هم

والمدائح والأهاجى فى هذا العهد أبعد من أن يجمع بين أطرافها اختيار فلندعها الى غيرها مرغمين

٣ — شعر الغزل

قال جميل بن عبد الله بن معمر العذرى وهو إمام المتغزلين بالاجماع يذكر أياما له مع محبوبته بثينة وقد فرقت بينهما نوى شطون متمنيا أن تعود

ألا ليت أيام الصفاء جديد ودهرا تولى يا بثين يعود
فنغنى كما كنا نكون وأنتم صديق واذ ما تبذلين زهيد
اذا قلت مابى يابثينة قاتلى من الحب قالت ثابت ويزيد

وإن قلت ردى بعض عقلى أعش به ... مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت طالبا ... ولا حبها فيما يبيد يبيد
يموت الهوى منى اذا مالقيتها ... ويحيا اذا فارقتها فيعود
يقولون جاهد ياجميل بغزوة ... وأى جهاد غيرهن أريد

وقال :

لها فى سواد القلب بالحب منعة ... هى الموت أوكادت على الموت تشرف
وما ذكرتك النفس يا بثن مرة ... من الدهر الا كادت النفس تتلف
والا اعترتنى زفرة واستكانة ... وجاد لها سجل من الدمع يذرف
وما استطرفت نفسى حديثا لخلة ... أسر به الا حديثك أطرف
أمنصفتى بثن فتعدل بيننا ... اذا حكمت والحاكم العدل ينصف
تعلقتها والجسم منى مصحح ... فما زال ينمى حب بثن وأضعف
الى اليوم حتى سل جسمى وشفنى ... وأنكرت من نفسى الذى كنت أعرف

وقال :

وما زلتم يابثن حتى لو آننى ... من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا
اذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها ... دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
وما زادنى النأى المفرق بعدكم ... سلوا ولا طول التلاقى تقاليا
ولا زادنى الواشون إلا صبابة ... ولا كثرة الناهين الا تماديا
ألم تعلمى ياعذبة الريق أننى ... أظل اذا لم ألق وجهك صاديا
وانى لينسينى لقاؤك كلما ... لقيتك يوما أن أبثك ما بيا
لقد خفت أن ألقى المنية بغتة ... وفى النفس حاجات اليك كما هيا

وقال وهو من أبدع ماقال

وانى لأرضى من بثينة بالذى ... لو آبصره الواشي لقرت بلابله

بلا وبألا أستطيع وبالمنى　　وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى　　أواخره لانلتقى وأوائله

وقال عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة

قال لى صاحبى ليعلم مابى　　أتحب القتول أخت الرباب
قلت وجدى بها كوجدك بالما　　ء اذا ما منعت برد الشراب
من رسولى الى الثريا فانى　　ضقت ذرعا بهجرها والكتاب
سلبتنى مجاجة المسك عقلى　　فسلوها بم تحل اغتصابى
أبرزوها مثل المهاة تهادى　　بين خمس كواعب أتراب
وهى مكنونة تحير منها　　فى أديم الخدين ماء الشباب
ثم قالوا تحبها قلت بهرا　　عدد النجم والحصا والتراب
دمية عند راهب ذى اجتهاد　　صوروها فى جانب المحراب

وقال فى وداع

كدت يوم الرحيل أقضى حياتى　　ليتنى مت قبل يوم الرحيل
لا أطيق الكلام من شدة الخو　　ف ودمعى يسيل كل مسيل
ذرفت عينها وفاضت دموعى　　وكلانا يلفى بلب أصيل

وقال من وصف زورة ليلية طويل

فحييت إذ فاجأتها فتولهت　　وكادت بمكنون التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان فضحتنى　　وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
فقلت لها بل قادنى الشوق والهوى　　اليك وما عين من الناس تنظر
فيالك من ليل تقاصر طوله　　وما كان ليلى قبل ذلك يقصر
ويالك من ملهى هناك ومجلس　　لنا لم يكدره علينا مكدر

فلما تقضى الليــل إلا أقله   وكادت توالى نجمــه تتغور
أشارت بأن الحى قد حان منهم   هبوب ولكن موعدلك عزور
ولمــا رأت من قد تنور منهم   وأيقاظهم قالت أشر كيف تأمر
فقلت أباديهم فاما أفوتهم   واما ينال السيف ثأرا فيثأر
فقــالت أتحقيقا لما قال كاشح   علينا وتصديقا لما كان يؤثر
فان كان مالا بد منه فغيره   من الأمر أدنى للخفاء وأستر
وقامت كئيبا ليس فى وجهها دم   من الحزن تذرى عبرة تتحدر
فقالت لأختيها أعينا على فتى   أتى زائرا والأمر للأمر يقدر
فأقبلتــا فارتاعتا ثم قالتــا   أقلى عليك الهم فالخطب أيسر
يقوم فيمشى بيننا متنكــرا   فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجنى دون من كنت أتقى   ثلاث شخوص كاعبان ومعصر
فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى   ألم تتق الأعداء والليل مقمر
وقلن أهذا دأبك الدهر سادرا   أما تستحى أو ترعوى أو تفكر

وقال أبو دهبل الجمحى

وبت كئيبا ما أنام كأنمــا   خلال ضلوعى جمرة تتوهج
فطورا أمنى النفس من عمرة المنى   وطورا اذا ماالج بى الحزن أنشج
لقد قطع الواشون ما كان بيننا   ونحن الى أن يوصل الحبل أحوج

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات

رقى بعيشــكم لاتهجرينــا   ومنينا المنى ثم امطلينــا
عدينــا فى غد ماشئت إنا   نحب وان مطلت الواعدينا

فاما تنجزى عـدتى واما نعيش بمـا نؤمل منك حينا

وقال قيس بن معاذ أو ابن الملوح على خلاف فى أبيه وهو المعروف بمجنون ليلى

فوالله ثم الله إنى لدائب أفكر ماذنبي اليهـا واعجب

ووالله ما أدرى علام قتلتنى وأي أمورى فيك ياليل أركب

أأقطع حبل الوصل والموت دونه أم آشرب رنقا منكم ليس يشرب

أم آهرب حتى لا أرى لى مجاورا أم آصنع ماذا أم أبوح فأغلب

فأيهما ياليـل ما ترتضينـه فانى لمظـلوم وانى لمعتب

وقال كثير عزة لما أخرجت الى مصر

وقال خليلى مالهـا إذ لقيتها غداة السنا فيها عليك وجوم

فقلت له ان المودة بيننا على غير فحش والصفاء قديم

وانى وان أعرضت عنها تجلدا على العهد فيما بيننـا لمقيم

وان زمانا فرق الدهر بيننا وبينكم فى صرفه لمشـوم

وقال قيس بن ذريح فى زوجه لبنى وقد حملت الى أهلها مطلقة على غير رغبة منه

وانى لمفن دمع عينى بالبـكا حذار الذى قد كان أو هو كائن

وقالوا غدا أو بعد ذاك بليلة فراق حبيب لم يبن وهو بائن

وما كنت أخشى أن تكون منيتى بكفيك إلا أن ماحان حائن

وقال المخبل القيسى واسمه كعب فى ميلاء ابنة عمه

بلينا بهجران ولم أر مثلنـا من الناس إنسانين يهتجران

أشد مصافاة وأبعد من قلى وأعصى لواش حين يكتنفان

فوالله ماأرى أ كل ذوي الهوي على مابنا أو نحن مبتليان

وقال يزيد بن الطثرية

بنفسى من لو مر برد بنانه على كبدى كانت شفاء أنامله
ومن هابنى فى كل أمر وهبته فلا هو يعطينى ولا أنا سائله

وقال ذو الرمة

مابال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب
أستحدث الركب عن أشياعهم خبرا أم راجع القلب من أطرابه طرب
لا بل هو الشوق من دار تخونها مرا سحاب ومرا بارح ترب
دار لمية إذ مى تساعفنا ولا يرى مثلها عجم ولا عرب
عجزاء ممكورة خمصانة قلق منها الوشاح وتم الجسم والقصب
زين الثياب وان اثوابها استلبت على الحشية يوم زانها السلب
براقة الجيد واللبات واضحة كأنها ظبية أفضى بها لبب
لمياء فى شفتيها حوة لعس وفى اللثاث وفى أنيابها شنب
كحلاء فى دعج صفراء فى برج كأنها فضة قد شابها ذهب
تريك سنة وجه غير مقرفة ملساء ليس بها خال ولا ندب
تزداد فى العين إبهاجا اذا سفرت وتحرج العين فيها حين تنتقب
والقرط فى حرة الذفرى معلقة تباعد الحبل فيه فهو يضطرب
تلك الفتاة التى عاقتها عرضا إن الكريم وذا الاسلام يختلب

وقال توبة بن الحمير فى ليلى الاخيلية

ولو أن ليلى الاخيلية سلمت على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا اليها صدى من جانب القبر صائح

وقالت تعنيه

وذى حاجة قلنا له لاتبح بها فليس اليها ماحييت سبيل

لنا صاحب لاينبغى أن نخونه　　وأنت لأخرى صاحب وخليل

وقال جرير من قصيدة طويلة أبدع النسيب فيها

يأم عمرو جـزاك الله مغفرة　　ردى على فؤادى كالذى كانا

ألست أحسن من يمشى على قدم　　ياأملح الناس كل الناس انسانا

يلقى غريمكم من غير عسرتكم　　بالبذل بخلا وبالاحسان حرمانا

لقد كتمت الهوى حتى تهيمنى　　لا أستطيع لهذا الحب كتمانا

لابارك الله فى الدنيا اذا انقطعت　　أسباب دنياك من أسباب دنيانا

أبدل الليل لاتسرى كواكبه　　أم طال حتى حسبت النجم حيرانا

إن العيون التى فى طرفها حور　　قتلتنا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به　　وهن أضعف خلق الله انسانا

وقال الأحوص واسمه عبد الله بن محمد بن عبد الله من الأوس

ألا لاتلمه اليوم أن يتبلدا　　فقد غلب المحزون أن يتجلدا

وما العيش إلا ماتلذ وتشتهى　　وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

بكيت الصبا جهدا فمن شاء لامنى　　ومن شاء واسى فى البكاء وأسعدا

وإنى وان عيرت فى طلب الصبا　　لأعلم أنى لست فى الحب أوحدا

٤ ـــ شعر الأغراض الاخرى

كانت الأغراض الثلاثة المتقدمة نماذجها وهى الشعر السياسى وشعر الهجاء والمدح ثم شعر الغزل هى الغـالبة على الشعر فى العصر الاموى ولذا أفردنا كلا منها بنماذج فيما مضى وجمعنا بين نماذج الأغراض الأخرى هنا

قال الفرزدق يفتخر ولكنه لم ينس جريرا بلاذع هجوه

ألم تر أنا بنى دارم زرارة منا أبو معبد
ومنا الذى منع الوائدا ت وأحيا الوئيد فلم توأد
وناجية الخير والاقرعا ن وقبر بكاظمة المورد
اذا ما أتى قبره عائذ أناخ على القبر بالاسعد
ألسنا بأصحاب يوم النسا ر وأصحاب ألوية المربد
ألسنا الذين تميم بهم تسامى وتفخر فى المشهد
أيطلب مجد بنى دارم عطية كالجعل الاسود
قرنبى يحك قفا مقرف لئيم مآثره قعدد
ومجد بنى دارم دونه مكان السماكين والفرقد

وقال الأخطل يصف الكأس

وكأس مثل عين الديك صرف تنسى الشاربين لها العقولا
اذا شرب الفتى منها ثلاثا بغير الماء حاول أن يطولا
مشى قرشية لاشك فيها وأرخى من مآزره الفضولا

ومن قوله يصف السكران

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل
نهاديه أحيانا وحينا نجره وما كاد الا بالحشاشة يعقل
اذا رفعوا صدرا تحامل صدره وآخر مما نال منها مخمل

فباب الفرزدق الذى لا ينازع فيه مع الشعر السياسى والمدح والهجاء الفخر وباب الاخطل معهما وصف الخمر أما باب جرير معهما أيضا فهو النسيب وقد سلفت قطعة له من قصيدة في نماذج الغزل على أنه كان يجيد مع هذه الرثاء أيضا

ومما يحمد له فيه قوله يرثى الفرزدق

لعمرى لقد أشجى تميما وهدها … على نكبات الدهر موت الفرزدق
عشية راحوا للفراق بنعشه … الى جدث فى هوة الارض معمق
لقد غادروا فى اللحد ماكان ينتمى … الى كل نجم فى السماء محلق
عماد تميم كلهـا ولسانها … وناطقها البذاخ فى كل منطق
فمن لذوى الأرحام بعد ابن غالب … لجار وعان فى السلاسل موثق
ومن لتميم بعد موت ابن غالب … وأم عيال ساغبين ودردق
ومن يطلق الاسرى ومن تحقن الدما … يداه ويشفى صدر حران محرق
فتى عاش يبنى المجد تسعين حجة … وكان الى الخيرات والمجد يرتقى

وقال حصين بن معاوية المعروف بالراعى يصف بيضة نعام حضنها ظليم بالليل ثم تركها عند طلوع الشمس ينتفض

وما بيضة بات الظليم يحفهـا … بوعساء أعلى تربها قد تلبدا
فلما علته الشمس فى يوم طلقة … وأشرف مكاء الضحى فتفردا
أراد قياما فازبأر عفاؤه … وحرك أعلى جيده فتأودا
وهز جناحيه فساقط جيده … فراشا وهى عن متنه فتبددا
فغادر فى الأدحى صفراء تركه … هجانا إذا ماالشرق فيها توقدا
بألين مسا من سعاد للامس … وأحسن منها حين تبدى مجردا

وقال القطامى وهو عمير بن شييم من تغلب

ليس الجديد به تبقى بشاشته … الا قليلا ولا ذو خلة يصل
والعيش لاعيش الاما تقر به … عين ولا حالة الا ستنتقل
والناس من يلق خيرا قائلون له … مايشتهى ولأم المخطىء الهبل

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقال قطرى بن الفجاءة

أقول لها وقد طارت شعاعا من الابطال ويحك لن تراعى

فانك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لم تطاعى

فصبرا فى مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع

ولاثوب البقاء بثوب عز فيطوى عن أخى الخنع اليراع

سبيل الموت غاية كل حى فداعيه لأهل الارض داع

ومن لايعتبط يسأم ويهرم وتسلمه المنون الى انقطاع

وما للمرء خير فى حياة اذا ماعد من سقط المتاع

وقال صخر بن حبناء التميمى من الأزارقة

إنى هزئت من آم الغمر إذهزئت بشيب رأسى وما بالشيب من عار

ما شقوة المرء بالاقتار يقتره ولا سعادته يوما باكثار

إن الشقى الذى فى النار منزله والفوز فوز الذى ينجو من النار

أعوذ بالله من أمر يزين لى لوم العشيرة أو يدنى من النار

وخير دنيا ينسى شر آخرة وسوف ينبئنى الجبار أخبارى

لاأقرب البيت أحبو من مؤخره ولا أكسر فى ابن العم أظفارى

إن يحجب لله أبصارا أراقبها فقد يرى الله حال المدلج السارى

ب — حياتها

إحياء العصبيات : —

آلت الخلافة إلى معاوية على كره من الفريق الاعظم فى الامة، فكان عليه أن يصرف جل اهتمامه بل كله إلى استرضاء من يمكن استرضاؤهم من هذا

الفريق والاحالة بين لم يرضوا وبين الطمع فى استخلاصها منه، وكان عليه فوق ذلك أن يحول الخلافة الشورية التى لم تك وقفا على بيت دون سائر البيوت الى ملك عضوض يتوارث كما كانت تفعل القياصرة والأكاسرة فى الفرس والروم.
وقد أتاحت له فسحة أجله الذى امتد به عشرين سنة بعد عام الجماعة أن يحقق هذين الأمرين معا بما بذل من عناية فاقت كل عناية وتابع من جهود كانت تزلزل دون احتمالها الرواسى . ولقد كان أول جهد انصرف اليه همه بعد ذلك العام أن يبعث العصبية الجاهلية من مرقدها ويرد العرب إزاءها كما كانت شيعا وأحزابا وما كان أشد تعطش القبائل كتميم وقيس من مضر، وبكر وعبد القيس من ربيعة، وكندة والازد من اليمن الى هذا البعث يطفئون به غلة كانت كامنة فى نفوسهم ضد المهاجرين من قريش والانصار من الخزرج والاوس لما كان لهما من سبق الى الاسلام مكن لهم فى حمل أمور الدولة وأتاح لهم التمتع بسلطانها . ولما كان مقتل عثمان رحمه الله قد فرق بين المهاجرين والانصار أو بين قريش واليمن إذ انضم الألون الى معاوية وثبت الآخرون مع على حتى قال رجل من اليمن لقريش فى حروب صفين (أيها الناس هل من رائح الى الله تحت العوالى والذى نفسى بيده لنقاتلنكم على تأويله كما قاتلناكم على تنزيله)
وكان اضطغان القبائل المذكورة وغيرها على قريش أشد منه على اليمن لأن المهاجرين كانوا ذوى الحل والعقد وبيدهم الامر والنهى وما الانصار معهم الا مساعدون فرأى معاوية حين استأثر بالامر أن قريشا وحدها فى كفة والعرب كلها من نزارية ويمنية فى أخرى فكان عليه أن يؤلف اليه الطائفتين ويسترضى الفريقين غير أن مطامع النزاريين وتمكن الطامعين فى الخلافة من قريش أن يؤلفوا منهم أعوانا وأنصارا، جعله ينصرف أولا الى تأليف اليمنيين ليكون

منهم مع أهل الشام جبهته التي عليها يعتمد ويده التي بها يبطش وكان قد بدأ شيئا من هذا مع الكلبيين المنتشرين بدومة الجندل وتبوك وأطراف الشام بزواجه منهم ميسون بنت بحدل أم ابنه يزيد وباستنهاضهم لذلك ولأن امرأة عثمان كانت منهم حين حروب صفين الى الخروج لقتال على مطالبة على زعمه بدم عثمان. فما زال يستغويهم بالمال ويدعم هذه الصلة فى عهده الجديد بشتى الوسائل حتى صارت كلب ومن انضم اليها من سائر اليمنية حميريين وكهلانيين وغير اليمنية كالربعيين وبعض القيسيين حزبه ضد جمهرة قيس والأنصار وبذلك صارت العرب كلبية وقيسية أو يمنية ومضرية. ولفضل كلب هذا على بنى أمية كانت لها دالة عليها جعلت بن القعطل الكلبي يقول لها ماقدمنا من شعر فيما ظنه تقصيرا بهم ثم تمشى هذا الانقسام فى سائر أنحاء المملكة الاسلامية، وطالما قامت بسببه المنازعات فى الشام والعراق وفارس وخراسان ومصر وأفريقية والاندلس بعد، فما خلا إقليم منها من حزب مضرى وآخر يمنى لايزالان يتنازعان السلطان تنازعا بعيد الأثر فى تصريف أحواله وإدارة شئونه وكانت لذلك كله فى الشعر شئون ·

١ — استخدام الشعر فى السياسة

أحيا معاوية تلك العصبية العامة على ماهو ناجم من خلافات بين أسرته وبنى هاشم، وبين بنى عبد مناف والزبيريين، وبينهم جميعا والخوارج. فأحيا بحياتها الشعر وألبسه ثوبه الجاهلى الفضفاض ثم لم يتركه ينمو وحده على هذا الأساس بل لم يزل يمده بالأرات يذكى ناره ويزيد فى لهيبه بما كان يصنع من تقريب الشعراء واستخدامهم فى نشر مايريد مجزلا عطاياهم رافعا من شأنهم وقد استمال اليه منذ القديم الربعيين إذ استخلص منهم لنفسه كعب بن جعيل التغلبي فسماه شاعر الشام واستغله فى الخلف بينه وبين علي الذي اضطر أن ينصب له قرينا من

أتباعه هو النجاشى شاعر العراق، وقد سبق ذلك كما سبق إيعازه الى مسكين الدرامى أن يقول فيما بلغه من مكروه عن سعيد بن العاصى ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر حين هم بعقد ولاية العقد لابنه يزيد فقال ماقال. وقد سبق أيضا ما كان من طلب يزيد هذا من كعب بن جعيل المذكور أن يهجو الانصار لما كان من بغض الأمويين لهم فى نصرتهم عليا ومن اشتداد التهاجى بين شاعرهم عبد الرحمن بن حسان وشاعر الأمويين عبد الرحمن بن الحكم، وأن ابن جعيل وإن امتنع عليه فى هجو قوم نصروا رسول الله صلى عليه وسلم بقوله له «أرادى أنت إلى الشرك بعد الايمان» قد دله على غلام منهم نصرانى هو الاخطل فأرسل اليه يزيد فهجاهم هجاء مرا تقدم كما تقدم ماكان من النعمان بن بشير بشأنه مع معاوية الذى تظاهر بعدم رضاه عنه ولكنه وقع على قلبه بردا وسلاما ولهذا تحيل فى عدم تمكين النعمان منه واستمر متخذا للاخطل بين أحضانه يرعاه على نصرانيته حتى ترعرع فى نعمة الدولة وصار الشاعر الرسمى لها على عهد عبد الملك بن مروان بعد

هذا ولقد كان من معاوية فوق ذلك التقريب والاغراء الذى جعل الشعر ينمو ويزهر، تركه خصماءه أحرارا يقولون مايريدون عملا بسياسته الآنفة فى أن من ترك ينفس عن نفسه بقوله لايخشى كبير خطر من فعله ولهذا كان يسمع هجاءه باذنه فيعفو ويصفح . دخل عليه مرة أبو بردة بن أبى موسى الاشعرى صاحب الفضل عليه فى التحكيم فقال له ياأمير المؤمنين إن عتبة الاسدى قال فيك

معاوى إننا بشر فأسجح ... فلسنا بالجبال ولا الحديد

أكلتم أرضنا وجردتموها ... فهل من قائم أو من حصيد

فهبنا أمة هلكت ضياعا ... يزيد أميرها وأبو يزيد

أتطمع بالخلود اذا هلكنا ... وليس لنا ولا لك من خلود

ذروا خول الخلافة واستقيموا ... وتأمير الأراذل والعبيد

فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تبعث اليه من يضرب عنقه قال أفلا خير من ذلك قال وما هو يا أمير المؤمنين قال نجتمع أنا وأنت ونرفع أيدينا الى السماء وندعو عليه . بل كان يصبر على ماهو آلم من ذلك وأنكى .روى أن يزيد ابنه قال له ذات يوم مغضبا أما سمعت قول عبد الرحمن بن حسان فى ابنتك ؟ قال وما الذى قال فقال قال

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغو ... اص ميزت من جوهر مكنون

قال صدق فقال يزيد وقال

واذا مانسبتها لم تجدها ... فى سناء من المكارم دون

قال صدق فقال وإنه قال

ثم خاصرتها الى القبة الخض ... راء تمشى فى مرمر مسنون

فقال كذب ولم يزد على هذا

ورث معاوية هذه السنة سنة العمل على إحياء العصبيات واستخدام الدولة للشعراء، خلفاءها من بعده وقد كان قبل موته فرض للموالين منهم الاعطيات فى بيت المال . ولقد شاءت الحوادث أن تعمل بعد وفاته على زيادة الخلف واشتداد هذه العصبيات فما كاد يزيد ابنه يتربع كرسى الخلافة حتى خرج عليه الحسين بن على بالعراق وعبد الله بن الزبير بالحجاز . فأما الحسين فقد قتل هو ونفر من آل بيته وبعض من أتباعه على أيدى من وجههم اليه عبيد الله بن زياد والى يزيد على العراق فنكأ هذا القتل قروحا قديمة وأحدث كلوما

جديدة غيرت من قلوب كثير على يزيد حتى إن عبد الملك بن مروان بعد، كان يعتقد أن زوال ملك آل حرب كان سببه هذا القتل ولذلك أودع كتابه الذى بعث به الى الحجاج حين ولاه الحجاز مانهاه به عن التعرض لمحمد بن على المعروف بابن الحنفية وأتباعه وكان من قوله فيه (جنبنى دماء بنى عبد المطلب فليس فيها شفاء من الحرب وإنى رأيت بنى حرب سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن على).وأما ابن الزبير فمات يزيد وجيشه محاصره بمكة فعاد الجيش ولكن بعد أن أحرق أستار الكعبة وصدع ركنها بأمر قائده الثانى الحصين ابن نمير، وبعد أن كانت وقعة الحرة بالمدينة قبل وصوله مكة على يد قائده الاول مسلم بن عقبة تلك الوقعة التى عدها يزيد ثأرا لأشياخه القتلى فى وقعة بدر حيث تمثل إذ بلغه خبرها بأبيات ابن الزبعرى التى قالها فى وقعة أحد وأولها

ليت أشياخى ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الاسل

فهذان الحادثان الجليلان صرفا عن الدولة قلوبا لعلها كانت موالية لبنى سفيان فادعى ابن الزبير الخلافة بمكة عقب وفاة يزيد وأتته البيعة من كثير من الامصار ولما مات معاوية بن يزيد بعد أربعين يوما من بيعته اضطرب أمر بنى أمية اضطرابا شديدا لنفور الامة ولصغر أخيه خالد بن يزيد فبايعت القيسية بالشام عبد الله بن الزبير وولى عليهم من قبله رئيسهم الضحاك بن قيس وتعصب الكلبيون لخالد لأنهم أخوال أبيه وانضم اليهم مروان بن الحكم ولكن ليستخلص الامر لنفسه بعد لا نصرة لخالد، ثم كانت وقعة مرج راهط بين قيس ويمن فانجلت عن هزيمة قيس بخديعة مروان بن الحكم الذى بويع بالخلافة فانتقل به الملك من السفيانية الى المروانية غير أن مناوأة السفيانيين لم تزل إلا بقتل زعيمهم عمرو بن سعيد الأشدق على يد عبد الملك فانه لما ولى الخلافة بعد أبيه كان

هذا القتل أول أعماله. ثم ولى الحجاج بن يوسف الحجاز ليصمد لعبد الله بن الزبير وشمر هو لاخيه المصعب فى العراق فقتل المصعب وقتل من بعده الحجاج عبد الله، ولم يبق الا الخوارج فى أطراف العراق فرد اليهم الحجاج من الحجاز فلم يزل تقاتلهم جيوشه تحت قيادة المهلب بن أبى صفرة حتى كسر حدتهم وأزال شوكتهم وبذلك صفا الجو لعبد الملك بعد هذه الانقلابات السياسية الخطيرة التى بدأت بموت معاوية فكانت تربة صالحة نما فيها الشعر السياسى المختلف الالوان ومتسعا مترامیا هام منه الشعراء فى كل واد حتى وجدت طائفة جديدة هى طائفة الشعراء السياسيين الذين دينهم الانتماء الى الاحزاب السياسية انتماء ينصر فيه كل حزبه بالدفاع عن عقيدته والاعلان عن محاسنه ومهاجاة من يتصدى لذمه .
ونظرا لاشتداد الخلف واتساع أفقه كان الشعراء السياسيون فى العهد الاموى أكثر الطوائف عددا وأبعدهم نفوذا منذ عهد معاوية إلى أن زالت الدولة.
وهذه أسماء بعضهم فى كل حزب

فمن أنصار الحزب الأموى كعب بن جعيل ومسكين الدارمى والأخطل وجرير وأبو العباس الاعمى وأعشى ربيعة ونابغة بنى شيبان وغيرهم كثير. ومن أنصار العلويين النجاشى وأبو الأسود الدؤلى وابن مفرغ الحميرى والفرزدق والنعمان بن بشير وان كان قد ولى لبنى أمية والكميت بن زيد وأيمن ابن خريم وغيرهم .ومن أنصار الخوارج قطرى بن الفجاءة وعمران بن حطان والطرماح بن حكيم وعبد الله بن الحجاج الذبيانى . ومن أنصار آل الزبير أبو وجزة السلمى المعروف بالسعدى لنزوله فيهم ومحالفه اياهم واسماعيل بن يسار النسائى وعبيد الله بن قيس الرقيات.ومن أنصار آل المهلب زياد الأعجم وكعب الأشقرى وبيهس الجرمي.وقد كان الموطن الغالب لمؤيدى الدولة الشام

وشعرهم هو الشعر الموالى وموطن المعارضين على اختلاف نحلهم العراق وشعرهم هو الشعر الصاخب .

٢ — انتشار المدح والهجاء

ولقد انتشر بانتشار هذا الشعر السياسى الذى كان يقصد الى الطائفة أكثر مما يقصد الى الاشخاص المدح والهجاء الموجهان الى الافراد انتصارا لعصبيات القبائل أورغبة فى المال والثراء ، فكثر لذلك الشعراء المداحون والهجاءون بقصد التكسب لاالدفاع عن رأى واعتقاد. واذكانت الدولة على هذا السنن تجرى فترجو وتخاف الشعراء وترتب لهم الاموال من فىء المسلمين، فان الناس وهم على دين ملوكهم يكونون فيهم أرغب ولهم أرهب وهذا الذى كان. فولع العظماء بسماع المدح وأجزلوا عليه العطايا والهبات وتسابقوا فى ذلك تسابق الجياد فى الميدان ثم خافوا الهجو وحادوا عن التعرض له بما دفعوا ثمنا لأعراضهم ووقاية لاحسابهم. وكما كان الممدوح يطمع أن يوصف بما ليس فيه من صفات عن طريق الشعر الذى يثبتها له وان كانت منه براء ، كذلك كان المهجو يتقى أن يوصم بما ليس فيه فيلصق به بتأثير الشعر لصوقا ليس منه فكاك على أن هذا النهم فى المديح والفرق من الهجاء ملأ من الخلفاء القلوب وامتلك عليهم الاسماع فلم يعد يكفيهم أن يسمعوا للدولة تثبيتا ولا عنها دفاعا لايكون لاشخاصهم فيه أكبر نصيب .وقلدهم فى ذلك الولاة والامراء حتى لقد كان الواحد منهم يأبى على الشاعر أن يفتخر بنفسه ويؤاخذه على ذلك جاهدا ذكروا أن الفرزدق ونصيبا حضرا عند سليمان بن عبد الملك فقال سليمان للفرزدق أنشدنى مقدرا أن يمدحه فأنشد

وركب كأن الريح تطلب عندهم ... لها ترة من جذبها بالعصائب
سروا يخبطون الليل وهى تلفهم ... إلى شعب الأكوار ذات الحقائب

اذا آنسوا نارا يقولون ليتها وقد خصرت أيديهم نار غالب

فأعرض سليمان عنه مغضبا فقال نصيب يأمير المؤمنين ألا أنشدك فى رويها ما لعله لايتضع عنها قال هات فأنشد

أقول لركب قافلين لقيتهم قفا ذات أو شال ومولاك قارب

قفوا خبرونى عن سليمان إننى لمعروفه من أهل ودان طالب

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

فقال سليمان للفرزدق كيف تراه قال هو أشعر أهل جلدته وكان نصيب أسود فقال سليمان ياغلام أعطى نصيبا خمسمائة دينار وألحق الفرزدق بنار أبيه فخرج الفرزدق وهو يقول

وخير الشعر أكرمه رجالا وشر الشعر ما قال العبيد

ولما عهد الحجاج الى يزيد بن الحكم الثقفى على فارس وأتاه يودعه قال له أنشدنى مقدرا مدحه أيضا فقال

وأبى الذى سلب ابن كسرى راية بيضاء تخفق كالعقاب الطائر

فاسترد العهد منه وقال للحاجب اذا أتاك به فقل له أورثك أبوك مثل هذا فلما قال له الحاجب ذلك قال قل للحجاج

وورثت جدى مجده وفعاله وورثت جدك أعنزا بالطائف

ثم بلغ من أثرة الخلفاء أن كانوا يرون احتباس الشاعر المجيد عليهم ويحنقون أشد الحنق اذا قصد بمديحه غيرهم ولذلك كان غضب عبد الملك على جرير شديدا لمدحه الحجاج ، وحين أوفده الحجاج اليه مع ابنه محمد ليشفع له عنده قال له حين دخل عليه واستأذن فى الانشاد « وماعساك أن تقول فينا بعد قولك فى الحجاج

من سد مطلع النفاق عليكم أم من يصول كصولة الحجاج

إن الله لم ينصرنى بالحجاج وانما نصر دينه وخليفته أو لست القائل

أم من يغار على النساء حفيظة   إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

والله لهممت أن أطير بك طيرة بطيئا سقوطها » ولولا توسل محمد فى رضاه عنه وتحايله هو فى الاذن له بالانشاد حتى أنشده قصيدته المتقدم بعضها فى النماذج فتبسم عبد الملك اذ سمع البيت

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

ثم قال « كذلك نحن ومازلنا كذلك » مارضى عنه — ومن رجال المدح والهجاء من ذكرنا من الشعراء السياسيين ومنهم فى هذا العهد غير هؤلاء، أرطاة ابن سهية وأعشى تغلب والجحاف السلمى وجعفر بن الزبير ومالك بن أسماء ومالك ابن الريب وغيرهم كثير، فانه لم يبق من الشعراء من لم ينغمس فى هذه الحمأة سوى أفراد معدودين ألهاهم الغزل كبعض من ذكرنا مثل جميل أو منعتهم عزة نفوسهم أن يمدحوا كعقيل بن علفة والمقنع الكندى وليس لهما نظراء سوى القليل .

٣ ـ انتشار الغزل ونشأة الغناء

ولقد شاءت سياسة الدولة مع ماتقدم مما فتح أمام الشعراء أبواب التكسب بالشعر حتى صار الشعر يدر عليهم من الخيرات مالم يخطر لهم على بال جلبا لمدحهم الرائف أو دفعا لهجوهم اللاذع، أن يقف الخلفاء فى وجه ذوى المكانة من خصومهم القرشيين وقوفا يصدهم أن يجولوا فى أنحاء الدولة أو يتصلوا بأحد من ذوى الاقدار فى البلاد المفتوحة فاحتجزوهم فى الحجاز أنسب المواطن لهذا الحجز، ولكنهم أغدقوا عليهم النعم إغداقا ونثروا لهم المال نثرا فولد فيهم هذا الفراغ ذو الجدة التفنن فى ضروب الاستمتاع والجرى الى غير حد فى ميادين النعيم وكان من ذلك أن نبت بهذا الاقليم نوع ثالث من الشعر شرق وغرب مع النوعين السابقين وكثرت شعراؤه كثرة شعرائهما وذلك هو الغزل. غير أن الغزلين

انشطروا شطرين بحكم البيئة التى فيها يعيشون والنظام الذى عليه يجرون. فسكان المدن منهم وأخصها المدينة ومكة والطائف مأوى الجوارى والقيان وملتقى الحاجين والزائرين قد توزعت أبصارهم فى مجالى الحسن المتغير الكثير فلم تقف أفئدتهم عند شخص دون شخص وصاروا طلاب جمال يتلمسونه أنى وجد ويعلقون به ما أقام حتى إذا ماذهب أو زاحمه ما هو أجمل منه غادروه وطاروا وراء الجديد مسرعين. وحامل لواء هذا بالاجماع عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى. أما سكان بوادى الحجاز حيث لا ترف ولا ثراء وحيث العفة العربية فى الرجل والمرأة ضاربة الجران فلم يجدوا من العوامل ما وجد هؤلاء فصار الواحد منهم يقف حبه على امرأة تتمنع عليه ولا يطمع منها فى منال الا الزورات البريئة وقلما تتاح فلا يزال يشكو بثه وحزنه وصبابته ووجده فى شعر ينتزعه من القلب ويحسن فيه التعبير عن الوجدان. وإمام هؤلاء جميعا غير مدافع جميل بن عبد الله بن معمر العذرى صاحب بثينة. ولما كان هذا النوع من الغزل لا يصدر الا عن الحب اللافح بخلاف النوع الاول الصناعى فقد اعتبره الادباء الغزل الحق وجعلوا رجاله الغزلين العاشقين وبذلك كان جميل إمام الناسبين جميعا بالاجماع ومن رجال الغزل غير هذين المقدمين مجنون ليلى والعرجى والحارث المخزومى وأبو دهبل الجمحى وابن قيس الرقيات وكثير عزة وقيس بن ذريح والمخبل القيسى وابن ميادة وذو الرمة والاحوص ويزيد بن الطثرية وحميد بن ثور وغيرهم كثير ممن خلقوا أدبا ثالثا بالحجاز نظير الادب الموالى بالشام والمعارض بالعراق هو الادب اللاهى أو الباكى. وقد استتبع وجوده نشوء الغناء بالحجاز لما بين الغناء وهذا النوع الشعرى من تمام الصلة وشدة العلاقة ولحاجة العيشة المترفة اليهما حاجة تكمل أسباب لذاذاتها وتحوطها بالنعيم من جميع جهاتها

نشأة الغناء وكثرة المغنين :

نشأ الغناء العربي بالحجاز أول ما نشأ بما تهيأ له من عوامل الترف والغنى والدعة والفراغ فضلا عن ميل العرب بطبائعهم إليه واستعداد الحجازيين له أكثر من غيرهم لما عرف فيهم من رقة طبع ولطف ذوق ، وعن قطرهم من اعتدال هؤلاء واعتلال نسيم. وكانت نشأته بمكة على يد أبي عثمان سعيد بن مسجح مولى بني مخزوم من السودان. ويقولون في سبب هذا أنه سمع غناء من بنائين أحضرهم معاوية الى مكة من الشام لبناء الدور المسماة بالرقط فاعجبه غناؤهم فاقتبس منه وغنى على شاكلته بالعربية أو أنه سمع ذلك من عمال أحضرهم من الفرس عبد الله بن الزبير لتجديد الكعبة بعد هدم جوانبها على أثر ضربها حين خروجه على أنه لامانع من الجمع بين السببين فيكون قد اقتبس من الغناءين الرومي والفارسي. وقد زاده افتنانا سفره بعد ذلك إلى الشام وإلى الفرس لتهذيب مااقتبس بأخذ ما يستحسن واطراح مايستقبح ولهذا لم تتم له الشهرة الاحيث أجاد النقل والتهذيب وكان ذلك على أيام عبد الملك بن مروان

ومن أوائل ما صنع من أصوات وهو من أجود أصواته مع ذلك هذه الابيات من شعر الاحوص

منى على عان أطلت عناءه	قد يملك الحر الكريم فيسجح
أسلام إنك قد ملكت فأسجحى	فى الغل عندك والعناة تسرح
إنى لأنصحكم وأعلم أنه	سيان عندك من يغش وينصح
وإذا شكوت إلى سلامة حبها	قالت أجد منك ذا أم تمزح

وقد أخذ عنه ابن سريج والغريض وغيرهما وعن الغريض أخذ معبد بعد .

أما نشأته بالمدينة فكانت على يد سائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر من الفرس

ويقولون فى سبب هذا أن رجلا فارسيا يدعى نشيطا قدم المدينة فغنى بالفارسية وكان لعبد الله بن جعفر شغف بالطرب والغناء فأعجب به فقال له سائب مولاه أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسى بالعربية ثم غدا عليه وقد صنع هذا اللحن

لمن الديار رسومها قفر   لعبت بها الارواح والقطر
وخلا لها من بعد ساكنها   حجج مضين ثمان أو عشر
والزعفران على ترائبهـا   شرق به اللبات والنحر

وقد أخذ عنه مالك بن أبى السمح ومعبد أيضا وجميلة وعزة الميلاء

وبعمل ابن مسجح وسائب ومن أخذ عنهما وجد الغناء العربى الواقع على أصول النغم. فبعد أن لم تكن العرب تعرف منه الا النصب وهو حداء الركبان، والهزج وهو الخفيف الذى كانت ترقص عليه الاعراب، ثم السناد وهو الثقيل الذى كان يغنى به فى غير الحداء والترقيص، أصبحت وقد تعددت عندها النغمات وكثرت الالحان فى صناعة الاصوات حتى صارت تضارع فيه إن لم تفق أمتى الفرس والروم . ومما ساعد على هذا التقدم السريع ما كان من شديد المنافسة بين مكة والمدينة وتسابقهما فى التفوق وتعليم القيان اللاتى ملأتهما من سبي الفرس والروم وفيهما من بنات الملوك والاشراف من اتسمن بميسم الحسن وتجملن بآثار الحضارة والنعيم فكن خير معينات على هذا النبوغ، وأخذت المدينتان تزخران بالمغنيات وتبعثان بأفواجهن الى قصور الخلفاء والأمراء. وان معاوية وان يك قد تحشم دون الاعتداد بالغناء فقد ترك الناس يلهون به ويستمعون ومعهم ابنـه يزيد ذو الشغف به والاستماع للقيان على أنه لم يمض كبير وقت حتى هدأت الامور بعد قليل من حكم عبد الملك وطال الملك فيه وفى أولاده فشجع وشجعوا حركة الغناء ثم جن به جنونا ابنه يزيد . وكان أجن من يزيد هـذا

ابنه الخليع الوليد بن يزيد

ولما كان الشعر العربى أصلح أنواع الشعر للغناء وكأن لم يخلق الا له فى نفوس الاعراب فقد عاد عليه رواج الغناء بالرقى الباهر والتقدم غير المسبوق بنظير إذ شاع استماع العامة له فى الغناء وكان قبل يكاد يكون وقفا على الخاصة وذوى الاقدار فكان هذا أذيع له وأشد تعريفا بصاحبه فى بيوت العظماء وقصور الخلفاء ومن هنا اتخذه الشعراء سلما للشهرة فخادنوا المغنيين وصافوهم وكثيرا ما كان يتقاسم شاعر ومغن مايصيب كلاهما من جوائز وصلات . ثم كثر الشعراء المغنون كنصيب والمغنون الشعراء كابن عائشة وغيرهما أمثال حنين الحيرى وسعيد الدارمى ومحمد بن الاشعث وعبادل مولى قريش.

ولقد حمل إقبال المغنين على بعض الشعر دون بعض فى تخير الاصوات جمهرة الشعراء على التسابق فى هذا الفخار فأقبلوا من كل نفوسهم على أشعارهم يجودونها بما يرققون من الفاظ ويسلسون من أساليب وبما يبتكرون من معان ويودعونها من تأثير فكان للشعر من هذه الناحية فى تجميل أسلوبه وتجلية معناه ما أوجد له طابعا جديدا وبخاصة فى أنسب فنونه للغناء وهو فن الغزل الذى من أجله ذكرنا هذه الكلمة فى الغناء فلنعد بعدها الى ما كنا بصدده عن الشعر من بيان الاغراض.

٤ — ضآلة الاغراض الاخرى وكثرة الرجز

على أنه لم يبق علينا بعد الذى أفضنا فيه عن الاغراض الثلاثة الرئيسية التى أسلفنا سوى أن نقول إنها لم تدع لسائر أغراض الشعر بجانبها من ظهور فقد غطت على ماعداها وصرفت الشعراء بقوة طغيانها وشدة تيارها عن أن يقولوا فى غيرها فلم تدع لهم متسعا ينفذون منه الى سواها الا ما كان فى الفينة تبعد غن الفينة وللمناسبة تعرض شديدة الدواعى قوية التأثير ولذا لا نكاد

نجد شاعرا خلص الى فن غيرها خلوصا عرف به أو كان ذا غنــاء فيه ، وإذن كل من ذكرنا من الشعراء إلا القليل كان له فى باقى فنون الشعر أو بعضها ماحفظ للشعر بقاءها وجعله لاينقص فى عصره هذا غرضا كان له من قبل جاهلية أوإسلاما. وفيما ذكرنا من نماذج تحت الرقم الرابع مايوضح هذه الفنون الباقية وهى أربعة،الفخر والوصف والرثاءوالحكمة.هذا ولا يفوتناقبل الخروج عما نحن فيه الى موضوعنا الأخير وهو « عناية الخلفاء والأمراءباللغةوالأدب ثم انتشار الرواية وكثرة الرواة » أن ننبه الى ماناله الرجز فى هذا العصر من رقى فاق فيه ماكان له فى العهدين السالفين على أيدى رجال ليسوا بالقليل أشهرهم العجاج وأبو النجم وكانا متعــاصرين ثم رؤبة بن العجاج وأدرك بعدها العباسيين . وقد كان لتعاصر أبى النجم والعجاج ومادب بينهما من تنافس فى هذه السبيل أثر كبير فى تقدم الرجز جعل الناس يحتــدون به وفى مقدمتهم الشعراء فقد جارى كلاهما الآخر مجاراة شديدة وجاريا معا الشعراء فى إطــالة القصيد وتناول كثير من الأغراض حتى عدا من الفحول المقــدمين ثم جاء رؤبة فنهج نهجهماوزاد،ولكل من الثلاثة ديوان،على أن أبلغ ماقال الرجازمودع كتاب أراجيز العرب لعميد اللغة وفقيدها صاحب السماحة والسيــادة السيد محمد توفيق البكرى رحمه الله

عناية الخلفاء والأمراء باللغة والآداب

ثم نشأة الرواية وكثرة الرواه

قلنا فى آخر الكلام على الكتابة العلمية والتدوين،إن موطن العلوم الشرعية الحجاز وموطن البيانية العراق وموطن الأخرى الشام . وبذلك كانت المجامع

الأولى للعلم؛المدينة ومكة والبصرة والكوفة ثم دمشق . ولقد عنى خلفاء الأمويين وأمراؤها منذ معاوية بتنشيط الحركة العلمية والذهاب بها قدما الى الامام.فهذا معاوية وحفيده خالد بن يزيد كان لهما على ماتقدم الفضل المباشر فى تدوين العلوم غير الشرعية واللسانية بما بذلا من مجهود شخصى أوجدها من عدم وجعل لها فى العربية مكانا ومستقرا .أما الشرعية واللسانية فلم تكونا فى حاجة من الخلفاء والأمراء الى المجهود المباشر لأن اندفاع العلماء من الصحابة والتابعين إلى نشر الاسلام ولغة الأسلام وتفقيه الناس بتعليم القرآن والحديث واللغة كان بالغا أشده غير محتاج الى مزيد فلم يزل بهم فى اطراد حتى تم لهم وضع أسسها فى الجامع المذكورة ثم لم يلبثوا أن انبثوا فى عواصم البلاد المفتوحة شرقا وغربا يثبتون أصول هذه العلوم ويرفعون من قواعدها حتى شملت الحركة العلمية كل مكان وأقبل الموالى بشغف شديد يتلقون عنهم مايذيعون ليرفعوا من شأن أنفسهم فى نظر الفاتحين وليثبتوا أنهم أبناء أمم متمدينة ذات استعداد للرقى عظيم فكان أن أصبحوا حملة لواء العلم بعد الصحابة والتابعين وهذه الجهود العلمية المثمرة وان لم يك للخلفاء والأمراء فيها نصيب العامل المشارك كما كانت الحال من بعضهم فى العلوم الأخرى كانت تنمو تحت رعايتهم وتترعرع بسقيهم وعنايتهم فكثيرا ماحبسوا على رجالها الارزاق وأسندوا اليهم كبار المناصب فضلا عما كانوا يحملون لهم من تعظيم وتبجيل وفى هذا حث أيما حث على تقدم العلوم ووفرة النابغين وان لم يزاول كثير منهم بالفعل التأليف والتصنيف

وأما عنايتهم باللغة والأدب فقد فاقت كل عناية وشغلت من نفوسهم المحل الثانى بعد المهام السياسية أو الأول معها؛لأنها عون عليها.ذلك بأنهم رأوا تثبيت

ملكهم فى إحياء العصبية كما تقدم فكان فى هذا إحياء الادب القديم وإعادة مذاكرته ومدارسته بعد أن ألهى عنه طويلا صدر الاسلام حتى كان ينسى .

ومما توج هـذه العناية بالنجاح الباهر والحصول الوافر أن كان الخلفاء أنفسهم من كبار الملمين باللغة والادب العارفين لمحاسن الـكلام ودقائقه الراغبين فى ألا تخلو مجالسهم من حوار فيه ونقاش،فان هذه الأشياء مجتمعة ومعها غيرها منهم أيضا حملت أرباب الـكلام على العناية بالقول والاحتفال بتجويده قبل إهدائه كما حملت رواة الأدب على أن يلموا بالـكثير الذى يحسنون عرضه ويجيدون تقليبه حتى تولد بذلك ضرب رشيق من الحوار الادبى تم نضجه واستوى على يد شيخ هذه الحلبة الخليفة النابه عبد الملك بن مروان اذ هدأت بيده عواصف الفتن واستقرت باعماله أمور الدولة ففاض عهده وعهد أولاده من بعده وكلهم أديب بارع وبحاثة عالم بهذا الحوار الذى شغل ما كان يشغله من قبل الحوار السياسى فى عهد معاوية وأنتج ما نرى بعضه الآن قد ملأ كتب الادب وعاد على اللغة بوافر الغلات . ولما كان عبـد الملك يعتبر رأس ذلك الحوار ورافع لوائه لم نجد بدا من إيثاره بكلمة تمثل الدرجة التى بلغها والتى كان على نمطها ما كان منه فى عهد أولاده من بعد .

آلت الخلافة إلى عبد الملك وكان أعلم خلفاء بنى أمية ومعقد فخارهم ، من أية ناحية نظرت اليه ألفيته الجواد لا يشق غباره والفحل لا يقدع أنفه والخصم يدين له الألداء بالاذعان والتسليم فان طلبت السياسة ألفيت حكمة وخبرة وطدت الملك وقوته وجعلته للطائع العسل حلاوة والماء سلاسة،وعلى العاصى الصاب طعما والشوك مسا . وان أردت دينا وعلما وجدت الشريعة قد سلمت اليه زمامها وألقت عنده عصا تسيارها من شدة حفظ للكتاب والسنة الى جودة فقه لمعانيهما

إلى بعد نظر فى التشريع ومعرفة الاحكام . فاذا مانشدت أدبا وهو معنانا هنا هالك منه الخضم بغزارة مائه وبعد قراره ومرتمى ساحله وشدة تياره، اذا استسقيت رواك فيضه وان جادلت هاضك موجه. ولقد ظهر ذلك جليا فى روايته للشعر وهو صميم الأدب ظهورا لم يجاره فيه الرواة وفى علو نقده له علوا لم يتسام اليه النقاد حتى أصبح مجلسه منتدى الأدب ومنتقد الشعر وصفا له الوقت وطال فتم على يديه فتح هذا الباب الجديد للادباء . وهذى بعض أمثلة له ترى درجة بصره بخير الشعر، وجودة نقده إياه، وحسن تمثله به .

ا — درجة بصره بخير الشعر —

قال لمؤدب ولده اذا رويتهم شعرا فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولى .

يبين الجار حين يبين عنى ولم تأنس إلى كلاب جارى

وتظعن جارتى من جنب بيتى ولم تستر بستر من جدارى

وتأمن أن أطالع حين آتى عليها وهى واضعة الخمار

كذلك هدى آبائى قديما توارثه النجار عن النجار

فهديى هديهم وهم افتلونى كما افتلى العتيق من المهارى

وقال اذ قبض على أزمة الامور بيده وأصبح يرجي حلمه وصفحه ، لعدة من أهل بيته وولده. ليقل كل واحد منكم أحسن شعر سمع فذكروا لامرىء القيس والاعشى وطرفة وأكثروا حتى أتوا على محاسن ماقالوا فقال أشعر من هؤلاء والله معن بن أوس حيث يقول

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم

اذا سمته وصل القرابة سامني قطيعتها تلك السفاهة والظلم

فأسعى لكي أبني ويهدم صالحي وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم

يحاول رغمي لا يحاول غيره وكالموت عندي أن يحل به رغم

فما زلت في ليني له وتعطفي عليه كما تحنو على الولد الأم

لأستل منه الضغن حتى سللته وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

وقال يوما في مجمع من الشعراء يا معشر الشعراء تشبهوننا بالأسد الأبخر والجبل الوعر والملح الاجاج ، ألا قلتم كما قال كعب الاشقرى

لقد خاب أقوام سروا ظلم الدجى يؤمون عمرا ذا الشدير وذا البر

يؤمون من نال الغنى بعد شيبه وقاسى وليدا ما يقاسي ذوو الفقر

فقل للجيم يا لبكر بن وائل مقالة من يلحى أخاه ومن يزرى

فلو كنتم حيا صميما نفيتم بخيلكم بالرغم منه وبالصغر

ولكنكم يا آل بكر بن وائل يسودكم من كان في المال ذا وفر

هو المانع الكلب النباح وضيفه خميص الحشا يرعى النجوم التي تسرى

وقال وقد ذكر زهير وهرم، ما يضر من مدح بما مدح به زهير آل أبي حارثة من قوله

على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

ألا بملك أمور الناس فما ترك زهير منهم غنيا ولا فقيرا الا وصفه ومدحه »

وقال يوما لولده وأهله « أي بيت ضربته العرب ووصفته أشرف حواء وأصلا وبناء » فقالوا فاكثروا ولم يصيبوا فقال هو « أكرم بيت وصفته العرب بيت طفيل الذي يقول فيه

وبيت تهب الريح في حجراته بأرض فضاء بابه لم يحجب

سماوته أسمال برد محبر وصهوته من أتحمى معصب

وأطنابه أرسان جرد كأنها صدور القنا من بادىء ومعقب

نصبت على قوم تدور رماحهم عروق الاعادى من عرين وأشيب

فهذا من فكاهاته فى هذا الباب. ومنها أيضا أنه قال لجلسائه أى المناديل أفضل فقال قائل مناديل مصر كأنها غرقىء البيض وقال آخر مناديل اليمن كأنها نور الربيع فقال بل مناديل عبدة بن الطبيب حيث يقول

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية وفار للقوم باللحم المراجيل

ورد وأشقر ما يأنيه طابخه ما غير الغلى منه فهو مأكول

ثمت قمنا الى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

٢ — جودة نقده للشعر —

ذكر لجلسائه يوما قول نصيب

أهيم بدعد ما حييت فان أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

فكل عابه إذ لم تجد الرواة ولا من يفهم جواهر الكلام له مذهبا فيه. فقال فلو كان اليكم كيف كنتم قائلين فقال رجل منهم كنت أقول

أهيم بدعد ما حييت فان أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى

فقال ما صنعت شيئا فقيل له فكيف كنت قائلا فى ذلك يا أمير المؤمنين قال كنت أقول

أهيم بدعد ما حييت فان أمت فلاصلحت دعد لذى خلة بعدى

فقالوا أنت والله أشعر الثلاثة يا أمير المؤمنين

ووفد عليه عمر بن عبدالله بن أبى ربيعة فقال له أنت القائل

أأترك ليلى ليس بينى وبينها سوى ليلة إنى اذن لصبور

قال نعم قال فبئس المحب أنت تركتها وبينك وبينها غدوه

واستنشد أسيلم بن الأحنف الاسدى أحسن ما مدح به فقال قول القائل

ألا أيها الركب المخبون هل لكم بسيد أهل الشأم تحبوا وترجعوا
من النفر البيض الذين اذا اعتزوا وهاب رجال حلقة الباب قعقعوا
إذا النفر السود اليمانون نمنموا له حوك برديه أجادوا وأوسعوا
جلا المسك والحمام والبيض كالدمى وفرق المدارى رأسه فهو أنزع

فقال له ولكن ماقال أخو الاوس أحسن مما قيل لك وأنشد « يريد أبا قيس ابن الاسلت »

قد حصت البيضة رأسى فما أطعم نوما غير تهجاع

ولما أنشده الاخطل قوله

بكر العواذل يبتدرن ملامتى والعادلون فكلهم يلحانى
فى أن سبقت بشربة مقدية صرف مشعشعة بماء شنان

قال له إن شبيب بن البرصاء أكرم منك وصفا لنفسه حيث يقول

وإنى لسهل الوجه يعرف مجلسى إذا أحزن القاذورة المتعبس
يضىء سنا جودى لمن يبتغى القرى وليل بخيل القوم ظلماء حندس
ألين لذى القربى مرارا وتلتوى بأعناق أعدائى حبال فتمرس

ولما دخل عليه أرطأة بن سهية وكان قد هاجى شبيبا هذا فاستنشده بعض ماقال فيه فأنشده والخطاب لشبيب

أبى كان خيرا من أبيك ولم يزل جنيبا لآبائى وأنت جنيب

قال له كذبت شبيب خير منك أبا. ثم أنشده والخطاب لشبيب أيضا

ومازلت خيرا منك مذ عض كارها برأسك عادى النجاد ركوب

قال له صدقت أنت فى نفسك خير من شبيب. قال أبو عبيدة فعجب من عبد الملك

من حضر لمعرفته أقدار الناس على بعدهم منه فى بواديهم إذ كان الامر كما قال .

ومن هذه الناحية ماروى من أنه لما دخل عليه الجحاف بن حكيم السلمى بعد أن أمنه وحضر من بلاد الروم واستنشده بعض ماقال فى غزوته فأنشده

صبرت سليم للطعان وعامر واذا جزعنا لم نجد من يصبر

قال له كذبت ماأكثر من يصبر، فلما أنشده

نحن الذين اذا علوا لم يفخروا يوم اللقاء وان علوا لم يضجروا

قال له صدقت حدثنى أبى عن أبى سفيان بن حرب أنكم كنتم كما وصفت يوم فتح مكة .

ولما استأذنه عبيد الله بن قيس الرقيات بعد أن عفا عنه وأمنه وكان منقطعا إلى مصعب بن الزبير فى أن يمدحه فأذن وأنشده قصيدته التى يقول فيها

إن الاغر الذى أبوه أبو العا صى عليه الوقار والحجب

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

قال له يا بن قيس تمدحنى بالتاج كأنى من العجم وتقول فى مصعب

انما مصعب شهاب من اللـه تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق لك ولكن لاتأخذ مع المسلمين عطاء أبدا

ولما بلغه قول جرير فى مهاجاته الاخطل من أبيات تقدمت بالنماذج

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا

قال مازاد ابن المراغة على أن جعلنى شرطيا له أما إنه لو قال (لو شاء ساقكم إلى قطينا) لسقتهم اليه كما قال . واجتمعا عنده ومعهما الفرزدق فأحضر بين يديه كيسا فيه خمسمائة دينار ثم قال ليقل كل منكم بيتا فى مدح نفسه فأيكم

غلب فله الكيس فبدأ الفرزدق فقال

أنا القطران والشعراء جربى ... وفى القطران للجربى شفاء

فقال الاحطل للفرزدق

فان تك زق زاملة فانى ... أنا الطاعون ليس له دواء

فقال جرير لهما

أنا الموت الذى آتى عليكم ... فليس لهارب منى نجاء

فقال عبدالملك فلعمرى إن الموت يأتى على كل شىء وقضى له. وكأن الفرزدق اذا اجتمع مع جرير عنده ظن فى أخذه هذا المعنى غلبة له على جرير فقال «النوار طالق ان لم أقل شعرا لا يستطيع ابن المراغة أن ينقضه أبدا ولا يجد فى الزيادة عليه مذهبا قال عبدالملك ما هو فقال

فانى أنا الموت الذى هو واقع ... بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله

وما أحد يابن الأتان بوائل ... من الموت إن الموت لاشك نائله

فأطرق جرير ثم قال أم حزرة طالق ثلاثا إن لم أكن نقضته وزدت عليه فقال عبدالملك هات فقد والله طلق أحدكما لا محالة فانشد

أنا البدر يغشى نور عينيك فالتمس ... بكفيك يابن القين هل أنت نائله

أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد ... فجئنى بمثل الدهر شيئا يطاوله

فقال عبدالملك فضلك والله يا أبا فراس وطلق عليك فبانت النوار وندم الفرزدق وذلك حيث يقول

ندمت ندامة الكسعى لما ... غدت منى مطلقة نوار

هذا وكان عبد الملك لبصره بالشعر يذعن للخصم فى النقد إذا كان مصيبا وهذا من البصر أيضا . روى أنه لما أنشد قول كثير فى أخذه الخلافة

فما تركوها عنوة عن مودة ولكن بحد المشرفى استقالها

أعجب به كل العجب وكان الاخطل حاضرا فقال ما قلت والله يا أمير المؤمنين أحسن منه قال وما قلت فأنشد

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالى ملك لا طريف ولا غصب

جعلتها لك حقا وجعلك قد أخذتها غصبا قال صدقت. ولم يك هذا منه تعصبا لشاعره الاخطل فكثيرا ما كان يقضى عليه .روى أنه لما أنشد قوله

فاذا تعاودت الاكف زجاجها نفحت فشم رياحها المزكوم

فأعجب به وقال سمعت بمثل هذا يا شعبي وكان حاضرا فقال الشعبي أشعر منه والله أعشى قيس حيث يقول

من اللائى حملن على المطايا كريح المسك تستل الزكاما

قال صدقت

٣ — حسن تمثله بالشعر —

أما حسن تمثله بالشعر ـ وتقدم بعضه فى خطبه وكتبه ـ فقد كان حليفه فى كل داعية جدا كانت أم هزلا —

كان إذا جلس للقضاء بين الناس أقام وصيفا على رأسه ينشده

إنا إذا مالت دواعى الهوى وأنصت السامع للقائل
واصطرع القوم بألبابهم نقضى بحكم عادل فاصل
لا نجعل الباطل حقا ولا نلظ دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامنا فنخمل الدهر مع الخامل

وكان يتمثل فى الحروب عند كل لقاء بقول شبيب بن البرصاء

دعانى حصن للفرار فساءنى مواطن أن يثنى على فأشتما
فقلت لحصن نح نفسك إنما يذود الفتى عن حوضه أن يهدما

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد　　لنفسى حياة مثل آن أتقدما
سيكفيك أطراف الأسنة فارس　　اذا ريم نادى بالجواد وبالحمى
اذا المرء لم يغش المكاره أوشكت　　حبال الهوينى بالفتى أن تجذما

ولما لاذت به زوجه عاتكة بنت يزيد إذ خرج لحرب مصعب تريد منعه فأبى فبكت وبكت معها جواريها جلس وقال قاتل الله كثيرا والله لكأنه يرانى ويراك ياعاتكه حيث يقول

إذا ماأراد الغزو لم تثن همه　　حصان عليها عقد در يزينها
نهته فلما لم تر النهى عاقه　　بكت فبكى مما شجاها قطينها

ثم نهض فكان فى خروجه قتل مصعب. وعاتكة هذه هى التى حدث بينه وبينها جفوة شقت عليه ووسط من خاصته من يزيلها فلما طلع الرسول برضاها اندفع متمثلا بقول كثير أيضا

وانى لأرعى قومها من جلالها　　وإن أظهروا غشا نصحت لهم جهدى
ولو حاربوا قومى لكنت لقومها　　صديقا ولم أحمل على قومها حقدى

ومع ذلك لم يستمع لها اذ جد الجد فى الحرب وكان هذا شأنه. ورد عليه كتاب ابن الاشعث السابق وهو يستعرض جارية بعث بها اليه واليه على اليمن فنحاها وامتنع فقالت مايمنعك يا أمير المؤمنين قال يمنعنى ماقاله فينا الاخطل لانى إن خرجت منه كنت الأم العرب وأنشد

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم　　دون النساء ولو باتت بأطهار

ولما استنشد أبا العباس الاعمى رثاءه مصعبا فأنشده قوله

يرحم الله مصعبا فلقد　　مات كريما ورام أمرا جسيما

قال أجل إنه مات كريما ثم تمثل

ولكنه رام التى لايرومها من الناس إلا كل حر معمم

وكان فى تمثله بالشعر صريحا لايبالى روى أن عروة بن الزبير إذ لحق به بعد قتل أخويه مصعب وعبد الله وأقام عنده فكان يكرمه منفردا ويستخف به مجتمعا قال له ياأمير المؤمنين أراك تكرم ضيفك فى الخلا وتهينه فى الملا قال لله در زهير حيث يقول

فقرى فى بلادك إن قوما متى يدعوا بلادهم يهونوا

فاستأذن عروة فى الرجوع الى المدينة فقضى حوائجه وأذن له . ومن هـذا أيضا أنه كان كلما نظر الى أخيه معاوية وكان ضعيفا تمثل بهذين البيتين للمغيرة بن حبناء فى أخيه صخر وكان كذلك

أبوك أبى وأنت أخى ولكن تفـاضلت الطبائع والظروف

وأمك حين تنسب أم صدق ولكن ابنها طبع سخيف

ولما مات أخوه عبد العزيز وكان به حدبا كان يكثر ترديد هذه الابيات ويبكى

يأيها المتمنى أن يكون فتى مثل ابن ليلى لقد خلا لك السبلا

إن ترحل العيش كى تسعى مساعيه يشفق عليك وتعمل دون ما عملا

لو صرت فى الناس أقصاهم وأقربهم فى شقة الارض حتى تحسر الابلا

تبغى فتى فوق الارض ماوجدوا مثل الذى غيبوا فى بطنها رجلا

أعدد ثلاث خصال قد عرفن له هل سب من أحد أو سب أو بخلا

ولما دخل عليه نصيب بعد وفاة عبد العزيز هذا وكان من خواصه ومادحيـه قال له أنشدنى مارثيت به أخى فأنشده

عرفت وجربت الأمور فما أرى كماض تلاه الغـابر المتأخر

ولكن أهل الفضل من أهل نعمتى يمرون أسلافا أمامى وأغبر

فان أبكه أعذر وإن أغلب الأسى بصبر فمثلى عند ما اشتد يصبر

أعاد بيته الاخير وقال له ويلك أنا أحق بهذه الصفة فى أخى منك فهلا وصفتنى بها أو جعل يبكى .

وآخر ماتمثل به من الشعر وتأثر له من التمثل بالشعر ماحدث به الشعبي قال دخلت على عبد الملك بن مروان فى علته التى مات فيها فقلت كيف تجدك ياأمير المؤمنين فقال أصبحت كما قال عمرو بن قمئة

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عنى عنان لجامى

رمتنى بنات الدهر من حيث لاأرى فكيف بمن يرمى وليس برام

فلو أنها نبل إذن لاتقيتها ولكنما أرمى بغير سهام

وأهلكنى تأميل يوم وليلة وتأميل عام بعد ذاك وعام

فقلت كيف ذلك يا أمير المؤمنين وهذا كما قال لبيد

قامت تشكى الى الموت مجهشة وقد حملتك سبعا بعد سبعينا

فان تزادى ثلاثا تبلغى أملا وفى الثلاث وفاء للثمانينا

فعاش حتى بلغ التسعين فقال

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عن منكبى ردائيا

فعاش والله حتى بلغ مائة وعشرين فقال

وغنيت دهرا قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود

فعاش حتى بلغ مائة وأربعين فقال

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذى الناس كيف لبيد

فتبسم عبد الملك وقال قويت من نفسى بقولك ياعامر وإنى لأجد خفا وما بى من بأس ، وأمر لى بصلة وقال لى اجلس ياشعبي فحدثنى مابينك وبين الليل فجلست فحدثته حتى أمسيت وخرجت من عنده فما أصبحت حتى سمعت الواعية فى داره

نشأة الرواية وكثرة الرواه

هذا هو النهج الذى نهجه عبد الملك فى مجالسه فشاع الحوار الادبى بين الناس ووجدت ملكة النقد فى نفوسهم وانتشرت مجامع الادب من دور الخلفاء الى دور الولاة والمساجد والاسواق وبخاصة سوق البصرة المعروف بالمربد فقد حل فى الاسلام محل عكاظ فى الجاهلية وزاد . فكانت تتألف فيه حلقات المناشدة والمفاخرة وتعقد به مجالس الادب والرواية إذ يقصده الشعراء من كل فج ومع كل شاعر راويته ولكل حلقته الخاصة به وبأنصاره . فكان التنافس بين الشعراء شديدا، وحسبك دليلا على هذا ما كان بين الفرزدق وجرير ومن دب الخلاف بينهم بسببهما من الشعراء . ثم سار أبناء عبد الملك فى ذلك سيرته وقد سبق ما كان من ابنه سليمان فى تفضيل نصيب على الفرزدق إذ استنشدهما . ومن قبله كان الوليد يدع الشعراء فى مجلسه يستمع بعضهم لبعض وينقد بعضهم بعضا. دخل عليه جرير وابن الرقاع عنده ينشده القصيدة التى يقول فيها

غلب المساميح الوليد سماحة　　　وكفى قريش المعضلات وسادها

قال جرير فحسدته على أبيات منها حتى اذا أنشد فى وصفه الظبية (تزجى أغن كان إبرة روقه) قلت فى نفسى والله لن يقدر أن يقول أو يشبه فلما قال (قلم أصاب من الدواة مدادها) ما قدرت حسدا أن أقيم فانصرفت . ومن بعدهما كان يزيد أخوهما مثلهما وأكثر، فقد رد الاحوص من منفاه ببيت من الشعر قاله فيه وسمعه من مغنيته وهو

كريم قريش حين ينسب والذى　　　أقرت له بالملك كهلا وأمردا

ثم جاء عهد هشام الذى ملك نحو عشرين سنة كما ملك أبوه ومن قبلهما معاوية، فكان غرامه بالادب شديدا حتى كان يأرق فى جوف الليل فيطلب من الاعراب

من يحدثه فاذا أجاد كانت فى هذا سعادته، ولقـد أحضر له الخادم ذات ليلة أبا النجم الراجز وكـان غاضبا عليه منذ أن قال فى أرجوزة يمدحه فيها (والشمس فى الافق كعين الاحول) وكان هشام أحول فقبله مع ذلك لشدة شغفه بمن يحدثه وسأله ماعندك من الولد فقال ثلاث بنات زوجت منهن اثنتين وبنى يقال له شيبان فسأله عما أوصاهما به عند الزفاف فقال قلت للاولى واسمها برة

أوصيت من برة قلبا حرا بالـكلب خيرا والحماة شرا
لا تسأمى ضربا لهـا وجرا حتى ترى حلو الحياة مرا
وإن كستك ذهبا ودرا والحى عميهم بشر طـرا

فضحك هشام وقال فما قلت للاخرى قال قلت

سبى الحماة وابهتى عليها وان دنت فازدلفى اليهـا
وأوجعى بالقهر ركبتيهـا ومرفقيها واضربى جنبيها
وظاهرى النذر لهـا عليها لا تخبرى الدهر بذاك ابنيها

فضحك هشام حتى بدت نواجذه وقال فما حال الاخرى قال درجت بين بيوت الحى ونفعتنا فى الرسالة والحاجة. قال له فما قلت فيها قال قلت

كأن ظلامة أخت شيبان يتيمة ووالدها حيـان
الرأس قمل كله وصئبانـ وليس فى الرجلين إلا خيطان
فهى التى يذعر منها الشيطان

فضحك هشام حتى ضحك النساء لضحكه وقال للخصى ما بقى من نفقتك قال ثلثمائة دينار قال ادفعها إلى أبى النجم ليجعلها فى رجل ظلامة مكان الخيطين. ولقد كتب إلى عامله على العراق أن يدفع إلى حماد الراوية خمسمائة دينار ويرحله اليه بدمشق على جمل مهرى فلما وصله بعد اثنتى عشرة ليلة استدناه وقال له

بعثت اليك لبيت خطر ببالى لم أدر قائله قال حماد قلت وما هو ياأمير المؤمنين قال

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت قينة فى يمينها إبريق

فقلت هذا يقوله عدى بن زيد فى قصيدة له قال أنشدنيها فانشدته إياها فطرب. ثم أجزل من عطائه وأعاده إلى أهله

بهذا الصنيع وأمثاله من الخلفاء ونحوه مما قلدهم فيه الأمراء والولاة وسائر الناس شعراء وغيرهم انتشرت الرواية وكثر الرواة وكان من أشهرهم عامر الشعبي الذى تقدم ذكره مع عبد الملك وحماد الرواية الذى كنا فى حديثه مع هشام. فأما عامر فكان واسع الرواية فى كل فن وقد أوفده الحجاج الى عبد الملك ليكون خاصته وسميره ومع قوله عن نفسه «لست لشىء من العلوم أقل رواية منى للشعر» كان يقول «لو شئت لأنشدت شهرا ولا أعيد بيتا» وكانت وفاته سنة ١٠٤. وأما حماد فكان البحر لاساحل له وكان المقدم عند بنى أمية حتى استحق دون الرواة أن يلقب بالراوية. ولقد سأله الوليد بن يزيد وهو يكلمه فى سبب هذا اللقب عن مقدار ما يحفظ من الشعر فقال كثير ولكنى أنشد على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام وهو أول من عنى بتدوين الشعر إذ جمع السبع الطوال المعروفة بالمعلقات غير أنه لم يك ثقة كما كان الشعبي ثقة فقد اتهم بالزيادة فى أشعار النـاس كما اتهم خلف الأحمر بالوضع والاختلاق ولكن ماوضع ميزه النقاد وأرباب الـكلام. وقد أدرك حماد الدولة العباسية إذ توفى سنـة ١٥٥. ومن الرواة الثقات أبو عمرو بن العلاء وقد تقدم وغير هؤلاء كثير فليرجع فى أخبارهم وفى سائر ما أشرنا اليه من نقد الى كتب الأدب التى تزخر بذلك وتفيض.

وبعد

فان لنا بعد الذي تقدم عن اللغة نثرها وشعرها في العصر الأموي، أن نصفها غير متحسبين بأنها قامت بكل مقتضيات الملك والسياسة أحسن قيام وأن فيها من المطاوعة ماسايرت وتساير به أعظم المدنيات وأرقى الحضارات - والله حسبنا وهو المستعان.

فهـــــرس

تاريخ الأدب العربى فى صدر الاسلام والعصر الأموى


Bibliotheca Alexandrina
02523377